

شرح التعرف لمذهب أهل التصوف

تأليف

الإمام علاء الدين أبي الحسن
علي بن إسماعيل بن يوسف القونوي الشافعي
المتوفى سنة ٧٢٩ هـ

حققه وعلق عليه

السيد يوسف أحمد

تنبيه
وضعنا متن كتاب التعرف لمذهب أهل التصوف للكلاباذي
أعلى الصفحات وأسفل منها شرحها لعلي بن إسماعيل القونوي

الجزء الثاني



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الباب السادس والعشرون
قولهم في كرامات الأولياء[1]

أجمعوا علىٰ إثبات كرامات الأولياء، وإن كانت تدخل في باب المعجزات كالمشي علىٰ الماء وكلام البهائم وطيّ الأرض وظهور الشيء في غير موضعه ووقته.

قوله: قولهم في كرامات الأولياء

وأجمعوا علىٰ إثبات كرامات الأولياء وجوازها عليهم، وإن كانت داخلة في حدّ المعجزة خلافًا لبعض المعتزلة والأستاذ أبي إسحاق الإسفرائني من أهل السُنّة، واحتج النافي بأنه لو جازت الكرامة لا تميزت المعجزة عن غيرها، والنبي عن غيره ولأنه لا فائدة في خرق العادة علىٰ يد غير مدعي النبوة، لأن فائدته ثبوت النبوة.

وهذا منتف ههنا، أُجيب بتميزها بكونها مع التحدي[2] دون الكرامة فإنها تظهر من الولي بدون دعواه[3] وظهور الكرامة من الولي يدل علىٰ صحة نبوة نبيه لأن الكرامة تظهر علىٰ يد من هو مؤمن معتقد للرسول تابعًا له، فلو لم يكن نبوته حقة لما ظهر الخارق علىٰ يد متابعه ومعتقده، فهو الفائدة.

قوله: وظهور الشيء في غير موضعه ووقته.

---

(١) المعجزات للأنبياء والكرامات للأولياء وظهور الكرامات علىٰ الأولياء جائز عقلاً وصدقًا طالما أن ذلك معلق بقدرة الله تعالىٰ والفرق بين المعجزة والكرامة أن الأنبياء عليهم السلام مأمورون بإظهار معجزاتهم والولي يجب عليه ستر كرامته وليست الكرامة للأولياء إلّا تأديبًا لنفوسهم وتهذيبًا لها وزيادة لهم وأكبر الكرامات أن تبدل خلقًا مذمومًا من أخلاق نفسك بخلق محمود.
المعجم الصوفي (ص٢٠٨)

(٢) التحدي إظهار فعل مقرونًا بالدعوى لتعجيز الغير من قولهم تحديته أي بارزته فغلبته. (وجدناه بالهامش).

(٣) أي دعوى الخارق للعادة. (وجدناه بالهامش).

وقد جاءت الأخبار بها وصحت الروايات ونطق بها التنزيل من قصة الذي عنده علم من الكتاب في قوله تعالىٰ: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النَّمل: ٤٠].

كما حكي أن جماعة من الفقراء كانوا يمشون مع حسين بن منصور في البادية فقالوا له: نحن نشتهي التين، فذهب بيده إلىٰ خلفه وجاء بطبق عليه تين طري وقدمه إليهم فأكلوه، فتعجبوا من ذلك[١].

فقالوا له: بماذا نلت هذا؟ قال: لأنه استوى لي البادية وباب الطاق، ولو بلغتم هذا المبلغ نلتم ما نلت.

وقد جاءت الأخبار الكثيرة بالكرامات **وصحت الروايات** في ثبوت الكرامات[٢] **ونطق بها التنزيل من قصة الذي عنده علم من الكتاب؛ في قوله تعالىٰ:** ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النَّمل: الآية ٤٠] لما أراد سليمان عليه السلام أن يؤتي إليه بعرش بلقيس.

فقال: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾﴾. وكان هذا العفريت مؤمنًا، وادعى أنه يأتي بعرشها قبل أن يفرغ سليمان من الأقضية.

---

(١) خرجت أم أيمن وهي صائمة وليس معها زاد ولا ماء فعطشت حتى كادت تتلف فلما كان وقت الفطر سمعت حسًا علىٰ رأسها فرفعته فإذا هو دلو برشاء أبيض معلق فشربت منه حتى رويت وما عطشت بعدها.

وعامر بن فهيرة التمسوا جسده فحمته الدبر ولم يقدروا علىٰ الوصول إليه.

انظر قطر الولي علىٰ حديث الولي (ص٥٧) من تحقيقنا ـ طبعة دار الكتب العلمية

(٢) من ازداد تقربًا إلىٰ الله بفرائضه واجتناب مناهيه بفعل النوافل والاستكثار من ذكره زاده الله محبة وفتح له أبواب الخير كله دقة وجلة، فغير بعيد ولا مستنكر أن تظهر علىٰ يده من الكرامات التي لا تنافي الشريعة والتصرفات في مخلوقات الله ﷻ الوسيعة، لأنه إذا دعاه أجابه وإذا سأله أعطاه ولم يصب من جعل ما يظهر من كثير من الأولياء من قطع المسافات والمكاشفات والأفعال التي تعجز عنها غالب القوى البشرية من الأفعال الشيطانية لأنه من كان مجاب الدعوة لا يمتنع أن يسال الله ذلك.

قطر الولي علىٰ حديث الولي (ص٤٩) من تحقيقنا ـ طبعة دار الكتب العلمية

وقصة مريم حين قال لها زكريا: ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ [آل عِمرَان: ٣٧] . وقصة الرجلين اللذين كانا عند النبي ﷺ ثم خرجا فأضاء لهما سوطاهما[١]، وغير ذلك ....

فقال سليمان: أريد أعجل من ذلك.

فقال آصف[٢]: أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك.

فقال آصف: بسم الله الرحمن الرحيم.

فجيء بعرشها قبل ارتداد طرفه.

وقيل: قال آصف: لا حول ولا قوة إلَّا بالله.

وقيل: قال يا حي يا قيوم، وقيل: ذكر اسم الله الأعظم فجيء بعرشها.

ومن قصة مريم كما قال الله تعالىٰ: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ [آل عِمرَان: ٣٧] . قيل هو فاكهة الشتاء في الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء.

ومن قصة الرجلين كانا عند النبي ﷺ في ليلة مظلمة، ثم خرجا من عنده ومع كل واحد منهما قضيب فأضاء قضيب كل منهما له إلىٰ أن دخل بيته[٣].

---

(١) حدث ذلك لأسيد بن حضير وعباد بن بشر لما خرجا من عند رسول الله ﷺ في ظلمة الليل فأضاء لهما أطراف السوط فلما افترقا افترق الضوء معهما».

وكانت الملائكة تسلم علىٰ عمران بن حصين وكان أسيد بن حضير يقرأ سورة الكهف فنزلت السكينة من السماء مثل الظلة فيها أمثال السرج وهي الملائكة.

قطر الولي علىٰ حديث الولي (ص٥٥، ٥٦) من تحقيقنا ـ طبعة دار الكتب العلمية

(٢) قال ابن عباس هو آصف كاتب سليمان، وقال ابن إسحاق عن يزيد بن رومان أنه آصف بن برخياء وكان صديقًا يعلم الاسم الأعظم، قال مجاهد: قال: يا ذا الجلال والإكرام قال الزهري: قال: يا إلهنا وإله كل شيء إلهًا واحدًا لا إله إلا أنت اتني بعرشها، قال: فمثل بين يديه، وقال مجاهد وسعيد بن جبير ومحمد بن إسحاق وزهير بن محمد وغيرهم لما دعا الله تعالىٰ وسأله أن يأتيه بعرش بلقيس وكان في اليمن وسليمان ببيت المقدس غاب السرير وغاص في الأرض ثم نبع من بين يدي سليمان.

تفسير ابن كثير (٣/ ٣٧٦)

(٣) من كان من المعدودين من الأولياء إن كان من المؤمنين بالله وملائكته وكتبه ورسله والقدر =

وجواز ذلك في عصر النبي ﷺ وغير عصره واحد، وذلك أنه إذا كانت في عصر النبي للنبي ﷺ علىٰ معنى التصديق لكان في غير عصره، هَم علىٰ معنى التصديق ....

قوله: وجواز ذلك في عصر النبي عليه الصلاة والسلام وغير عصره واحد.

أي وجواز ظهور الكرامة علىٰ الأولياء في عصر النبي عليه الصلاة والسلام وغير عصره واحد في أنه يجوز في العصرين.

قال بعضهم: يجوز في عصر النبي عليه الصلاة والسلام معجزة له[1]، ولا يجوز في غير عصره لئلا تلتبس المعجزة بالكرامة.

واستدل صاحب الكتاب علىٰ جوازه في غير عصر النبي عليه الصلاة والسلام أيضًا، لأنه إذا جاز في عصره علىٰ معنى التصديق له جاز في غير عصره لأن الكرامة تظهر علىٰ يد من هو مؤمن معتقد للنبي تابع له، فلو لم يثبت صحة نبوته لما ظهرت الكرامة علىٰ متابعه ومعتقده.

وهذا المعنى موجود في غير عصره فيدل علىٰ صحة نبوته وعلى التصديق له والالتباس منتفٍ، لأن الكرامة من الوليّ غير مقرونة بالتحدي بخلاف المعجزة.

ولفظة: هم في قوله: هَم علىٰ معنى التصديق ـ فارسي استعمله صاحب الكتاب بمعنى كذا ـ.

= خيره وشره مقيمًا لما أوجب الله عليه تاركًا لما نهاه الله عنه مستكثرًا من طاعاته فهو من أولياء الله سبحانه وما ظهر عليه من الكرامات التي لم تخالف الشرع فهي موهبة من الله ﷻ لا يحل لمسلم أن ينكرها.

ومن كان بعكس هذه الصفات فليس من أولياء الله سبحانه وليست ولايته رحمانية بل شيطانية وكراماته من تلبيس الشيطان عليه وعلى الناس.

قطر الولي علىٰ حديث الولي ص٦٥ من تحقيقنا ـ طبعة دار الكتب العلمية.

(١) كما حدث مع اسيد بن حضير فيما رواه البخاري ومسلم من حديث أبي سعيد الخدري أن أسيد ابن حضير بينما هو ليلة يقرأ في مربده إذ جالت فرسه فقرأ ثم جالت أخرى فقرأ ثم جالت أيضًا قال أسيد فخشيت أن تطأ يحيى فقمت إليها فإذا مثل الظلة فوق رأسي فيها مثل السرج عرجت في الجو حتى ما أراها فغدوت علىٰ رسول الله ﷺ . . . الحديث وفي آخره قال رسول الله ﷺ: **«تلك الملائكة كانت تستمع لك ولو قرأت لأصبحت يراها الناس ما تستتر منهم»**. =

وقد كان بعد النبي ﷺ لعمر بن الخطاب حين نادى سارية قال: يا سارية ابن حصن الجبل الجبل، وعمر بالمدينة علىٰ المنبر.

وسارية في وجه العدو علىٰ مسيرة شهر.

والأخبار في هذا كثيرة وافرة، وإنما أنكر جواز ذلك من أنكر لأن فيه زعم إبطال النبوات، لأن النبي لا يظهر عن غيره إلّا بمعجزة يأتي بها تدل علىٰ صدقه ويعجز عنها غيره، فإذا ظهرت علىٰ غيره لم يكن بينه وبين من ليس بنبي فرق، ولا دليل علىٰ صدقه.

قالوا: وفيه تعجيز الله عن إظهار نبي ممن ليس بنبي وقال أبو بكر الوراق: النبي لم يكن نبيًا للمعجزة، وإنما كان نبيًّا بإرسال الله تعالىٰ إياه ووحيه إليه فمن أرسله الله وأوحى إليه فهو نبي كانت معه معجزة أو لم تكن.

ووجب علىٰ من دعاه الرسول الإجابة له، وإن لم يره معجزة، وإنما كانت

وأيضًا قد كان ظهور الكرامة بعد النبي عليه الصلاة والسلام لعمر بن الخطاب رضي الله عنه لما روي أنه رأى سارية يوم الجمعة وكان خاطبًا علىٰ المنبر بالمدينة جيشه بنهاوند، وسارية بن حصن أمير جيشه وقد اختفى العدو خلف جبل ليفاجئوا علىٰ المسلمين فقال عمر رضي الله عنه: يا سارية الجبل الجبل - أي اقصد الجبل الذي خلفه العدو - فسمع سارية صوته، وكان بينهما قريب من خمسمائة فرسخ.

والأخبار في الكرامات كثيرة وافرة مشهورة، وإنما أنكر جواز الكرامة علىٰ الأولياء من أنكرها لأنه زعم أن فيه إبطال النبوة لعدم بقاء الفرق بين النبي وغيره.

وعدم دليل يدل علىٰ صدقه.

وقد تقدم ما يدل علىٰ عدم إبطالها.

قوله: وفيه تعجيز الله عن إظهار نبي ممن ليس بنبي، أي في تجويز الكرامة تعجيز الله عن إظهار نبي ممن ليس بنبي لأنه إذا ظهر من غير النبي مثل ما ظهر من النبي من المعجزة، فلم يتميز النبي من غيره.

ويدل ذلك علىٰ عجز الله تعالىٰ من إظهار التمييز بينهما، وضعف ذلك ظاهر لأنهما يتميزان بالتحدي وعدمه.

المعجزات لإثبات الحجة علىٰ من أنكر ووجوب كلمة العذاب علىٰ من عاند، وإنما وجبت الإجابة للنبي بدعوته لأنه يدعوه إلىٰ ما أوجب الله عليه من توحيده ونفي الشركاء عنه وإتيان ما ليس في العقل استحالته، بل وجوبه أو جوازه.

والأصل في ذلك أنهما عينان نبيّ ومتنبّي، فالنبي صادق، والمتنبي كاذب، وهما يشتبهان في الصورة والتركيب.

وأجمعوا أن الصادق يؤيده الله بالمعجزة، والكاذب لا يجوز له ما يكون للصادق، لأن في هذا تعجيز الله عن إظهار الصادق من الكاذب.

فأما إن كان وليّ[1] صادق ليس بنبي فإنه لا يدعي النبوة ولا ما هو كذب وباطل، وإنما يدعو إلىٰ ما هو حق وصدق فإن أظهر الله عليه كرامة لم يقدح ذلك في نبوة النبي ....

قوله: والأصل في ذلك أنهما عينان.

أي الأصل في التميز بين النبي وغيره أنهما شخصان متشابهان في الصورة والتركيب.

وأحدهما نبي صادق والآخر متنبي كاذب فيحتاج الصادق إلىٰ دليل يعجز عنه الكاذب ليتميز الصادق عن الكاذب، لأنه لو لم يعجز عنه الكاذب، بل يجوز له ما يكون للصادق من المعجزة يلزم تعجيز الله تعالىٰ عن إظهار الصادق من الكاذب، لأنه حينئذ يصدر من الكاذب مثل ما يصدر من الصادق والله تعالىٰ يريد متابعة الصادق دون الكاذب والمتابعة لا تتصور بدون معرفة التميز بينهما وإذا لم ينصب الله تعالىٰ دليلًا علىٰ التميز بينهما فكأنه عاجز عن تمييز الحق عن الباطل.

---

(١) الولي هو الذي أدى الواجبات واجتنب المحرمات وأكثر من النوافل فالطبقة العليا من المؤمنين بعد الأنبياء بالنسبة إلىٰ البشر والجن هم الأولياء ثم سائر المؤمنين، أما الملائكة فكلهم أولياء الله وإن كانوا علىٰ درجات فيما بينهم وأكبر الأولياء في البشر وأعلاهم درجة هم أولياء الصحابة وأولياء أمة محمد ﷺ هم الذين عناهم الله بقوله: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ ... الآية.

ولا أوجب شبهة فيها، لأن الصادق يقول ما يقوله النبي ويدعو إلىٰ ما يدعو إليه النبي.

فظهور الكرامة له تأييد للنبي، وإظهار لدعوته، وإلزام لحجته، وتصديقه فيما يدعوه ويدعيه من النبوة وإثبات توحيد الله عز وجل.

وجوز بعضهم أن يرى الله أعداءه في خاصة أنفسهم وفيما لا يوجب شبهه ما يخرج من العادات ويكون ذلك استدراجًا لهم وسببًا لهلاكهم.

قوله: ولا أوجب شبهة فيها.

أي في نبوة النبي عليه الصلاة والسلام لأن الشبهة إنما يكون حيث يكون مخالفًا للنبي.

قوله: وجوز بعضهم أن يرى الله أعداءه في خاصة أنفسهم، وفيما لا يوجب شبهة ما يخرج عن العادات كما أعطى الله فرعون حين ادعى الأُلهية ما يخرج عن العادة من وقوف ماء النيل متى وقف فرسه الذي ركبه ومن جريه متى جرى فرسه.

وجاء أيضًا في قصته أنه متى ركب الفرس ويريد صعود الثنية قصرت يدا الفرس وطالت رجلاه ومتى يريد نزولها من موضع عال طالت يدا الفرس وقصرت رجلاه.

ومن قصة الدجال[1] من الإماتة والإحياء.

وأمثال ذلك التي تشبه المعجزات والكرامات، ولا يقع الشبهة للخلق في كذبه فإنه لا يشبه أن الآكل والماشي والذي يركب الحمار وهو أعور ليس بإله، يعطي أعداءه ذلك استدراجًا لهم وسببًا لهلاكهم.

---

(١) الدجال مأخوذ من الدَّجل وهو الكذب وهو علم علىٰ شخص يظهر في آخر الزمان يدعي الربوبية ويجري الله علىٰ يديه من العجائب والخوارق ما تعظم به الفتنة علىٰ البشر ويحدث خروجه اهتزازًا وتشكيكًا في العقائد فينقسم الناس في شأنه بين مصدق مقتنع وتابع راغب أو راهب، وبين مكذب فار من الفتنة أو مكذب مقاوم وقد حذر الأنبياء أممهم منه وتوسع النبي ﷺ في بيان خطورته علىٰ عقائد الناس فيما رواه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة: **«كان رسول الله ﷺ يدعو اللهم إني أعوذ من عذاب القبر، ومن عذاب النار، ومن فتنة المحيا والممات ومن فتنة المسيح الدجال».**

وذلك أنها تولد في أنفسهم تعظمًا وكبرياء ويرون أنها كرامات لهم استأهلوها لأعمالهم واستوجبوها بأفعالهم فيتكلون علىٰ أعمالهم ويرون لهم الفضل علىٰ الخلق، فيزرؤوا بعباده ويأمنوا مكره، ويستطيلون علىٰ عباده وأما الأولياء فإنهم إذا ظهرت لهم من كرامات الله شيء ازدادوا لله تذللًا وخضوعًا وخشية واستكانة وإزراء بنفوسهم وإيجابًا لحق الله عليهم، فيكون ذلك زيادة لهم في أمورهم وقوة علىٰ مجاهداتهم وشكرًا لله تعالىٰ علىٰ ما أعطاهم، فالذي للأنبياء معجزات وللأولياء كرامات، وللأعداء مخادعات.

وقال بعضهم: إن كرامات الأولياء تجري عليهم من حيث لا يعلمون، والأنبياء تكون لهم المعجزات وهم بها عالمون وبإثباتها ناطقون، ....

كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ١٨٢ وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ١٨٣﴾ [الأعراف: ١٨٢ ـ ١٨٣]، وقال: ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ خَيۡرٞ لِّأَنفُسِهِمۡۚ إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۚ﴾ [آل عمران: ١٧٨]، وقال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ﴾ [الأنعام: ٤٤]، وجميع ذلك يكون للأعداء استدراجًا وهلاكًا.

ومعنى الاستدراج أنهم إذا لم يراعوا تعظيم الله وحرمته بل يهتكونه، فيظهر الله عليهم شيئًا يكون سببًا لتماديهم في ذلك فيهلكون، وإنما يكون ذلك سببًا لهلاكهم، لأنه يولد في أنفسهم تعظمًا أو كبرًا، ويرون أنها كرامات لهم وصاروا أهلاكها بأعمالهم، واستوجبوها بأفعالهم، فيتكلون علىٰ أعمالهم ويرون لهم الفضل علىٰ الخلق.

ويصغر عباد الله في أعينهم وقلوبهم، وينظرون إليهم بنظر الحقارة والعيب، ويتطاولون ويتفاخرون علىٰ عباد الله ويأمنون مكره.

فالذي يظهر الله صدوره من العباد مما يخرج عن العادات من خارقها ثلاثة معجزات الأنبياء، وكرامات للأولياء، ومخادعات للأعداء.

قوله: وقال بعضهم: إن كرامات الأولياء تجري عليهم من حيث لا يعلمون.

إشارة إلىٰ ما ذهب إليه طائفة من الفرق بين الكرامات والمعجزات، فقالوا: إن الكرامات تجري عليهم بحيث لا يعلمونها قبل مجيئها ووقوعها بخلاف المعجزات.

لأن الأولياء قد يخشى عليهم الفتنة مع عدم العصمة والأنبياء لا يخشى عليهم الفتنة بها، لأنهم معصومون قالوا: وكرامة الولي[١] إجابة دعوة وتمام حال وقوة علىٰ فعل وكفاية مؤنة يقوم لهم الحق بها وهي مما يخرج عن العادات.

فإن الأنبياء يعلمونها قبل وقوعها وينطقون بمجيئها قبل وقوعها ويخبرون به.

وذلك **لأن الأولياء قد يخشى عليهم الفتنة بها** أي زوال الإيمان **مع عدم** ورود **العصمة** في حقهم من الله من زوال الإيمان، لأن الأمن منه إنما يكون بعلمهم بإخبار الله تعالىٰ بعصمته إياهم من زوال الإيمان.

ولم يجئ للأولياء أمن الله تعالىٰ من زوال الإيمان عنهم، فإذا علموا مجيء الكرامات قبل وقوعها لا يأمنون أن يدّعوا بظهور الكرامات، فيروا فضل أنفسهم علىٰ غيرهم ويعجبوا بأنفسهم، فيخاف زوال الإيمان عنهم، ومع ذلك لا تبقى الولاية بخلاف الأنبياء عليهم السلام، فإنهم لا يخشى عليهم الفتنة بالمعجزات لأنهم معصومون، فلا يخاف عليهم من زوال الإيمان كما قال الله تعالىٰ لموسى: ﴿لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل: ١٠].

وفرق طائفة بين المعجزة والكرامة قالوا: كرامة الوليّ ليست بمعجزة ولا شبيهة بها، بل هي إجابة الله دعاءه، إما في حقه وإما في حق غيره بفرح أو شفاء أو نجاة أو تمام حال من أحواله بأن من لم يكن له مقام الولاية يكون حاله ناقصًا بأن يخاف الله وغيره، ويرجو من الله ومن غيره ويعتمد علىٰ الله وعلى غيره، فإذا أعطاه الله كرامة الولاية يتم حاله، فلا يخاف إلّا من الله ولا يرجو إلّا منه، ولا يعتمد إلّا عليه، فتمام حاله هو كرامة أو كرامته هي قوة علىٰ فعل.

---

(١) أعظم ما يتبين به من هو من أولياء الله سبحانه أن يكون مجاب الدعوة راضيًا عن الله ﷻ في كل حال قائمًا بفرائض الله سبحانه تاركًا لمناهيه زاهدًا فيما يتكالب عليه الناس من طلب العلو في الدنيا والحرص علىٰ رياستها لا يكون لنفسه شغل بملاذّ الدنيا ولا بالتكاثر منها ولا بتحصيل أسباب الغنى وكثرة اكتساب الأموال والعروض إذا وصل إليه القليل صبر وإن وصل إليه الكثير شكر يستوي عنده المدح والذم والفقر والغنى غير معجب بما يمن الله به عليه من خصال الولاية إذا زاده الله رفعة زاد في نفسه تواضعًا.
قطر الولي علىٰ حديث الولي (ص٤٦) من تحقيقنا ـ طبعة دار الكتب العلمية

ومعجزات الأنبياء إخراج الشيء من العدم إلىٰ الوجود وتقليب الأعيان.

يعني من ليس له مقام الولاية يكون لكل فعل يأتي به من الطاعات سبب لا يأتي منه ذلك الفعل إلَّا بذلك السبب، فإذا حصل له مقام الولاية يحصل له قوة في سره بها يحصل ذلك الفعل منه من غير سبب.

فتلك القوة كرامة له، أو كرامته كفاية مؤنة يقوم لهم الحق بها.

يعني أن من ليس له مقام الولاية لابد له من أسباب ليتم بها مؤنته مثل التجارة والحراثة والسؤال وما شابه ذلك.

وبمقدار الاعتماد علىٰ الأسباب يحصل الخلل في توكله[1] من قام له الحق بمؤنته ليفرغ سره عن الأسباب ويتم توكله ويصح بمقدار فراغة سره عن الأسباب وشغله بالحق، فكفاية مؤنته يقوم له الحق بها هي الكرامة.

قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾.

وقال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ﴾ [الطلاق: ٣].

لا يحوجه إلىٰ غيره.

وما ذكر من إجابة الدعوة وتمام الحال والقوة علىٰ فعل وكفاية المؤنة خارج عن عادات الخلق، فمن أعطى من غير الأنبياء خلاف عادات الخلق لا يكون إلَّا كرامة.

وأما معجزات الأنبياء وإن كانت خلاف العادة أيضًا فهي إخراج الشيء من العدم إلىٰ الوجود.

وتقليب الأعيان، أما الإخراج فكإخراج الماء من الحجر وكإسالة الماء من بين الأصابع، وكإخراج الناقة من الجبل، وأمثال ذلك.

وأما التقليب فكتصيير العصا حبة، والنار بستانًا.

---

(١) عرف السري السقطي التوكل أنه الانخلاع من الحول والقوة، وابن مسروق أنه الاستسلام لجريان القضاء في الأحكام والتوكل المقصود هو توكل العناية لا توكل الكفاية وهو أن يطالب العبد ربه بالأعواض.

المعجم الصوفي (ص٦١)

وجوز بعض المتكلمين وقوم من الصوفية إظهارها على الكذابين من حيث لا يعلمون وقت ما يدعونها فيما لا يوجب شبهه.

كما روي في قصة فرعون من جرى النيل معه، وكما أخبر النبي ﷺ في قصة الدجال أنه يقتل رجلًا ثم يحييه فيما يخيل إليه.

والكرامة للأولياء تكون وقتًا دون وقت.

والمعجزة تكون على الدوام، يعني متى أرادها يقدر على إظهارها بخلاف الكرامة.

وجوز بعض المتكلمين وقوم من الصوفية إظهار حالة شبيهة بالمعجزة على الكذابين من حيث يعلمون كذبهم فيما يدعونه وذلك الإظهار فيما لا يوجب شبهة للخلق في أنه هل هو صادق أم كاذب فيما يدعيه، لأنه لا يجوز ذلك وإلَّا اشتبه الدين على الخلق فيفسد بل فيما يعلم الخلق أنه كاذب قطعًا.

كما روي في قصة فرعون أنه جرى النيل معه.

وكما أخبر النبي عليه الصلاة والسلام في قصة الدجال أنه يقتل رجلًا ثم يحييه.

وأمثال ذلك لا يشتبه على الخلق أنهما كاذبان في دعوى الإلهية، ولا يوجب ذلك شبهة للخلق، لأن عيانهما من كونهما جسمين آكلين شاربين تشهد على كذبهما فيما ادعياه من الربوبية.

قوله: فيما يخيّل.

أي ما صدر عن الدجال[1] مما ذكر هو المخيل، وليس له تحقيق في الواقع ولا ثبوت كالسراب، فيرى أنه يقتل ويحيي وليس لهما تحقيق غير الإراءة والتخييل.

---

(١) قال القاضي عياض: الأحاديث في قصة الدجال التي ذكرها مسلم وغيره حجة لمذهب أهل الحق في صحة وجوده وأنه شخص بعينه ابتلى الله به عباده وأقدره على أشياء من مقدورات الله تعالى من إحياء الميت الذي يقتله ومن ظهور زهرة الدنيا والخصب معه وجنته وناره ونهريه واتباع كنوز الأرض له وأمره السماء أن تمطر والأرض أن تنبت فيقع كل ذلك بقدرة الله ومشيئته ثم يعجزه الله تعالى فلا يقدر على قتل ذلك الرجل ولا غيره ويبطل أمره ويقتله عيسى عليه السلام ويثبت الله الذين آمنوا، هذا مذهب أهل السنة وجميع المحدثين والفقهاء =

قالوا: إنما جاز ذلك لأنهما ادعيا ما لا يوجب شبهه لأن أعيانهما تشهد علىٰ كذبهما فيما ادعياه من الربوبية.

واختلفوا في الولي هل يجوز أن يعرف أنه وليّ أم لا فقال بعضهم: لا يجوز ذلك، لأن معرفة ذلك تزيل عنه خوف العاقبة(١).

وزوال خوف العاقبة يوجب الأمن.

وفي وجوب الأمن زوال العبودية، لأن العبد بين الخوف والرجاء.

قال الله تعالىٰ: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠]، وقال الأجلة منهم والكبار: يجوز أن يعرف الوليّ ولايته لأنها كرامة من الله تعالىٰ للعبد.

والكرامات والنعم يجوز أن يعلم ذلك فيقتضي زيادة الشكر.

قوله: لأن العبد بين الخوف والرجاء.

يعني لا يجوز أن يأمن العبد من الله تعالىٰ كما قال الله تعالىٰ: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩].

ولا يجوز أن يقنط منه كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦].

وإذا لم يجز أن يأمن منه تعالىٰ ويقنط فيكون بين الخوف والرجاء.

كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠].

= والنظار خلافًا لمن أنكره وأبطل أمره من الخوارج والجهمية وبعض المعتزلة.

شرح مسلم للنووي (١٨/ ٤٦) طبعة دار الكتب العلمية

(١) الباب الأعظم للدخول إلىٰ سرح الولاية هو الإيمان بالله كما ندب إليه رسول الله ﷺ حيث قال لما سئل عن الإيمان «**أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والقدر خيره وشره**».

وأصعب هذه الخصال الإيمان بالقدر فإنه إذا حصل له ذلك علىٰ الوجه المعتبر هانت عليه جميع الأمور وفرغ من شغل قلبه بما نزل عليه من المقادر خيرها وشرها ولا ينافي ذلك تعوذه ﷺ من سوء القضاء.

قطر الولي علىٰ حديث الولي (ص٤٧) من تحقيقنا ـ طبعة دار الكتب العلمية

والولاية ولايتان: ولاية تخرج من العداوة وهي لعامة المؤمنين فهذه لا توجب معرفتها والتحقق بها للأعيان(١) لكن من جهة العموم فيقال: المؤمن وليّ الله، وولاية اختصاص واصطفاء واصطناع، ....

قوله: ولاية تخرج من العداوة.

أي ولاية تخرج العبد من العداوة إلىٰ المحبة، كالإخراج من الكفر إلىٰ الإيمان.

وهذه الولاية تكون لعامة المؤمنين، وهذه الولاية لا توجب معرفة الولاية.

وإثباتها لكل معين من الأعيان المؤمنين، بل توجبها من جهة العموم فيقال المؤمن ولي الله، فإضافة الولاية علىٰ العموم إلىٰ المؤمنين جائزة، لأن عامتهم لا يخلو منها ولا يقال هذا المؤمن ولي الله لأن الاعتبار للخاتمة.

والخاتمة غير معلومة أن تكون بالسعادة أو بالشقاوة وكذا العداوة بالنسبة إلىٰ الكفار، فإضافتها علىٰ العموم إلىٰ الكفار أعداء الله، أو الكافر عدو الله ولا يقال هذا الكافر عدو الله لما ذكر من أن الاعتبار للخاتمة وهي غير معلومة.

قوله: ولاية اختصاص واصطفاء واصطناع(٢).

كما قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا﴾ [آل عِمرَان: ٣٣].

---

(١) كل مؤمن تقي فهو لله ولي وعلامته أداء الفرائض والواجبات وترك المحرمات ثم التقرب إلىٰ الله بفعل المستحبات وترك المكروهات وأهل السنة والجماعة يؤمنون بوقوع الكرامات علىٰ أيدي الصالحين وهم المؤمنون المتقون المتبعون لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ فلا بدَّ من اكتمال خصال الخير من طاعة وأداء ما افترضه الله وسنة رسول الله ﷺ وذلك هو طريق الولاية ولا سبيل غيره.

(٢) الاصطفاء هو أن يجعل الله تعالىٰ قلب العبد فارغًا لمعرفته حتى تبسط معرفته الصفاء في قلبه ويتساوى في هذه الدرجة خواص المؤمنين وعامتهم من عاص ومطيع وولي ونبي.
لقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ واصطفاء الأنبياء بالعصمة والتأييد والوحي وتبليغ الرسالة واصطفاء المؤمنين بصفاء المعاملة وحسن المجاهدة والتعلق بالحقائق والمنازلة والاصطناع هو أن يجعل الله العبد مهذبًا بفناء كل ما يصيبه منه وزوال جميع الحظوظ من يده ويبدل أوصافه النفسانية حتى يصير ذاهلًا عن نفسه بزوال أوصاف النعوت ويختص الله الأنبياء بهذه الدرجة.
المعجم الصوفي (ص٢٣، ٢٤)

فهذه توجب معرفتها والتحقق بها، ويكون صاحبها محفوظًا عن النظر إلىٰ نفسه فلا يدخله عجب.

ويكون مسلوبًا من الخلق بمعنى النظر إليهم بحظ فلا يفتنونه ويكون محفوظًا عن آفات البشرية.

وإن كان طبع البشرية قائمًا معه باقيًا فيه فلا يستجلي حظًّا من حظوظ النفس استجلاء يفتنه ذلك في دينه، واستجلاء الطبع قائم فيه.

وهذه هي خصوص الولاية(١) من الله للعبد.

وقال تعالىٰ: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي﴾ [الأعراف: ١٤٤]، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي ۝٤١﴾ [طه: ٤١].

وهذه للخواص لا للعوام، ولا شك أن المؤمنين في حكم مطلق الإيمان مستوون لكن متفاوتون في الفضل عند الله لبعضهم مقام العموم ولبعضهم مقام الخصوص، فمن يكون مرتبته أعلى من مرتبة الآخر عند الله يكون خاصًّا بالنسبة إليه، وعامًّا بالنسبة إلىٰ مرتبة فوق مرتبته.

فهذه الولاية توجب معرفتها والتحقيق بها.

يعني إذا وصلوا إلىٰ هذا المقام يعرفون أنهم أولياء الله ويتحققون بالولاية ويشهدون بثبوتها لأنفسهم ويكون صاحب هذه الولاية محفوظًا عن النظر إلىٰ نفسه، فلا يدخله عجب.

ومسلوبًا عن الخلق بمعنى النظر إليهم بحظ للنفس فلا يفتنونه، لأن حظ العبد من الخلق إما المدح أو الذم فإذا سلب عن الخلق بالمعنى المذكور لا يفتنونه قوله: يفتنه ذلك في دينه، أي يفتنه ذلك الاستجلاء في دينه، أي يضره في دينه، واستجلاء الطبع قائم فيه.

يعني مع قيام إرادة النفس ذلك الحظ يخالفها ولا يعطيها مرادها.

وهذه هي خصوص الولاية من الله للعبد.

---

(١) الكرامات للأولياء ثابتة عند أهل السنة والجماعة ومن عقيدة أهل السنة والجماعة الإيمان =

ومن كان بهذه الصفة لم يكن للعدو إليه طريق بمعنى الإغواء لقوله جل وعز: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحِجر: ٤٢]، وهو مع هذا ليس بمعصوم من صغيرة ولا كبيرة، فإن وقع في إحداهما قارنته التوبة الخالصة.

والنبي معصوم لا يجري عليه كبيرة بإجماع ولا صغيرة عند بعضهم.

يريد أن ولاية العام الإيمان، فإن من آمن من جملة أولياء الله تعالىٰ[١]، لكن بعضهم يترك الأمر ويرتكب المعاصي مع صفة الإيمان، وبعضهم لا يترك ولا يرتكب.

وهذا بالنسبة إلىٰ الأول خاص، والثاني عام.

وبعضهم أتى بالأوامر ويجتنب عن المعاصي ويخالف مرادات النفس ولم يتابع الهوى، فيترك كل حظ للنفس، وهذا هو مقام خصوص الخصوص، فالثاني بالنسبة إلىٰ هذا عام.

قوله: فإن وقع في إحداهما.

أي من الصغيرة والكبيرة ينبغي أن يقارنه التوبة[٢] الخالصة لئلا يخرج من زمرة الأولياء.

= بكرامات الأولياء وأنها حق وهي خوارق العادات التي يخرقها الله لبعض أوليائه إما لحاجة أو لإقامة حجة علىٰ أعداء الله لنصر الدين وإقامة أمر الله ﷺ فتكون تارة لأولياء الله المؤمنين والميزان في ذلك أن يكون مستقيمًا علىٰ الكتاب والسنة لا تكون كرامة خارقة إلا إذا كان الشخص معروفًا بالاستقامة علىٰ دين الله ورسوله أما إذا كان منحرفًا عن الشريعة فليست كرامة ولكنها من خوارق الشياطين ومن فتن الشياطين وإنما تكون الكرامة للأولياء الله المؤمنين الذين عرفوا بالاستقامة علىٰ دين الله.

(١) هناك فرق بين الولاية والنبوة ودائمًا باب الولاية مفتوح، وإنما باب النبوة قد سد بعد محمد ﷺ ودائمًا علامة صحة الولي في أي زمان هي متابعته في الظاهر لنبي وقته إذ الولي هو مظهر تصرف النبي.

المعجم الصوفي (ص٢٦٣)

(٢) التوبة من مهمات الإسلام وقواعده المتأكدة ووجوبها عند أهل السنة بالشرع وعند المعتزلة بالعقل ولا يجب علىٰ الله قبولها إذا وجدت بشروطها عقلاً عند أهل السنة لكنه سبحانه وتعالى يقبلها كرمًا وفضلاً وعرفنا قبولها بالشرع والإجماع خلافًا لهم. =

وزوال خوف العاقبة ليس بممتنع بل هو جائز.

فقد أخبر النبي ﷺ أصحابه بأنهم من أهل الجنة، وشهد للعشرة بالجنة.

والراوي له سعيد بن زيد[١] وهو أحد العشرة المبشرة بالجنة، وشهادة النبي ﷺ توجب سكونًا إليها وطمأنينة بها وتصديقًا لها، وهذا يوجب الأمن من التغيير وزوال خوف التبديل لا محالة.

والروايات التي جاءت في خوف المبشرين من قول أبي بكر رضي الله عنه: يا ليتني كنت تمرة ينقرها الطير، وقول عمر رضي الله عنه: يا ليتني كنت هذه التبنة، ليتني لم أك شيئًا.

قوله: وزوال خوف العاقبة.

أي من العبد ليس بممتنع، بل هو جائز.

إشارة إلىٰ رد قول من قال إنه لا يجوز أن يعرف الولي أنه ولي.

والضمير في إليها وبها ولها في قوله: سكونًا إليها وطمأنينة بها وتصديقًا لها.

يرجع إلىٰ شهادة النبي عليه الصلاة والسلام.

قوله: والروايات التي جاءت في خوف المبشرين مبتدأ خبره قوله: إنما كان ذلك منهم.

أي إنما كان صدور الأقوال المذكورة منهم إلىٰ آخره هو جواب لسؤال مقدر تقدير السؤال إنك تمسكت في زوال خوف العاقبة بالمبشرين بالجنة، فلو زال منهم خوف العاقبة لما وقع منهم الخوف لكن وقع كما ذكرتم في المتن، فأجاب بأن صدور

=

وإذا تاب من ذنب ثم ذكره هل يجب تجريد الندم فيه خلاف لأصحابنا وغيرهم من أهل السنة قال ابن الأنباري يجب وقال إمام الحرمين: لا يجب، وتصح التوبة من ذنب وإن كان مصرًا علىٰ ذنب آخر وإذا تاب توبة صحيحة بشروطها ثم عاود ذلك الذنب كتب عليه ذلك الذنب الثاني ولم تبطل توبته، هذا مذهب أهل السنة في المسألتين وخالفت المعتزلة فيهما.
شرح مسلم للنووي (١٥/ ٥٠) طبعة دار الكتب العلمية

(١) سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل كان محبوبًا من النبي ﷺ وظل يجاهد مع النبي حتى لحق النبي بالرفيق الأعلى وجاهد مع الخلفاء حتى وافته المنية في عهد معاوية بن أبي سفيان، وبشره النبي ﷺ فيمن بشر من العشرة بالجنة فرضي الله عنهم أجمعين.

وقول أبي عبيدة بن الجراح ﷺ وددت أني كبش فيذبحني أهلي ويأكلون لحمي ويحسون مرقي.

وقول عائشة ﵂: يا ليتني كنت ورقة من هذه الشجرة، وهي من شهد لها عمار بن ياسر علىٰ منبر الكوفة فقال: أشهد أنها زوجة النبي ﷺ في الدنيا والآخرة إنما كان ذلك منهم خوفًا من جريان المخالفات عليهم إجلالًا لله تعالى، وتعظيمًا لقدره، وهيبة له وحياء منه بأنهم أجلّوا الحق أن يخالفوه، وإن لم يعاقبهم كما قال عمر ﵁: نعم المرء صهيب لو لم يخف الله لم يعصه.

يعني أن صهيبًا[1] ليس يترك المعصية لله خوف عقوبته ولكنه يتركها إجلالًا

الأقوال المذكورة منهم الدالة علىٰ خوفهم ليس لأجل خوف العاقبة بل لخوف جريان مخالفة الله عليهم في أوامره ونواهيه إجلالًا لله تعالىٰ وتعظيمًا لقدره، كما لأبي بكر ﵁، وهيبة له كما لعمر ﵁، وحياء منه كما لعثمان ﵁[2]، ومحبة له كما لعلي ﵄.

قوله: ويحسون مرقي.

أي يشربونه، ولو **في قوله: نعم المرء صهيب لو لم يخف الله لم يعصه**، لمجرد الملازمة.

يعني أن (الثاني)[3] الذي هو ترك المعصية ثابت سواء ثبت الأول هو عدم الخوف من الله أو لم يثبت، لأن ترك المعصية إذا كان ثابتًا علىٰ تقدير عدم الخوف من الله فثبوته علىٰ تقدير الخوف منه بالطريق الأولى.

---

(١) صهيب بن سنان بن مالك النمري الربعي صحابي أسلم مبكرًا في دار الأرقم وجهر بإسلامه وشهد جميع مشاهد وغزوات النبي ﷺ، توفي بالمدينة ودفن بالبقيع سنة (٣٨) هـ وعمره آنذاك (٧٠) وقيل (٧٣) سنة.

(٢) في حديث مسلم كتاب فضائل الصحابة، حديث رقم (٢٦) عن عائشة وفيه أن النبي ﷺ كان مضطجعًا في بيتها كاشفًا عن فخذيه أو ساقيه فاستأذن أبو بكر وعمر فلم يهش لهما ولما استأذن عثمان جلس النبي ﷺ فقالت عائشة في ذلك للنبي ﷺ فقال لها: «**ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة**». قال النووي: فيه فضيلة ظاهرة لعثمان وجلالته عند الملائكة وأن الحياء صفة جميلة من صفات الملائكة.

(٣) كلمة غير واضحة وأثبتناها هكذا لسياق الكلام.

له وتعظيمًا لقدره وحياء منه، فخوف المبشَّرين لم يكن خوفًا من التغيير والتبديل، لأن خوف التغيير والتبديل مع شهادة النبي ﷺ يوجب شكًّا في إخبار النبي ﷺ، وهذا كفر ولم يكن ذلك أيضًا خوف عقوبة في النار دون الخلود فيها لعلمهم بأنهم لا يعاقبون بالنار علىٰ ما يكون منهم لأنها إما أن تكون صغائر فتكون مغفورة باجتناب الكبائر، أو بما يصيبهم من البلوى في الدنيا.

فقال عبد الله بن عمر عن أبي بكر الصديق قال: كنت عند رسول الله فأنزلت هذه الآية: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾.

فقال رسول الله ﷺ: «**ألا أقرئك آية أنزلت علي**» قلت: بلى يا رسول الله.

قال: فأقرأنيها، فلا أعلم ما أصابني إلَّا أني وجدت انقسامًا في ظهري فتمطيت لها، فقال رسول الله ﷺ: «**ما شأنك يا أبا بكر؟**»، فقلت: يا رسول الله

قوله: لم يكن خوفًا من التغيير والتبديل.

أي من تغير كونهم من أهل الجنة وتبديله.

قوله: علىٰ ما يكون منهم.

أي علىٰ ما يصدر منهم من ترك أوامر الله وإتيان نواهيه لأن ما صدر منهم إما أن يكون صغائر أو كبائر[1]، فإن كانت صغائر فتكون تلك الصغائر مغفورة باجتناب الكبائر، أو مغفورة بما يصيبهم من البلوى في الدنيا.

قوله: فلا أعلم ما أصابني.

أي فلا أعلم الذي أصابني من عظم المشقة والخوف والحزن حين أقرأني رسول الله ﷺ الآية، غير أني وجدت في ظهري انكسارًا بسبب صيرورتي محمولًا ومطية لتلك الآية وثقلها علىٰ كاهلي فانكسر ظهري، وإنما أصابه ما أصابه لأنه لو يجزى

---

(١) الكبيرة هي كل معصية فيها حد في الدنيا كالقتل والزنا والسرقة أو جاء فيها وعيد في الآخرة من عذاب أو غضب أول لعن الله ورسوله فاعله.

والصغيره هي كل ما سوى الكبيرة من صغائر الذنوب كاللمم قال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ ... الآية.

بأبي أنت وأمي وأينا لم يعمل سوءًا؟ إنّا المجزون بما عملنا.

فقال رسول الله ﷺ: **«أما أنت يا أبا بكر والمؤمنون فتجزون بذلك في الدنيا حتى تلقوا الله، وليس لكم ذنوب، وأما الآخرون فيجمع لهم ذلك حتى يجزوا به يوم القيامة»**[(١)]، أو تكون كبائر فتقارنها التوبة لا محالة، فتصح بشارة النبي ﷺ لهم بالجنة، علىٰ أن هذا الحديث قد بين أنه يأتي يوم القيامة ولا ذنب له.

قال النبي ﷺ لعمر: **«وما يدريك لعل الله اطلع علىٰ أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»**[(٢)].

كل أحد بعمله السوء لم يسلم أحد من الجزاء به إذ لا يخلو أحد من أن يعمل سوءًا.

قوله: فيجمع لهم ذلك.

أي العمل السوء حتى يجزوا به، أي بذلك العمل السوء وإن كانت كبائر فتقترنها التوبة لا محالة لتصح بشارة النبي عليه الصلاة والسلام لهم بالجنة لأن المبشرين لو صدر منهم كبائر من غير التوبة لما كانوا مغفورين علىٰ الإطلاق، فلا يصح لهم البشارة بالجنة مطلقًا.

وأيضًا بيّن الحديث المذكور في المتن وهو قوله عليه الصلاة والسلام: **«أما أنت يا أبا بكر والمؤمنون فتجزون بذلك»**[(٣)]، أي بالفعل السوء في الدنيا حتى تلقوا الله عز وجل وليس لكم ذنوب.

إن أبا بكر ﷺ يأتي يوم القيامة وليس له ذنب أعم من أن كانت صغيرة أو كبيرة.

وكذا حديث عمر ﷺ وهو قوله عليه الصلاة والسلام لعمر: **«وما يدريك لعل الله اطلع علىٰ أهل بدر»**، أي علىٰ ما فعلوا وفُعل بهم من المقاتلة فقال: أي فقال الله لهم: **«اعملوا ما شئتم»** أي من الطاعة أو المعصية **«فقد غفرت لكم»**[(٤)].

---

(١) أخرجه: الترمذي في سننه (٣٠٣٩)، والبخاري في التاريخ الكبير (٦/ ١٠٣)، والقرطبي في تفسيره (٥/ ٣٩٨)، والخطيب في تاريخ بغداد (١٣/ ١٠٤)، والسيوطي في الدر المنثور (٢/ ٣٢٦).

(٢) أخرجه: البخاري في صحيحه (٨/ ٣٢)، وأحمد بن حنبل في مسنده (١/ ٧٩، ٨٠، ٢/ ١٠٩)، وابن أبي شيبة في مصنفه (١٤/ ٣٨٤)، والطبراني في المعجم الكبير (١٢/ ٩٩).

(٣) تقدم تخريجه من قبل.

(٤) تقدم تخريجه وذلك في قصة حاطب بن أبي بلتعة لما أرسل رسالة إلىٰ ناس من المشركين يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ واعتذر للنبي بأنه فعل ذلك ليتخذ فيهم يدًا يحمون بها قرابته =

ولو كان كما قال بعض الناس: إنهم بشروا بالجنة ولم يبشروا بأنهم لا يعاقبون، فكان خوفهم من النار، وإن علموا أنهم لا يخلدون فيها لكان المبشرون وغيرهم من المؤمنين في ذلك سواء لأنهم لا محالة مخرجون منها.

ولو جاز دخول أبي بكر وعمر النار مع قول النبي ﷺ[1]: **«هما سيدا كهول أهل الجنة من الأولين والآخرين»**.

جاز دخول الحسن والحسين مع قوله: **«هما سيدا شباب أهل الجنة»**[2]، فإن كانت سادة أهل الجنة يجوز أن يدخلهم الله النار ويعذبهم بها لم يجز أن يدخل أحد الجنة إلَّا بعد أن يعذب بالنار.

يدل علىٰ أن خوفهم ليس خوف للعقوبة في النار وإذا كان كذلك فلم يكن خوف المبشرين خوف العقوبة في النار دون الخلود كما ظنه طائفة ولو كان كما ظنوه من أن خوفهم خوف دخول النار دون الخلود، لأن النبي عليه الصلاة والسلام إنما شهد لهم بدخول الجنة لا ينفي العذاب عنهم، ويجوز أن يدخلوها بعد العذاب بالنار، لكان المبشرون وغيرهم من المؤمنين في ذلك الخوف سواء، لأن عامة المؤمنين مخرجون من النار لا محالة فلا فائدة للبشارة في المبشرين.

وأيضًا **فإن كانت سادة أهل الجنة** وهم أبو بكر وعمر والحسن والحسين رضي الله عنهم أجمعين **يجوز أن يدخلهم الله النار ويعذبهم بها؛ لم يجز أن يدخل أحد الجنة إلاّ بعد أن يعذب بالنار**، وليس كذلك لقوله عليه الصلاة والسلام: **«يدخل من أمتي**

= وقال: **«ولم أفعله كفرًا ولا ارتدادًا عن ديني ولا رضًا بالكفر بعد الإسلام»** فقال النبي ﷺ: **«صدق»** فقال عمر دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق فقال: **«إنه شهد بدرًا وما يدريك لعل الله اطلع علىٰ أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»** . . . الحديث. **ولفظه في** مسلم كتاب فضائل الصحابة رقم الحديث (١٦١).

(١) أخرجه: الترمذي في سننه (٣٦٦٤، ٣٦٦٥)، والهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ٥٣)، وابن أبي عاصم في السنة (٢/ ٦١٧)، والخطيب في تاريخ بغداد (٥/ ١٥)، والعجلوني في كشف الخفا (٢/ ٤٥٩).

(٢) ذكره ابن كثير في البداية والنهاية (٨/ ١٧٩).

وروى البخاري في صحيحه (٥/ ٣٣)، عنه ﷺ **«هما ريحانتاي من الدنيا»**.

وقال النبي ﷺ: **«إن أهل الدرجات العلى ليراهم من تحتهم كما ترون النجم الطالع في أفق السماء، وإن أبا بكر وعمر منهم وأنعما»**[(١)] فإن كان هذان يدخلان النار ويخزيان فيها لأن الله تعالىٰ قال: ﴿إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾ [آل عِمرَان: ١٩٢] فكيف بغيرهما.

وقال ابن عمر: إن رسول الله ﷺ دخل المسجد وأبو بكر وعمر أحدهما عن يمينه والآخر عن شماله وهو آخذ بأيديهما، وقال: **«هكذا نبعث يوم القيامة»**[(٢)]، فإن جاز دخولهما النار جاز دخول الثالث.

وقال النبي ﷺ: **«يدخل من أمتي الجنة سبعون ألفًا بغير حساب»**.

فقال عكاشة بن محصن الأسدي: يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم.

الجنة سبعون ألفًا بغير حساب»[(٣)].

وقوله: قال النبي عليه الصلاة والسلام: **«إن أهل الدرجات العلى . . . . إلىٰ قوله: فكيف بغيرهما**. بيان الملازمة، وبيان نفي اللازم وهو قوله: لم يجز أن يدخل أحد الجنة إلَّا بعد أن يعذب بالنار بقوله عليه الصلاة والسلام: **«يدخل من أمتي الجنة سبعون ألفًا بغير حساب»**.

---

(١) أخرجه: الترمذي في سننه (٣٦٥٨) كتاب المناقب، مناقب أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وأحمد في مسنده (٣/ ٢٦، ٢٧، ٧٢، ٩٣)، والطبراني في المعجم الكبير (٦/ ١٦٠)، والزبيدي في إتحاف السادة المتقين (١٠/ ٥٢٩)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٧/ ٢٥٠)، وابن أبي عاصم في السنة (٢/ ٦١٦)، والذهبي في ميزان الاعتدال (٦٦٥٩).

(٢) أخرجه الترمذي في سننه (٣٦٣٩، ٣٦٦٩)، وابن ماجة في سننه (٩٩)، والحاكم في المستدرك (٣/ ٦٨، ٤/ ٢٨٠)، والهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ٥٣)، وابن أبي عاصم في السنة (٢/ ٦١٦)، والتبريزي في مشكاة المصابيح (٦٠٥٤).

(٣) تقدم تخريجه من قبل.

وقال النووي: قال القاضي: إنما أخبر ﷺ أن هؤلاء لهم مزية وفضيلة يدخلون الجنة بغير حساب وبأن وجوههم تضيء إضاءة القمر ليلة البدر ولو كان كما تأوله هؤلاء - أي بأن الأدوية نافعة ولا يفوضون الأمر إلىٰ الله - لما اختص هؤلاء بهذه الفضيلة، وقد تكلم العلماء =

فقال النبي ﷺ: «أنت منهم»[1] وأبو بكر وعمر أفضل من عكاشة لا محالة لقول النبي ﷺ: «**هما سيدا كهول أهل الجنة من الأولين والآخرين**»، فكيف يجوز أن يدخل عكاشة الجنة بغير حساب وهو دونهما في الفضل، وهما في النار، فهذا غلط كبير، فقد صح بهذه الأخبار أنهما لا يجوز أن يكونا معذبين بالنار مع شهادة الرسول ﷺ لهما بالجنة[2].

فقد تبين أمنهما، فمهما قيل فيهما وفي غيرهما من المبشرين كان ذلك قولًا

إلى قوله: وهما في النار.

قوله: لأن الله تعالىٰ قال: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾.

بيان وعلة لكونهما لو كانا مدخلين في النار لكانا مخزيين، لأن المدخل في النار مخزي بدليل الآية وإذا كانا هما مخزيين فكيف لا يكون الإخزاء لغيرهما لأنه أدنى حالًا منهما عند الله.

قوله: وإن أبا بكر وعمر رضي الله عنهما **منهم**، أي من أهل الدرجات العلى وأنعما، أي زاد عليهم نعمة ولطفا لله تعالىٰ بهما، كنى بالثالث.

في قوله: جاز دخول الثالث، عني رسول الله ﷺ.

قوله: فمهما قيل فيهما وفي غيرهما من المبشرين.

أي فمهما قيل الأمن من العاقبة، أي ثبت الأمن من العاقبة في حق أبي بكر وعمر رضي الله عنهما

= وأصحاب المعاني على هذا فذهب أبو سليمان الخطابي وغيره إلىٰ أن المراد من تركها توكلًا علىٰ الله ورضاء بقضائه وبلائه وقال الخطابي: وهذه من أرفع درجات المحققين بالإيمان، وإلى هذا ذهب جماعة سماهم.

النووي في شرح مسلم (٣/ ٧٦، ٧٧) طبعة دار الكتب العلمية

(١) أخرجه: البخاري في صحيحه (٨/ ١٢٤)، ومسلم في صحيحه كتاب الإيمان، حديث رقم (٣٧١، ٣٧٢)، وأحمد في مسنده (١/ ٣٢١)، والبيهقي في السنن الكبرى (٩/ ٣٤١)، والطبراني في المعجم الكبير (٦/ ٦٤)، وأبو عوانة في مسنده (١/ ١٤٠، ١٤١)، وابن المبارك في الزهد (٥٥٠).

(٢) روى الترمذي في سننه (٣٧٤٧) كتاب المناقب باب مناقب عبد الرحمن بن عوف، عن عبد الرحمن بن عوف وفي رقم (٣٧٤٨) عن سعيد بن زيد، قال رسول الله ﷺ: «**أبو بكر في** =

فيمن سواهما من الأولياء من جواز الأمن.

وأما طريق معرفة سائر الأولياء دون المبشرين إذ كان المبشرون إنما علموا ذلك بإخبار النبي ﷺ وغيرهم لم يكن فيهم رسول الله ﷺ، فيخبرهم، فإنهم إنما يعرفون بما يحدث الله فيهم من اللطائف التي يخص بها أولياءه وبما يورد علىٰ أسرارهم من الأحوال التي هي أعلام ولايته من اختصاصه لهم به وجذبه لهم مما سواه إليه.

وزوال العوارض عن أسرارهم، وفناء الحوادث لهم والصوارف عنه إلىٰ غيره، ....

وفي حق المبشرين[1]؛ كان ذلك القول قولًا فيمن سواهما من الأولياء من جواز الأمن من الخاتمة إذا كان علىٰ منهاج المصطفى عليه الصلاة والسلام.

والضمير في ولايته في قوله: **أعلام ولايته من اختصاصه لهم به**، وكذا في اختصاصه، وفي به يعود إلىٰ الله، وكذا في عنه وغيره في قوله: والصوارف عنه إلىٰ غيره.

ويجوز أن يعرف الولي الذي هو من غير المبشرين أنه ولي وإن لم يرو فيه خبر من النبي عليه الصلاة والسلام بأن يرى في شيء معاني مما لا يفعله احتمالًا بأهل خاصته وبمن اصطفاه لنفسه في أزله، ولا يفعل مثلها بأسرار أعدائه.

=

الجنة، وعمر في الجنة، وعثمان في الجنة، وعلي في الجنة، وطلحة في الجنة، والزبير في الجنة، وعبد الرحمن بن عوف في الجنة، وسعد في الجنة، وسعيد في الجنة، وأبو عبيده بن الجراح في الجنة».

(١) الصحابة كلهم عدول وأما ما كان بينهم من الحروب التي جرت فكانت لكل طائفة شبهة اعتقدت تصويب أنفسها بسببها وكلهم عدول رضي الله عنهم ومتأولون في حروبهم وغيرها ولم يخرج شيء من ذلك أحدًا منهم عن العدالة لأنهم مجتهدون اختلفوا في مسائل من محل الاجتهاد كما يختلف المجتهدون بعدهم في مسائل من الدماء وغيرها ولا يلزم من ذلك نقص أحد منهم واعلم أن سبب تلك الحروب أن القضايا كانت مشتبهه فلشدة اشتباهها اختلف اجتهادهم وصاروا ثلاثة أقسام قسم ظهر لهم بالاجتهاد أن الحق في هذا الطرف وأن مخالفه باغ فوجب عليهم نصرته ففعلوا ذلك وقسم غير هؤلاء ظهر لهم بالاجتهاد أن الحق في الطرف الآخر.

النووي في شرح مسلم (١٥/ ١٢١، ١٢٢) طبعة دار الكتب العلمية

ووقوع المشاهدات والمكاشفات التي لا يجوز أن يفعلها الله تعالىٰ إلَّا بأهل خاصته ومن اصطفاه لنفسه في أزله مما لا يفعل مثلها في أسرار أعدائه.

فقد ورد الخبر عن النبي ﷺ في أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه «لم يفضلكم بكثرة الصوم والصلاة ولكن فضلكم بشيء وقر في صدره أو في قلبه»[١]، فهذا معنى الحديث.

يؤمنهم أن ما يجدون في أسرارهم كرامات ومواهب وإنها علىٰ الحقيقة

والذي يدل علىٰ أنه يعرف أنه ولي بالمعاني المذكورة ما روي من الخبر عن رسول الله ﷺ **في أبي بكر «أنه لم يفضلكم أبو بكر بكثرة صيام ولا صلاة، وإنما فضلكم بشيء وقر في صدره أو في قلبه»**، أي عظم في صدره يعني يجوز أن يكون في قلب الولي توقير وتعظيم لله تعالىٰ لا يكون لغيره ولا يعرف بذلك أنه ولي من أولياء الله.

ويؤمنهم أن ما يجدون في أسرارهم كرامات من الله تعالىٰ **ومواهب** منه، **وأنها علىٰ الحقيقة** وليست بخداع ومكر واستدراج لمعرفة الأولياء.

إن علامات الحقيقة لا يجوز أن تكون كعلامات الخداع والمكر، لأن علامات المخادعات في الظاهر من ظهور ما خرج من العادة وليست علىٰ الحقيقة بل ترى ويكون للمخدوع بها ميل وركون إلىٰ تلك العلامات واغترار بها، فيظن أنها علامات الولاية والقرب، وهو في الحقيقة خداع وطرد، فالذي له الولاية لا يكون له ميل وركون واغترار بالكرامة[٢]، ولا يستأنس بها ولا يجعل نفسه من أهل الكرامة ولا ثقة بها.

---

(١) الحديث: أخرجه: الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (١/ ٣٢٤، ٢/ ٦٦)، والعراقي في المغني عن حمل الأسفار (١/ ٢٤)، وعلي القاري في الأسرار المرفوعة (٣٠٨)، وذكره الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة (٣٠٨).

(٢) تشكل ظاهرة الكرامة إحدى الظواهر التاريخية التي ارتبطت ارتباطًا وثيقًا بظاهرة الولاية والصلاح فهي شرط أساسي للترقي في مراتب الولاية وقد ظلت الكرامة عند الباحثين مجرد عطاء فكري وسلوكي مرتبط بقوى غيبيه بينما هي نتاج اجتماعي وإفراز لشروط تاريخية وانعكاسات وتجلى لواقع يزخر بالتناقضات. وتعرف الكرامة بأنها أمر خارق للعادة يظهر علىٰ يد رجل ظاهر الصلاح ليس بشيء من الحال ولا المآل.

وليست بمخادعات كالذي كان للذي آتاه آياته فانسلخ منها[1].

ومعرفتهم أن أعلام الحقيقة لا يجوز أن يكون كأعلام الخداع والمكر، لأن أعلام المخادعات تكون في الظاهر من ظهور ما خرج من العادة، مع ركون المخدوع بها إليها واغترارهم بها، فيظنوا أنها علامات الولاية والقرب.

وهو في الحقيقة خداع وطرد.

ولو جاز أن يكون ما يفعله بأوليائه من الاختصاص كما يفعله بأعدائه من الاستدراج لجاز أن يفعل بأنبيائه ما يفعل بأعدائه، فيبعد أنبياءه ويلعنهم كما فعل

قوله: كالذي كان للذي آتاه آياته فانسلخ منها.

وهو بلعام بن باعوراء، فإن الله آتاه آياته من الاسم الأعظم وغيره، كما ذكر في كتب التفسير.

قوله: ولو جاز أن يكون ما يفعله بأوليائه، إلىٰ قوله: وهذا لا يجوز أن يقال في الله عز وجل، فيه نظر لأنه لو أريد بالجواز المذكور الجواز العقلي لأن انتفاء اللازم إذ لا يلزم من الجواز العقلي الوقوع فلا يكون إبعاد الله أنبياءه ولعنهم وإن أريد بالجواز غير فلأنّ الملازمة المذكورة لأن الله تعالىٰ أخبر الأنبياء[2] بأمنهم عن الطرد والإبعاد بالوحي إليهم بحيث لا يزول - أي الأمن - بخلاف من ادعى الولاية فإن الله تعالىٰ لم يخبره بالأمن حتى لا يجوز أن يفعل به ما يفعله بأعدائه من الاستدراج.

---

(١) قال عبد الرزاق بسنده عن ابن مسعود قال: هو رجل من بني إسرائيل يقال له بلعام بن باعوراء.

وقال مالك بن دينار: كان من علماء بني إسرائيل وكان مجاب الدعوة يقدمونه في الشدائد بعثه نبي الله موسى عليه السلام إلىٰ ملك مدين يدعوه إلىٰ الله فأقطعه وأعطاه فتبع دينه وترك دين موسى، وقيل هو أمية بن الصلت لأنه اتصل إليه علم كثير من علم الشرائع المتقدمة ولكنه لم ينتفع بعلمه فإنه أدرك زمان رسول الله ﷺ واجتمع به ولم يتبعه وصار إلىٰ موالاة المشركين ورثى أهل بدر من المشركين بمرثاة بليغة قبحه الله.

تفسير ابن كثير (٢/ ٢٧٠، ٢٧١)

(٢) الفرق بين المعجزة والكرامة هو المقارنة بدعوى النبوة وأن الكرامة تكون من جنس المعجزة إلا ما ثبت اختصاصه به، فالكرامة بهذا المفهوم محاكاة للنبوة واستمرار للزمن الأصلي.

بالذي آتاه آياته[١] وهذا لا يجوز أن يقال في الله عز وجل، ولو جاز أن يكون للأعداء أعلام الولاية وأمارات الاختصاص وتكون دلائل الولاية لا تدل عليها لم يَقُمْ للحق دليل بتّة.

قوله: ولو جاز أن يكون إلىٰ قوله: دليل بتّة.

أي وإن جاز أن يكون للأعداء أعلام الولاية وأمارات اختصاصهم بالله، وجاز أن يكون دلائل الولاية لا تدل علىٰ الولاية لم يقم للحق دليل علىٰ الولاية البتة، لأن الدليل حينئذ مشترك بين الولي وغيره، فلا يعرف الولي من غيره.

وللخصم أن يقول لا ندعي أن كرامات الأولياء[٢] مثل المخادعات حتى يلزم أن لا يقوم للحق دليل علىٰ الولاية بل ندعي أن الولي لا يجوز أن يعرف أنه ولي ولا يلزم منه أن يكون منه كرامات الأولياء مثل المخادعات، فإن العدو يستأنس بالمخادعات ويميل إليها والولي لا يستأنس إلىٰ الكرامات ولا يميل إليها، وعلامة عدم استئناس الولي إليها أنه لا يعرف أنه ولي، لأنه لو عرف أنه ولي فيستأنس مع الولاية فيستوي مع العدو.

---

(١) مثله الله في القرآن فقال تعالىٰ: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ﴾ [الأعراف: ١٧٦] .. الآية.

اختلف المفسرون في معناه فعلى سياق ابن إسحاق عن سالم عن أبي النضر أن بلعام اندلع لسانه علىٰ صدره فتشبيهه بالكلب في لهيثه في كلتا حالتيه إن زجر وإن ترك ظاهر وقيل معناه فصار مثله في ضلالة واستمراره فيه وعدم انتفاعه بالدعاء إلىٰ الأيام وعدم الدعاء كالكلب ففي لهيثه في حالتيه فهذا لا ينتفع بالموعظة والدعوة إلىٰ الإيمان ولا عدمه.

المرجع السابق (٢/ ٢٧٣)

(٢) أصحاب الكرامات يواصلون عمل النبي الذي ينتمون إلىٰ دينه أي متابعة الدعوة إلىٰ هذا الدين بواسطة الخوارق لمن يحتاج إليها فكل ما كان معجزة لنبي يجوز أن يكون كرامة لولي فالنبوة هي المثال والولاية هي صورة أو نسخة لتلك النبوة والنبي مثال الولي وكذلك معجزاته تجد في كرامات الأولياء وصور لها.

ويعرف أحد الباحثين الكرامة الصوفية بأنها بنية أساسية في الفكر البشري وهي كالبنية العقلانية مرتبطة بنمط مجتمعي وبأسلوب معيشي في الوجود وهي ممارسه لمعتقد ديني وتأكيد لهذا المعتقد.

انظر الأدب الصوفي في المغرب والأندلس في عهد الموحدين

وليست أعلام الولاية من جهه حلية الظواهر وظهور ما خرج من العادة لهم فقط لكن أعلامها إنما تكون في السرائر بما يحدث الله تعالىٰ فيها مما يعلمه الله تعالىٰ، ومن يجده في سره.

قوله: وليست أعلام الولاية من جهة حلية الظاهر مثل كثرة العبادات وترك الدنيا وما شابههما.

ولا من جهة ظهور ما خرج من العبادة.

مثل قلب الأعيان والمشي علىٰ الماء، وطي الأرض وأمثال ذلك، لأن حيلة الظاهر وخلاف العبادة كما يظهر علىٰ الأولياء يظهر علىٰ الأعداء أيضًا ليكون للأعداء ممكورة وللأولياء كرامة.

ولكن علامات **الولاية إنما تكون في سرائر** أوليائه **بأحداث الله تعالىٰ فيها مما يعلمه الله** وما يعلمه أيضًا **من يجده في سره** مثل المكاشفات والمشاهدات.

❊ ❊ ❊

الباب السابع والعشرون
قولهم في الإيمان

الإيمان عند الجمهور منهم قول وعمل ونية.

وروي عن رسول الله ﷺ من طريق جعفر بن محمد عن آبائه عن النبي ﷺ أنه قال: «**الإيمان إقرار باللسان وتصديق بالقلب وعمل بالأركان**»[1].

قالوا: أصل الإيمان إقرار اللسان بتصديق القلب وفرعه العمل بالفرائض[2].

قوله: قولهم في الإيمان

عند الجمهور منهم قول وعمل ونية، أي قول باللسان وعمل بالأركان وتصديق بالجنان **وقالوا: أصل الإيمان إقرار باللسان مع تصديق القلب**، لأنه لو أنكر باللسان مع تصديق القلب أو أنكر بالقلب مع الإقرار باللسان أو أنكر بهما فهو ليس بمؤمن، بل كافر، بخلاف. ومن أقر باللسان وصدق بالقلب ولم يعمل بالأركان فهو ليس بكافر بل هو مؤمن فاسق ولا يكون مؤمنًا كاملاً.

والعمل بالفرائض متفرع على أصل الإيمان، فبحسب ثبوت أصل الإيمان قوة

---

(١) أخرجه: الخطيب في تاريخ بغداد (٩/ ٣٨٦)، والسيوطي في اللآلئ المصنوعة (١/ ١٨، ١٩)، والذهبي في ميزان الاعتدال (٥٠٥١)، وذكره الحافظ الهندي في كنز العمال (١٣٦٢).

(٢) مذهب جماعة أهل السنة أن الإيمان قول وعمل، قال أبو عبيد وهو قول مالك والثوري والأوزاعي ومن بعدهم من أرباب العلم والسنة، قال ابن بطال: وهذا المعنى أراد البخاري رحمه الله إثباته في كتاب الإيمان وعليه بوب أبوابه كلها فقال: باب أمور الإيمان وباب الصلاة من الإيمان وباب الزكاة من الإيمان وباب الجهاد من الإيمان وسائر أبوابه وإنما أراد الرد على المرجئة في قولهم إن الإيمان قول بلا عمل، ثم قال ابن بطال في باب آخر: قال المهلب: الإسلام على الحقيقة هو الإيمان الذي هو عقد القلب المصدق لإقرار اللسان الذي لا ينفع عند الله تعالى غيره.

شرح مسلم للنووي (١/ ١٣٢) طبعة دار الكتب العلمية

وقالوا: الإيمان في الظاهر والباطن، والباطن شيء واحد وهو القلب، والظاهر أشياء مختلفة.

وأجمعوا أن وجوب الإيمان ظاهرًا كوجوبه باطنًا وهو الإقرار غير أنه قسط جزء من أجزاء الظاهر دون جميعه، ولما كان قسط الباطن من الإيمان قسط جميعه وجب أن يكون قسط الظاهر من الإيمان قسط جميعه، وقسط جميعه هو العمل بالفرائض لأنه يعم جميع الظاهر كما عم التصديق جميع الباطن.

وضعفًا يتأتى من صاحبه الفرائض كثرة وقلة وخضوعًا وغيره.

قوله: وقالوا: الإيمان في الظاهر والباطن . . . إلىٰ قوله كما عم التصديق جميع الباطن.

مبني علىٰ قول من قال: الإيمان إقرار باللسان وعمل بالأركان وتصديق بالقلب.

وقالوا: الإيمان يتعلق بالظاهر والباطن. أما الباطن فشيء واحد يتعلق الإيمان به وهو القلب، وأما الظاهر فأشياء مختلفة، يتعلق الإيمان بها وهي اللسان وسائر الجوارح.

فإن الإقرار يتعلق باللسان والعمل بالأركان ويتعلق به وبسائر الجوارح.

وأجمعوا علىٰ أن الإيمان كما يجب باطنًا يجب ظاهرًا أيضًا، وهو الإقرار حتى لو أنكر ظاهرًا بالاختيار وهو الإقرار، يصير كافرًا كما لو أنكر باطنًا إلَّا أن الإقرار قسط جزء من أجزاء الظاهر وهو اللسان دون جميع الظاهر، لأن الظاهر لا ينحصر فيه كما مَرَّ، بخلاف التصديق فإنه قسط جميع الباطن، لأنه جميعه هو القلب وهو شيء واحد.

ولما كان قسط الباطن من الإيمان قسط جميعه وجب أن يكون قسط الظاهر من الإيمان قسط جميعه وقسط جميعه هو الإقرار والعمل بالفرائض لأنه يعم جميع الظاهر كما عم التصديق جميع الباطن وهذا هو الدليل علىٰ أن العمل بالفرائض من جملة الإيمان، وضعفه ظاهر.

وقالوا: الإيمان يزيد وينقص.

وقال الجنيد وسهل وغيرهما من المتقدمين منهم: إن التصديق يزيد ولا ينقص، ونقصانه يخرج من الإيمان لأنه تصديق بإخبار الله تعالىٰ وبمواعيده وأدنى شك فيه كفر(١). وزيادته من جهة القوة واليقين، وإقرار اللسان لا يزيد ولا ينقص، وعمل الأركان يزيد وينقص وقال قائل منهم: المؤمن اسم الله تعالى، قال الله جل جلاله: ﴿ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ﴾ [الحشر: ٢٣].

قوله: وقالوا إن الإيمان يزيد وينقص.

اختلفوا في أن الإيمان هل يزيد وينقص أم لا فمن جعل الأعمال الظاهرة من جملة الإيمان، يزيد الإيمان عنده بزيادة العمل وينقص بنقصانه، كما هو مذهب أصحاب الحديث، واختيار صاحب الكتاب وأما الإقرار اللساني فلا يزيد ولا ينقص إلّا من جهة التكرار وكثرته وعدمهما، وأما التصديق القلبي فعند الحنفي لا يزيد ولا ينقص لأن التصديق شيء واحد فلا يتصور فيه الزيادة والنقصان(٢).

وعند البعض الآخر يزيد وينقص قوة وضعفًا، لأن الجزم ما لم ينته إلىٰ اليقين، وهو اعتقاد الشيء بحيث لا يحتمل النقيض أصلًا، يقبل القوة والضعف وذلك ظاهر.

وقال جنيد وسهل وغيرهما من المتقدمين إن التصديق يزيد، أي بزيادة قوته، واليقين لا ينقص لأن نقصانه يخرج من الإيمان، لأن الإيمان تصديق بإخبار الله ومواعيده، وأدنى شك فيه كفر.

---

(١) قال ابن بطال في شرح صحيح البخاري: مذهب جماعة أهل السنة من سلف الأمة وخلفها أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص والحجة علىٰ زيادته ونقصانه ما أورده البخاري من الآيات يعني قوله عز وجل: ﴿لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [الفتح: ٤] وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: ١٧] ... إلىٰ آخره.

قال ابن بطال فإيمان من لم تحصل له الزيادة ناقص. ولذا توقف مالك رحمه الله عن القول بالنقصان إذ لا يجوز نقصان التصديق لأنه إذا نقص صار شكًّا وخرج عن اسم الإيمان.

شرح مسلم للنووي (١/ ١٣١) طبعة دار الكتب العلمية

(٢) لا خلاف بين الجميع أنه لو أقر وعمل علىٰ غير علم منه ومعرفة بربه لا يستحق اسم مؤمن، ولو عرفه وعمل وجحد بلسانه وكذب ما عرف من التوحيد لا يستحق اسم مؤمن وكذلك إذا أقر بالله =

وهو يؤمن المؤمن بإيمانه من عذابه، والمؤمن إذا أقرَّ وصدَّق وأتى بالأعمال المفترضات.

وانتهى من المنهيات أمن من عذاب الله ومن لم يأت بشيء من ذلك فهو مخلد في النار، والذي أقر وصدق وقصر في الأعمال فجائز أن يكون معذبًا غير مخلد، فهو آمن من الخلود غير آمن من العذاب، فكان أمنه ناقصًا غير كامل وأمن من أتى بها كلها أمنًا تامًّا غير ناقص فوجب أن يكون نقصان أمنه لنقصان إيمانه، إذ كان

وزيادة الإيمان من جهة قوة التصديق ويقينه[(١)]، ولا شك أن ما يقبل الزيادة يقبل النقصان أيضًا، لأنه قبل حصول الزيادة يكون ناقصًا بالنسبة إليها وما قاله إن نقصانه يخرج من الإيمان فيه نظر إذ لا يلزم ذلك، لأن نقصانه يحتمل أن يكون بانتفاء قوة التصديق ويقينه لا بحصول الشك فيه.

قوله: وهو يؤمن المؤمن بإيمانه من عذابه، يشير به إلىٰ المشتق منه الإيمان.

قيل: هو من الأمن فإن من آمن بنبي عليه السلام فكأنه أمنه من التكذيب والمخالفة، وأمن هو من عذاب الله تعالىٰ.

وفرّع صاحب الكتاب علىٰ هذا الاشتقاق ونقصان الإيمان وتمامه بحسب نقصان الأمر وتمامه.

= تعالىٰ وبرسله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ولم يعمل بالفرائض لا يسمى مؤمنًا بالإطلاق وإن كان في كلام العرب يسمى مؤمنًا بالتصديق فذلك غير مستحق في كلام الله تعالىٰ لقوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢﴾ [الأنفال: ٢] . . . الآية فأخبرنا الله تعالىٰ أن المؤمن من كانت هذه صفته.

شرح مسلم للنووي (١/ ١٣١) طبعة دار الكتب العلمية

(١) اليقين اختلفت فيه الأقوال فقيل هو التصديق بالغيب بإزالة كل ظن، وقيل: هو المكاشفة وهي علىٰ ثلاثة أوجه مكاشفة العيان بالأبصار يوم القيامة ومكاشفة القلوب بحقائق الإيمان بمباشرة اليقين بلا كيف ولا حد، ومكاشفات الآيات بإظهار القدرة للأنبياء عليهم السلام بالمعجزات ولغيرهم بالكرامات والإجابات، ولذلك أيضًا فأهل اليقين علىٰ ثلاثة أحوال: الأول: الأصاغر وهم المريدون والعموم، والثاني: الأوساط وهم الخصوص، والثالث الأكابر وهم خصوص الخصوص.

المعجم الصوفي (ص٢٦٥)

تمام أمنه لتمام إيمانه[١] وقد وصف النبي ﷺ إيمان من قصر في واجب بالضعف فقال: «**وذلك أضعف الإيمان**»، وهو الذي يرى المنكر فينكره بباطنه دون ظاهره فأخبر أن إيمان الباطن دون الظاهر إيمان ضعيف ووصفه بالكمال فقال: «**أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا**»[٢]. والأخلاق تكون في الظاهر والباطن فما عم الجميع وصف بالكمال وما لم يعم الجميع وصف بالضعف.

وقال بعضهم: زيادة الإيمان ونقصانه من جهة الصفة لا من جهة العين، فزيادة الإيمان من جهة الجودة والحسن والقوة، ونقصانه من نقصانها لا من جهة العين.

وقد قال النبي ﷺ: «**كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلّا أربع**»[٣].

وأيضًا وصف النبي عليه الصلاة والسلام الإيمان بالضعف لمن قصر في واجب وبالكمال لمن هو أحسن خلقًا، فمن كان حسن الخلق ظاهرًا وباطنًا فهو كامل الإيمان، فمتى لم يكن كذلك فهو ضعيف الإيمان أو ناقصه.

قوله: كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلّا أربع.

إحداهنّ: آسية امرأة فرعون.

وثانيتهن: مريم بنت عمران.

وثالثتهن: خديجة.

ورابعتهن: فاطمة رضي الله عنها.

---

(١) قال عبد الرزاق سمعت من أدركت من شيوخنا وأصحابنا سفيان الثوري ومالك وعبيد الله بن عمر والأوزاعي وذكر غيرهم يقولون: الإيمان قول وعمل يزيد وينقص وهذا قول ابن مسعود وحذيفة والنخعي والحسن البصري وغيرهم، فالمعنى الذي يستحق به العبد المدح والولاية من المؤمنين هو إثباته بهذه الأمور الثلاثة: التصديق بالقلب والإقرار باللسان والعمل بالجوارح.
المرجع السابق (١/ ١٣١)

(٢) أخرجه: أبو داود في سننه (٤٦٨٢)، والترمذي في سننه (١١٦٢)، وأحمد بن حنبل في مسنده (٢/ ٢٥٠)، والحاكم في المستدرك (١/ ٣)، والدارمي في سننه (٢/ ٣٢٣).
والطبراني في المعجم الصغير (١/ ٢١٨)، وابن حبان في صحيحه (١٣١١، ١٩٢٦)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٩/ ٢٤٨).

(٣) أخرجه: البخاري في صحيحه (٤/ ١٩٣، ٢٠٠)، ومسلم في صحيحه كتاب فضائل =

ولم يكن نقصان سائر النساء من جهة أعيانهن، ولكن من جهة الصفة.

ووصفهن أيضًا بنقصان العقل والدين.

وفسر نقصان دينهن بتركهن الصلاة والصيام في الحيض، والدين الإسلام وهو الإيمان واحد عند من لا يرى العمل من الإيمان.

وسئل بعض الكبراء عن الإيمان فقال: الإيمان من الله لا يزيد ولا ينقص، ومن الأنبياء يزيد ولا ينقص، ومن غيرهم يزيد وينقص، فمعنى قوله: من الله لا

قوله: والدين الإسلام، لقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ [آل عِمرَان: ١٩].

والإسلام والإيمان[1] واحد، لقوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ﴾ [آل عِمرَان: ٨٥]. وقوله: ﴿فَأَخۡرَجۡنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٣٥ فَمَا وَجَدۡنَا فِيهَا غَيۡرَ بَيۡتٖ مِّنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ۝٣٦﴾، وإنما كانا واحدًا عند من لا يرى العمل من الإيمان بل جعل الإيمان نفس العمل، والإسلام أيضًا ذلك العمل.

أو جعل الإيمان الإقرار والتصديق فقط.

وكذا الإسلام، فكلاهما واحد.

وأما من جعل العمل من الإيمان، فالإسلام عنده بعض الإيمان لا نفسه.

فعلى القولين يلزم من نقصان الدين نقصان الإيمان لأن الدين هو الإسلام،

= الصحابة، حديث رقم (٧٠)، والترمذي في سننه (١٨٣٤)، وابن ماجة في سننه (٣٢٨٠)، وأحمد في مسنده (٤/ ٣٩٤)، والتبريزي في مشكاة المصابيح (٥٧٢٤)، وابن أبي شيبة في مصنفه (١٢/ ١٢٨)، والقرطبي في تفسيره (٤/ ٨٣)، والسيوطي في الدر المنثور (٢/ ٢٣)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٥/ ٩٩).

(١) اختلف العلماء في الإيمان والإسلام، قال الخطابي البستي في معالم السنن: ما أكثر ما يغلط الناس في هذه المسألة فأما الزهري فقال: الإسلام الكلمة والإيمان العمل واحتج بقوله تعالىٰ: ﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ﴾ [الحُجرَات: ١٤] وذهب إلىٰ أن الإسلام والإيمان شيء واحد، وقال الخطابي: والصحيح من ذلك أن يقيد الكلام في هذا ولا يطلق وذلك أن المسلم قد يكون مؤمنًا في بعض الأحوال ولا يكون مؤمنًا في بعضها والمؤمن مسلم في جميع الأحوال فكل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمنًا وأصل الإيمان التصديق وأصل الإسلام الاستسلام والانقياد.
شرح مسلم للنووي (١/ ١٣٠) طبعة دار الكتب العلمية

يزيد ولا ينقص إن الإيمان صفة لله تعالىٰ وهو موصوف به.

قال الله تعالىٰ: ﴿ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ﴾ وصفات الله لا توصف بالزيادة والنقصان، ويجوز أن يكون الإيمان من الله جل وعز هو الذي قسمه للعبد منه في سابق علمه لا يزيد وقت ظهوره ولا ينقص عما علمه منه وقسمه له.

والأنبياء في مقام المزيد من الله تعالىٰ من جهة القوة واليقين ومشاهدات أحوال الغيوب، كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾﴾.

وسائر المؤمنين يزيد في بواطنهم بالقوة واليقين وينقص من فروعه بالتقصير في الفرائض وارتكاب المناهي.

والأنبياء معصومون عن ارتكاب المناهي ومحفوظون في الفرائض عن التقصير فلا يوصفون بالنقصان في شيء من أوصافهم.

والإسلام إما نفس الإيمان أو بعضه[١]، وعلى كلا التقديرين يلزم من نقصان الدين نقصان الإيمان.

قوله: وينقص من فروعه.

أي من فروع أصل الإيمان، وهو الإقرار والتصديق القلبي وفروعه هو العمل بالأركان من الفرائض والانتهاء من المناهي.

فبالتقصير في العمل ينقص الإيمان.

❊ ❊ ❊

---

(١) في حديث جبريل وسؤاله عن الإيمان والإسلام وجوابه ﷺ جعل الإسلام اسمًا لما ظهر من الأعمال وجعل الإيمان اسمًا لما بطن من الاعتقاد وليس ذلك لأن الأعمال ليست من الإيمان والتصديق بالقلب ليس من الإسلام بل ذلك تفصيل لجملة هي كلها شيء واحد وجماعها الدين، ولذلك قال ﷺ: **«ذاك جبريل أتاكم يعلمكم دينكم».**

المرجع السابق (١/ ١٣٠)

الباب الثامن والعشرون
قولهم في حقائق الإيمان

قال بعض الشيوخ أركان الإيمان أربعة: توحيد بلا حد، وذكر بلا بتّ،

قوله: في حقائق الإيمان

قوله: توحيد بلا حد، أي بلا أول وآخر، لأن كل واحد غير الله له حدان له أول وله آخر[1] فبالنظر إلىٰ أن له أولًا يسبق عدمه وجوده. وبالنظر إلىٰ أن له آخرًا يكون له عدمٌ بعد الوجود، فالوجود له حدان ينتهي إليهما وهو العدم، أوله حدان أول وهو علته، وثان وهو الذي بعده.

وأما الواحد الذي هو الحق لا أول له ولا آخر بل أوله آخر، وآخره أول، وأزله أبد، وأبده أزل فلا حد له، وإذا لم يكن له حد ونهاية، فتوحيده بلا حد ونهاية بخلاف توحيد غيره، فإنه لما كان له حد ونهاية فلتوحيده حد ونهاية. ويحتمل أن يكون معناه توحيد الله عما لا يليق به وذلك لا يقف إلىٰ حد لا يتجاوز عنه، فيكون توحيده بلا حد.

قوله: وذكر بلا بتّ، أي وذكر الله بلا قطع، إذ ذكره يحتمل أن يكون المراد من هذا الذكر ذكر اللسان، ويحتمل أن يكون المراد ذكر القلب، ويحتمل أن يكون المراد ذكر السر، ويحتمل المجموع، وأما الذكر بلا بت بالنسبة إلىٰ اللسان عسر جدًا بل لا يمكن عادة.

---

(١) في أسماء الله الحسنى الأول والآخر أي هو الذي لا مفتح لوجوده ولا مختتم له لثبوت قدمه واستحالة عدمه وكل شيء منه بدأ ويعود إليه.
وقال بعض المشايخ: الأول والآخر اسما إحاطة بتقدم الأول علىٰ كل أول وإحاطة الآخر لكل آخر فيه البدء وإليه الانتهاء فليس قبله شيء ولا بعده شيء قال: إنما عطف بالواو لتباعد ما بين موقعي معنييهما وإنما يرجعان به إلىٰ حكم الاسم الواحد من أبطن الغيب.
شرح أسماء الله الحسنى لزروق (ص١٤٤) من تحقيقنا ـ طبعة دار الكتب العلمية

(٢) التوحيد هو معرفة وحدانيته الثابتة له في الأزل والأبد وذلك بأن لا يحضر في شهوده غير الواحد جل جلاله، وتوحيد أهل الحقائق علىٰ الظاهر هو الإقرار بالوحدانية بذهاب رؤية =

وحال بلا نعت، ووجد بلا وقت، معنى حال بلا نعت أن يكون وصفه حال حتى لا يصف حالًا من الأحوال الرفيعة إلَّا وهو بها موصوف.

ووجد بلا وقت أن يكون مشاهدًا للحق في كل وقت ....

قوله: معنى حال بلا نعت.

أي يكون وصفه حالة، يعني وصفه الشيء من المقامات والأحوال والآداب والأخلاق والمواجيد والمعارف وما شابهها يكون ذلك الشيء حاله حتى لا يصف هو شيئًا مما ذكر **إلَّا وهو بها موصوف.**

ولهذا قال بعض الكبراء: من تكلم في الدقائق ولم يتبعها بالحقائق، ولم يترك العلائق والعوائق فهو قرين الشيطان يلقنه الحكمة لافتتان الخليقة ويحتمل أن يكون معنى قوله: حال بلا نعت، أي لا يتقيد بحال فإنه لو تقيد به لصار منعوتًا به لا لغيره.

أما لو لم يتقيد بحال فلا يكون الحال نعتًا له.

قوله: ووجد بلا وقت.

قال صاحب الكتاب: معناه أن يكون مشاهدًا للحق في كل وقت الوجد[1]

= الأسباب والأشباه بإقامة الأمر والنهي في الظاهر والباطن وقيل توحيد العامة معناه توحيد الإقرار باللسان والتحقيق بالقلب بما يقرّ به اللسان بإثبات ما أثبت الله لنفسه من الأسماء والصفات والأفعال ونفي ما نفى الله عن نفسه.

المعجم الصوفي (ص٦٠)

(١) قال أبو النصر السراج الطوسي في اللمع: إن الوجد مكاشفات من الحق ألا ترى أن أحدهم يكون ساكنًا فيتحرك ويظهر منه الزفير والشهيق وقد يكون من هو أقوى منه ساكنًا في وجده لا يظهر منه شيء من ذلك قال الله تعالىٰ ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢]، وأول الوجد رفع الحجاب ومشاهدة الرقيب وحضور الفهم وملاحظة الغيب ومحادثة السر وإيناس المفقود وهو فناؤك أنت من حيث أنت.

اللمع (ص٣٧٦)

وقال بعضهم: من صح إيمانه لم ينظر إلىٰ الكون وما فيه لأن خساسة الهمة من قلة المعرفة.

وقال بعضهم: صدق الإيمان التعظيم لله وثمرته الحياء من الله.

الحرقة، فإن المشاهدة علىٰ الدوام توجب الحرقة علىٰ الدوام لأن كون العبد يذوب بالمشاهدة ويصير محترقًا ويبقى يكون الحق فلا يكون الوجد في وقت دون وقت وإن ضعفت المشاهدة ضعف الوجد، فإذا كانت المشاهدة في وقت دون وقت يكون الوجد أيضًا كذلك.

قوله: ومن صح إيمانه لم ينظر إلىٰ الكون وما فيه، أي من قوى إيمانه بالله، لم يلتفت سره إلىٰ الكون وما فيه، لأن النظر إلىٰ الكون من خساسة الهمة، لأن الكون مقهور للحق ومحتاج إليه.

والحق مستغن بذاته عما سواه، فصرف النظر عن الحق إلىٰ ما دونه صرف النظر من الأعلى إلىٰ الأدنى من كل وجه، بل من الحق إلىٰ الباطل.

وهو عين خساسة الهمة من قلة المعرفة بالله لأن من قوى معرفته بالله لا ينظر إلىٰ غيره إذ لا شيء من الضر والنفع بغيره، بل به.

ومن قلت معرفته بالله ضعف إيمانه به.

من نظر إلىٰ الكون وما فيه يكون من ضعف إيمانه فمن صح إيمانه لا ينظر إلىٰ الكون وما فيه.

قوله: صدق الإيمان التعظيم بالله وثمرته الحياء من الله.

أي صدق الإيمان بالله التعظيم لأوامره، وثمرته الحياء من الله من ارتكاب نواهيه. وحقيقة هذا القول أن من صدق إيمانه بالله بأن لا يرى شيئًا في الوجود إلا منه فيعلم أن لا يستحق للتعظيم إلَّا بالله.

وثمرة هذا الإيمان الحياء[1] من الله أن لا ينظر إلىٰ غيره، ولا يلتفت إلىٰ ما

---

(١) قوله ﷺ: **«الإيمان بضع وسبعون شعبة والحياء شعبة من الإيمان».**

قال الواحدي: قال أهل اللغة الاستحياء من الحياة واستحيا الرجل من قوة الحياة فيه لشدة علمه بمواقع الغيب، قال فالحياء من قوة الحس ولطفه وقرة الحياة وقال القشيري في رسالته =

وقيل: المؤمن مشروح الصدر بنور الإسلام منيب القلب إلىٰ ربه ....

سواه. وعلامة ذلك أن لا يتأثر من غير الحق لا بمدحه ولا بذمه ولا بغير ذلك وإلّا يكون معظمًا غير الله.

قوله: المؤمن مشروح الصدر بنور الإسلام.

أخذه من قوله تعالىٰ: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزُّمَر: ٢٢].

ومن قول النبي عليه الصلاة والسلام: «**إذا دخل النور في القلب انشرح وانفسح**».

قيل: وما علامة ذلك؟، قال: «**التجافي عن دار الغرور والإنابة إلىٰ دار الخلود، والاستعداد للموت قبل النزول**»[١].

والحديث تفسير للآية والقول المذكور.

قوله: منيب القلب إلىٰ ربه.

أخذه من قوله تعالىٰ: ﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾﴾ [ق: ٣٣].

والمنيب هو الراجع، أي راجع إلىٰ الحق في كل ما يعترضه من الطاعة والمعصية والنعمة والبلاء[٢].

= عن الجنيد قال: الحياء رؤية الآلاء أي النعم، ورؤية التقصير، فيتولد بينهما حالة تسمى الحياء، وقال القاضي عياض: إنما جعل الحياء من الإيمان وإن كان غريزة لأنه قد يكون تخلقًا واكتسابًا كسائر أعمال البر.

المرجع السابق (٢/ ٦)

(١) تقدم تخريجه من قبل.

(٢) الإنابة الرجع من الغفلة إلىٰ الذكر وقيل الرجوع إلىٰ الله من كل شيء، والمنيب من لم يكن له مرجع سواه فيرجع إليه من رجوعه ثم يرجع من رجوع رجوعه فيبقى لا وصف له قائمًا بين يدي الحق مستغرقًا في عين الجمع والإنابة علىٰ ثلاثة أوجه: إنابة من السيئات إلىٰ الحسنات وإنابه من كل ما سوى الله إلىٰ الله، وإنابة من الله إلىٰ الله، وقيل إنابه العبد أن يرجع إلىٰ ربه بنفسه ويقلبه وبروحه، وإنابة النفس أن يشغلها بخدمته وإنابة القلب تخليته عما سواه، وإنابة الروح دوام الذكر حتى لا يذكر غيره ولا يكتفي إلّا به.

المعجم الصوفي (ص٣٤)

شهيد الفؤاد لربه سليم اللبّ ....

والرجوع في الطاعة والنعمة أن لا يرى الطاعة فيرى نفسه مفلسًا فيتقدم إلىٰ الحق بالتضرع والسؤال لا باستحقاق الخدمة فينسى الخدمة، وأن لا يرى النعمة ولا ينظر إليها ويستأنس بها، بل إلىٰ منعمها ويشكره.

وأما الرجوع في المعصية والبلاء إلىٰ الحق.

أما في المعصية فأن يرى المعصية فيقدم المعذرة إلىٰ الحق وذلك يوجب تعظيم الحق، فيمنعه عن المعصية، فلو لم ير المعصية وضع حرمة الله تعالىٰ وتعظيمه.

وذلك يوجب قطيعته عن الله تعالىٰ، كما أن رؤية الطاعة توجب القطيعة عنه.

وأما في البلاء فأن يرى المبلي ويرجع إليه فيصير عليه ولا يجزع منه.

قوله: شهيد الفؤاد لربه.

أخذه من قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ [ق: ٣٧].

والشهيد هو الحاضر، أي سمع بأذنه وشهد بقلبه حتى كأنه يسمع من الحق، أي أن في الاعتبار بأحوال الأمم الماضية والقرون الخالية لموعظة لمن له عقل يستدل به علىٰ الاعتبار، ولو لم يكن له عقل يستدل به عليه ألقى السمع(١) وهو حاضر بقلبه لما يقال له.

قوله: سليم اللبّ.

أخذه من قوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ٨٩].

---

(١) قوله تعالىٰ: ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧] أي استمع الكلام فوعاه وتعقله بعقله وتفهمه بلبه، وقال مجاهد: ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ﴾ [ق: ٣٧] يعني لا يحدث نفسه في هذا بقلب، وقال الضحاك: العرب تقول ألقى فلان سمعه إذا استمع بأذنيه وهو شاهد بقلب غير غائب، وهكذا قال الثوري وغير واحد.

وفي أول الآية: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾ [ق: ٣٧] أي لعبرة، ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧] أي لب يعي به، وقال مجاهد عقل.

تفسير ابن كثير (٤/ ٢٢٩)

متعوذ بربه محترق بقربه، صارخ من بعده.

يجوز أن يكون سليم، فعيلًا بمعنى مفعول.

أي بقلب مسلم إلىٰ الله تعالىٰ ليحفظه، ويحتمل أن يكون بمعنى ذي سلامة.

يعني بقلب ذي سلامة من العيوب والآفات.

قوله: متعوِّذ بربه.

أي في جميع حالاته متعوذ بربه من العدو إذ لا يأمن في وقت ما من مكره.

قوله: محترق بقربه صارخ من بعده.

لأنه إذا رأى عليه خلعة القرب يخاف من مكر الطرد، ولا يأمن منه، والخوف يجعل النعمة كلها محنة، فيذهب لذتها فلا يستأنس بالقرب ولا ما لا يستأنس به يكون وجوده كعدمه، فيكون محترقًا صارخًا فلا يستأنس لا بالقرب ولا بالبعد أما بالقرب فمن خوف البعد. وأما بالبعد فمن نفس البعد كما قال الشاعر:

وما في الدهر أشقى من محب ... وإن وجد الهوى حلو المذاق

تراه باكيًا في كل حين ... مخافة فرقةٍ أو لاشتياق

فيبكي إن ناءوه شوقًا[1] إليهم ... ويبكي إن دنوا خوف الفراق

فتسخن عينه عند التنائي ... وتسخن عينه عند التلاق

وأحسن منه أن يقال يحترق بقربه بسبب التهاب أنوار جلالات ذاته فيحترق وجوده ويفنى ولو بعد عنه لصرخ لما فات منه من القرب.

فعلى كل حال من حالتي القرب والبعد لا يكون له مع الله قرار، ولا له عنه فرار

---

(١) الشوق هو هيجان القلب عند ذكر المحبوب وهو في قلب المحب كالفتيلة في المصباح، والعشق كالدهن في النار وقيل من اشتاق إلىٰ الله أنس إلىٰ الله، ومن أنس طرب، ومن طرب وصل، ومن وصل اتصل، ومن اتصل طوبى له وحسن مآب، والفرق بين الشوق والاشتياق أن الشوق يسكن باللقاء والاشتياق لا يزول باللقاء بل يزيد ويتضاعف.

المعجم الصوفي (ص١٣٧)

وقال بعضهم: الإيمان بالله مشاهدة ألوهيته وقال أبو القاسم البغدادي: الإيمان هو الذي يجمعك إلىٰ الله، ....

لتقيد الوجود به قوله: الإيمان بالله مشاهدة الوهيته.

الألوهية صفة جامعة لجميع صفات الله ونعوته وهي استغناؤه بذاته عما سواه واحتياج ما سواه إليه، فإذا شاهد غنى الحق فلا يبقى له قرار وسلوة من خوف القطيعة.

وإذا شاهد جلاله فلا يبقى للكون وما فيه في عينه مقدار.

وإذا شاهد كمال لطفه فاستأنس مع الحق بحيث يسقط الأنس مع غيره عنه، بل يستوحش من غيره.

وإذا شاهد كمال فضل الحق يسقط عنه رؤية الأعمال ويغرق في رؤية منته.

وإذا شاهد كمال عدله لا يبقى له قرار مع غيره.

وإذا شاهد كمال قهره يسقط رأيه وتدبيره وإذا شاهد أن لا علة لفعله، لم يبق له اعتماد علىٰ فعل، وكذا يجري في جميع صفاته.

قوله: الإيمان[1] هو الذي يجمعك إلىٰ الله.

بصده إياك وبقطعك عن غيره، وبجعله إياك مقبلًا عليه.

ويجمعك بالله، بأن لا ترى غيره، بل ترى الله فقط حتى لو أتيت بكل موافقة وتجنبت عن كل مخالفة تكون بعدم رؤيتها مجموعًا بالله، فلو ترى غيره لا تكون مجموعًا به، بل تكون مجموعًا بذلك الغير.

---

(١) قال الشيخ أبو عمرو بن الصلاح في حديث جبريل وسؤاله عن الإسلام والإيمان قال: هذا بيان لأصل الإيمان وهو التصديق الباطن وبيان لأصل الإسلام وهو الاستسلام والانقياد الظاهر وحكم الإسلام في الظاهر ثبت بالشهادتين وإنما أضاف إليهما الصلاة والزكاة والحج والصوم لكونها أظهر شعائر الإسلام وأعظمها وبقيامه بها يتم استسلامه وتركه لها يشعر بانحلال قيد انقياده أو اختلاله ثم إن اسم الإيمان يتناول ما فسر به الإسلام في هذا الحديث وسائر الطاعات لكونها ثمرات للتصديق الباطن الذي هو أصل الإيمان ومقويات ومتممات وحافظات له.
شرح مسلم النووي (١/ ١٣٢) طبعة دار الكتب العلمية

ويجمعك بالله والحق واحد، والمؤمن متوحِّد.

ومن وافق الأشياء فرقته الأهواء.

ومن تفرق عن الله بهواه وتبع شهوته وما يهواه فاته الحق.

قوله: والحق واحد والمؤمن متوحِّد.

أي والحق واحد بذاته والمؤمن بالحق متوحد يعني يكون بظاهره وباطنه مشغولاً بالحق، وذلك إنما يكون إذا سقط غير الحق عن رؤيته وتستولي عليه الحقيقة ويغلب عليه الحق، فيُغلب بذاته، فيفنى عن صفاته ويغلب عليه صفات الحق[(١)].

ومن صفاته أنه واحد فيصير متوحِّدًا بالحق، فلا يرى الحق إلَّا واحدًا لا يشبهه شيء، فيصل حينئذ إلىٰ كمال الإيمان.

قوله: ومن وافق الأشياء فرقته الأهواء.

أي فرقته الميول إلىٰ الأشياء.

فلا يكون مجموعًا، فبقدر الموافقة للأشياء يصير متفرقًا ومنقطعًا عن الله.

يريد أن غير الحق متعدد، والحق واحد، فكما أن بموافقة الواحد يصير مجموعًا، فبموافقة المتعدد يصير متفرقًا، فيعسر عليه مخالفة الحق.

قوله: فاته الحق.

لأن حصول الحق له بمخالفة شهواته وعدم متابعة ما يهواه، فمتى تابع ذلك فقد فاته الحق، ألا ترى أن الله أمر بتكرير عقد الإيمان عند كل ما يخطر بالقلب من غير الحق، وعند كل نظرة للعين بغير الحق.

---

(١) أول من تكلم في علم الفناء والبقاء هو ابو سعيد الخراز المتوفي (٢٧٧) والذي يصفه الصوفية: هو سيد من تكلم في علم الفناء والبقاء، والفناء الذي يقصده أبو سعيد الخراز هو أول مقام لمن وجد علم التوحيد وتحقق به، فناء ذكر الأشياء عن قلبه وانفراده بالله وحده» ولما سئل عن علامة الفاني أجاب الخراز: من علامة الفاني ذهاب حظه من الدنيا والآخرة إلَّا من الله تعالىٰ ثم يبدو له الآيات من قدرة الله تعالىٰ فيريه ذهاب حظه ومن رؤية حظه ويبقى عليه ما كان لله ﷻ.
انظر تهذيب الأسرار لعبد الملك النيسابوري (ص٣٨٤)

ألا ترى أنه أمرهم بتكرير العقود عند كل خطرة ونظرة فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ﴾.

وقال النبي ﷺ(١): «الشرك أخفى في أمتي من دبيب النمل على الصفاء في الليلة الظلماء» ....

فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ﴾ [النساء: ١٣٦]، فخاطب المؤمنين بالإيمان مع وجود إيمانهم، فعلم أن الإيمان الثاني غير الأول لئلا يكون تحصيلاً للحاصل.

فالإيمان الأول: تصديق وإقرار، أو تصديق وإقرار وعمل أو تصديق فقط على اختلاف المذاهب.

والثاني: تحقيق الأول بأن لا يرى غيره ولا ينظر إلى غيره لأن رؤية غيره والنظر إليه يكون رجوعًا عن الحق إلى غيره.

وعند ذلك فاته الحق، ومن فاته الحق لا يكون حينئذ مؤمنًا فأمر بتجديد الإيمان بأن لا ينظر إلى الغير لا بالسر ولا بالعين ولا يستأنس به إلَّا بأن يرى الله فيه ويستأنس به حتى يكون مؤمنًا في جميع أوقاته وحالاته.

وقال النبي عليه الصلاة والسلام: «**الشرك أخفى في أمتي من دبيب النمل على الصفاء في الليلة الظلماء**»(٢).

والشرك الخفي هو أن يرى الضرر والنفع من غير الحق ويخاف ويرجو بغير الخوف وشبهه بدبيب النمل لا يسمع منه صوت قرع أقدامه، ولا يبصر حركات

---

(١) أخرجه: الحاكم في المستدرك (٢/١٩١)، والمنذري في الترغيب والترهيب (٤/٢٨)، والهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/٢٢٣)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٣/٣١)، والزبيدي في الإتحاف (٢/٤٧٠).

(٢) تقدم تخريجه قريبًا.

قال أبو عمرو بن الصلاح: لا يقع اسم المؤمن المطلق على من ارتكب كبيره أو بذل فريضة، لأن اسم الشيء مطلقًا يقع على الكامل منه ولا يستعمل في الناقص ظاهرًا إلا بقيد ولذلك جاز إطلاق نفيه عنه في قوله ﷺ: «**لا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن**». واسم الإسلام يتناول أيضًا ما هو أصل الإيمان وهو التصديق الباطن ويتناول أصل الطاعات فإن لك كله استسلام.
شرح مسلم للنووي (١/١٣٢) طبعة دار الكتب العلمية

وقال النبي ﷺ: «تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم، تعس عبد بطنه، تعس عبد فرجه، تعس عبد الخميصة»[١].

أقدامه، فكذا يدخل الشرك في الشخص ولم يشعر به، ووصف دبيبه علىٰ الصفا دون التراب، لأن أثر دبيبه علىٰ التراب يحس، بخلاف الصفا فإنه لا يحسّ أصلًا، فكذا الشرك الخفي لا يحس صاحبه به.

ووصف دبيبه علىٰ الصفا في الليلة الظلماء ليكون أبلغ في عدم إحساس دبيبه، فيكون التشبيه المذكور أبلغ في عدم الشعور بحصول الشرك الخفي[٢]، وإنما بالغ عليه الصلاة والسلام في ذلك ليبالغ الأمة في الاحتراز عنه، فإنه إذا لم يكن له شعور به يجتمع عليه كثير من الشرك الخفي، فيعلو علىٰ قلبه ظلمات بعضها فوق بعض فعمى قلبه، ولا يرى الحق فيفوت عنه الحق وأي حسرة أزيد من ذلك.

وبالجملة لا يتحقق العبد بالإيمان حتى لا يصير صفته بحيث يكون من الحق بالحق للحق إلىٰ الحق من الحق ابتداء وبالحق وجودًا وللحق ملكًا، وإلى الحق رجوعًا، فإذا صار صفته هكذا يتحقق بالإيمان.

ومن تعلق همته غير الحق وتبع هوى النفس ومراداتها فقد صار عبدًا لها.

وقد دعى النبي عليه الصلاة والسلام عليه بالهلاك أو أخبر عنه به، ودعاؤه مستجاب، وخبره صدق حيث **قال عليه الصلاة والسلام: «تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد بطنه، تعس عبد فرجه، تعس عبد الخميصة»**.

والتعس الهلاك، وأصله الكبّ.

---

(١) أخرجه: البخاري في كتاب الجهاد باب رقم (٧٠)، وكتاب الرقاق باب (١٠)، وابن ماجة في سننه (٤١٣٥)، (٤١٣٦)، والبيهقي في السنن الكبرى (٩/١٥٩)، والمنذري في الترغيب والترهيب (٢/٢٤٧)، والتبريزي في مشكاة المصابيح (٥١٦١).

(٢) الشرك نوعان:

الأول: شرك أكبر يخرج من الملة ويخلد صاحبه في النار إذا مات ولم يتب منه وهو صرف شيء من أنواع العبادة لغير الله كدعاء غير الله والتقرب بالذبائح والنذور لغير الله من القبور والجن والشياطين والخوف من الموتى أو الجن أو الشياطين أن يضروه أو يمرضوه، ورجاء غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله من قضاء الحاجات وتفريج الكربات مما يمارس الآن حول الأضرحة المبنية علىٰ قبور الأولياء والصالحين قال تعالىٰ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا =

وسألت بعض مشايخنا عن الإيمان فقال: هو أن يكون الكل منك مستجيبًا في الدعوة مع حذف خواطر الانصراف عن الله بسرك.

فتكون شاهدًا لما له، غائبًا عما ليس له.

وسألته مرة أخرى عن الإيمان فقال: الإيمان ما لا يجوز إتيان ضده، ولا ترك تكليفه.

قوله: أن يكون الكل منك.

أي ظاهرك وباطنك مستجيبًا في دعوة الحق لك، لأن دعوة الحق عام للظاهر والباطن، فيدعو لسانه بالإقرار والذكر وسائر جوارحه بالخدمة والعبادة ويدعو قلبه بتوحيده ومعرفته[(١)].

قوله: فيكون شاهدًا لما له غائبًا عما ليس له.

أي فيكون متوصلًا ومتمسكًا بكل ما يوصلك إلىٰ الله وتاركًا ومنقطعًا عما يقطعك عنه، ومقدمًا مراده علىٰ مرادك.

قوله: الإيمان ما لا يجوز إتيان ضده ولا ترك تكليفه وضدّ الإيمان هو الكفر.

والعبد مكلف بالإيمان ومأمور بترك الكفر، فلا يجوز إتيان ضد الإيمان، لأنه ترك المأمور به وهو غير جائز، ولا ترك التكليف بالإيمان، أي ترك الإتيان به لأنه مأمور به أمر إيجاب، وتركه غير جائز، وإذا علم العبد أن الإيمان ما لا يجوز إتيان ضده

= ﴿يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [يونس: ١٨] ... الآية.

والثاني: الشرك الأصغر هو الذي لا يخرج من الملة وهو وسيله إلىٰ الشرك الأكبر، وهو قسمان شرك ظاهر علىٰ اللسان والجوارح.

والثاني من الشرك الأصغر شرك خفي وهو الشرك في الإرادات والنيات كالرياء والسمعه.

(١) اتفق أهل السنة من المحدثين والفقهاء والمتكلمين علىٰ أن المؤمن الذي يحكم بأنه من أهل القبلة ولا يخلد في النار لا يكون إلَّا من اعتقد بقلبه دين الإسلام اعتقادًا جازمًا خاليًا من الشكوك ونطق بالشهادتين فإن اقتصر علىٰ إحداهما لم يكن من أهل القبلة أصلًا إلَّا إذا عجز عن النطق لخلل في لسان أو لعدم التمكن منه لمعالجة المنية أو لغير ذلك، فإنه يكون مؤمنًا. شرح مسلم للنووي (١/ ١٣٣) طبعة دار الكتب العلمية

وفي قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البَقَرَة: ١٠٤] يا أهل صفوتي ومعرفتي، يا أهل قربي ومشاهدتي.

وجعل بعضهم الإيمان والإسلام واحدًا، وفرق بعضهم بينهما.

فقال من فرَّق: الإسلام عام والإيمان خاص.

ولا ترك التكليف به يعلم أن جملة الأوامر أمر إيجاب لا يجوز إتيان ضدها وأن جمله النواهي نهي حرمة يجب تركها.

قوله: في قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البَقَرَة: ١٠٤] يؤوّل قوله هذا ليعلم العبد من ذلك التأويل أنه كيف يصحب مع الحق فكان ذلك تفسير إتيان للقول السابق.

وذلك التأويل هو: يا أهل صفوتي ومعرفتي، ويا أهل قربي ومشاهدتي.

ورتب هذا التأويل فقدم الصفوة[1] فالمعرفة والقرب والمشاهدة يشير إلىٰ أن العبد إذا لم يصف سره عن غير الحق لا يجد المعرفة، ولا يجد قربه ما لم يكن عارفًا، ولا يحصل مشاهدة الحق ما لم يقرب إليه بالطاعة، فمن وجد الصفوة عن غير الحق لا يشتغل به، ومن وجد المعرفة لم يبق لغير الحق عنده مقدار.

ومن وجد القرب لا يكون له أُنس مع غير الحق.

ومن وجد المشاهدة لا يصحب مع غير الحق ولا ينظر إليه.

قوله: وجعل بعضهم الإيمان والإسلام واحدًا.

ودليله عليه ذكر من قبل قوله: الإسلام عام والإيمان خاص، لأن الإسلام هو الانقياد والعمل بالظاهر، وهذا يشمل المخلص والمنافق، والإيمان لا يشمل إلَّا المصدق المخلص.

---

(١) الصفوة هم المتصفون بالصفاء من كدر الغيرية ويقال للمؤمنين عامة الصفوة، وللائمة الحافظين الحدود القائمين علىٰ أمر الدين والداعين له خاصة الصفوة وهؤلاء هم المقتدون برسول الله وعلى سنته وآدابه وأخلاقه وأفعاله وأحواله وحقائقه وهم المعنيون بقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عِمرَان: ٣١]، وهؤلاء هم الصوفية.

المعجم الصوفي (ص١٤٨)

وقال بعضهم: الإسلام ظاهر والإيمان باطن.

قال بعضهم: الإيمان تحقيق واعتقاد، والإسلام خضوع وانقياد.

وقال بعضهم: الإسلام تحقيق الإيمان، والإيمان تصديق الإسلام[1].

وقال بعضهم الإيمان باطن لأنه التصديق القلبي، **والإسلام ظاهر** لأنه العمل بالجوارح.

وقال بعضهم: الإيمان تحقيق واعتقاد، أي اعتقاد الحق وتحقيقه أو تحقيق محبته، **والإسلام خضوع وانقياد.**

وهذه الصفة تجوز أن تكون للظاهر، ويجوز أن تكون للباطن.

وقال بعضهم: الإسلام تحقيق الإيمان، والإيمان تصديق الإسلام.

يريد أن تصديق الله في جميع أوامره ونواهيه وقبولها الذي هو دين الإسلام هو الإيمان[2]، فإذا صدقه فيما ذكر - من الأوامر والنواهي - واشتغل به فقد حقق تصديقه وأثبته، لأنه إذا صدقه في شيء فقد أقر واعترف بحقيته، وأنه حق صدق.

وإذا عمل به فقد احتج عليه وأثبته وحققه بدليل، - وهو الأوامر والنواهي -.

ولهذا قال: الإسلام تحقيق الإيمان والإيمان تصديق الإسلام.

---

(١) التصديق والعمل يتناولها اسم الإيمان والإسلام جميعًا يدل عليه قوله سبحانه وتعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩] ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾، فأخبر سبحانه وتعالى أن الدين الذي رضيه ويقبله من عباده هو الإسلام ولا يكون الدين في محل القبول والرضا إلا بانضمام التصديق إلىٰ العمل. هذا كلام البغوي.
شرح مسلم للنووي (١/ ١٣٠) طبعة دار الكتب العلمية

(٢) الإيمان في الاصطلاح أنه التصديق بالجنان والإقرار باللسان والعمل بالأركان والأصل في الإيمان التصديق وحمل الأمانة التي كلف الله بها الإنس والجن، فمن صدق بقلبه كما صدق بلسانه وانقاد بجوارحه لأوامر ربه فقد أدى الأمانة فهو مؤمن ومن لم يعتقد التصديق بقلبه فهو غر مؤد للأمانة التي ائتمنه الله عليها وهو منافق والأمانة اسم جامع للطاعات والعبادات والودائع والثقة والأمان إلىٰ هذا اشار الحديث الشريف: «**الإيمان أمانة ولا دين لمن لا أمانة له**» وفي رواية: «**لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له**».

وقال بعضهم: التوحيد سر، وهو تنزيه الحق عن دركه، والمعرفة بِرّ وهو أن تعرفه بصفاته.

والإيمان عقد القلب بحفظ السر، ومعرفة البِرّ.

والإسلام مشاهدة قيام الحق بكل ما أنت به مطالب.

وقال بعضهم: التوحيد سر وهو تنزيه الحق عن دركه والمعرفة بِرّ وهو أن تعرفه بصفاته، أي تطهير اعتقادك الحق وتفرده عن درك الحق، لأن الحق منزه عن درك غيره إياه، فتنزيهه عنه تحصيل للحاصل.

وهذا التنزيه أمر باطن يتعلق بالقلب وفعل العبد، فلهذا قال: التوحيد[1] سر والمعرفة لما لم يكن فعل العبد وكانت عطية لله تعالى، فقال المعرفة بِرّ، **والإيمان عقد القلب بحفظ السر**، أي بحفظ سرك معه فلا تعرض عنه، ومعرفة بِرّه معك حتى تعرف أن هذا العقد بِرّه معك ويكون بتوفيقه إياك فتعرف منته عليك بأن صيرك أهلًا لمحبته مع استغنائه عنك بل عن كل ما سواه، فدعاؤه لك بصحبته مع الاستغناء من كمال فضله وكرمه، فعقد القلب على الوجه المذكور هو الإيمان، **والإسلام مشاهدة قيام الحق بكل ما أنت به مطالب** يعني الإسلام أن تشاهد الحق قائمًا بكل ما أنت به مطالب من الإتيان المأمورات والاجتناب عن المنهيات.

وإذا كان كذلك فلا يدخل فيك غفلة ولا فتور للإسلام.

* * *

(١) التوحيد على ثلاثة مراتب: الأولى: توحيد الأفعال بإثبات الفاعليه لله تعالى مطلقًا ونفيها عن غيره، والثانية: توحيد الصفات وهو إثبات الصفة لله تعالى مطلقًا ونفيها عن غيره، والثالث توحيد الذات وهو إثبات الذات لله تعالى مطلقًا ونفيها عن غيره.

المعجم الصوفي (ص٦٠)

الباب التاسع والعشرون
قولهم في المذاهب الشرعية

إنهم يأخذون لأنفسهم بالأحوط والأوثق فيما اختلف فيه الفقهاء وهم مع إجماع الفريقين فيما أمكن.

ويرون اختلاف الفقهاء[1] صوابًا ولا يعترض الواحد منهم علىٰ الآخر.

وكل مجتهد عندهم مصيب، وكل من اعتقد مذهبًا في الشرع وصح ذلك

قوله: قولهم في المذاهب الشرعية

يأخذون لأنفسهم بالأحوط فيما اختلف فيه الفقهاء مثلًا لو اختلف الفقهاء في حل شيء وحرمته، فهم يأخذون بالحرمة فيه، لأن الاجتناب عن الحلال لا يضر، وارتكاب الحرام يضر.

قوله: ويرون اختلاف الفقهاء صوابًا.

لأن اختلافهم من جهة اجتهادهم، والمجتهد لو أخطأ في اجتهاده فهو معذور ومأجور، هذا إذا كان في الواقع حكم معين.

وأما لو كان حكم المسألة تابعًا لظن المجتهد فظاهر أن كل مجتهد مصيب، ولا يعترض واحد منهم علىٰ الآخر كما جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال الراوي: خرجنا مع رسول الله ﷺ في السفر فمنَّا الصائم ومنَّا المفطر، فلم يعب الصائم علىٰ المفطر، ولا المفطر علىٰ الصائم.

---

(١) الفقه في اللغة اختلف العلماء في معناه فقيل: مطلق الفهم وقيل فهم غرض المتكلم من كلامه والقول الثالث إنه فهم الأشياء الدقيقه ورجح القرافي القول الثالث وقال هو الأولى، وأما الفقه اصطلاحًا فهو العلم بالأحكام الشرعية العملية المستنبطه من أدلتها التفصيلية فلما كان هذا العلم مستنبطًا من أدلة التشريع الإسلامي التي أساسها الأصلان الكتاب والسنة أطلق علىٰ هذا الفقه بأنه فقه إسلامي أي أن الشرع الإسلامي هو مصدره ومستنده.

عنده بما يصح مثله مما يدل عليه الكتاب والسُّنّة، وكان من أهل الاستنباط فهو مصيب باعتقاده ذلك.

ومن لم يكن من أهل الاجتهاد أخذ بقول من أفتاه ممن سبق إلىٰ قلبه من الفقهاء أنه أعلم وقوله حجة له، وأجمعوا علىٰ تعجيل الصلوات وهو الأفضل عندهم مع التيقن بالوقت، ويرون تعجيل جميع المفترضات عند وجوبها لا يرون التقصير والتأخير والتفريط فيها إلّا لعذر.

ويرون تقصير الصلاة في السفر[١] ومن أدمن السفر منهم ولم يكن له مقر أتم الصلاة.

قوله: باعتقاده ذلك.

أي ذلك المذهب.

قوله: وقوله حجة له.

أي قوله حجة له.

قوله: وهو الأفضل عندهم.

أي تعجيل الصلوات أول الوقت أفضل عندهم مع تيقن وقوعها في الوقت لو أخروها عن الأول، أو مع تيقن دخول وقتها[٢].

قوله: والتفريط فيها، أي في المفترضات يعني في آدابها.

---

(١) اختلف العلماء في القصر في السفر فقال الشافعي ومالك بن أنس وأكثر العلماء: يجوز القصر والإتمام والقصر أفضل، ولنا قول أن الإتمام أفضل، ووجه أنهما سواء، والصحيح المشهور أن القصر أفضل، وقال أبو حنيفه وكثيرون: القصر واجب ولا يجوز الإتمام ويحتجون بهذا الحديث (أي حديث عائشة **«فرضت الصلاة ركعتين ركعتين في الحضر والسفر فأقرت صلاة السفر وزيد في صلاة الحضر»**) **وبأن أكثر فعل النبي ﷺ وأصحابه كان القصر.**
شرح مسلم للنووي (٥/ ١٦٥) طبعة دار الكتب العلمية

(٢) روى مسلم في صحيحه كتاب المساجد، حديث (٢٣٨) عن أبي ذر قال: قال لي رسول الله ﷺ: **«كيف أنت إذا كانت عليك أمراء يؤخرون الصلاة عن وقتها أو يميتون الصلاة عن وقتها»** قال: قلت: فما تأمرني قال: صل الصلاة لوقتها فإن ادركتها معهم فصل فإنها لك نافلة». =

ورأوا الفطر في السفر جائزًا، ويصومون.

واستطاعة الحج عندهم الإمكان من أي وجه كان ولا يشترطون الزاد والراحلة فقط.

قال ابن عطاء: الاستطاعة اثنان: حال ومال، فمن لم يكن له حال يقله، فمال يبلغه.

قوله: حال ومال.

والمراد بالحال قوة الباطن، قيل: هي صحة التوكل.

وقيل: هي القناعة، وقيل هي قوة المحبة.

❋ ❋ ❋

= قال النووي: في هذا الحديث الحث على الصلاة أول الوقت وفيه أن الإمام إذا أخرها عن أول وقتها يستحب للمأموم أن يصليها في أول الوقت منفردًا ثم يصليها مع الإمام فيجمع فضيلة أول الوقت والجماعة.

الباب الثلاثون
قولهم في المكاسب

أجمعوا علىٰ إباحة المكاسب من الحرف والتجارات والحرث وغير ذلك مما أباحته الشريعة علىٰ تيقظ وتثبت وتحرز من الشبهات، وأنها تعمل للتعاون وحسم الأطماع ونية العود علىٰ الأغيار، والعطف علىٰ الجار.

قوله: قولهم في المكاسب

أجمعوا علىٰ إباحة المكاسب[1]، ونقل بعضهم أن مذهب أهل السنة أن الكسب فريضة، وتمسكوا بقوله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [الجُمُعَة: ١٠].

واتفق المفسرون أن هذا الفضل هو الكسب.

قوله: علىٰ تيقظ، يتعلق بقوله: **علىٰ إباحة المكاسب قوله: وأنها تعمل للتعاون.**

أي وأجمعوا علىٰ أن المكاسب تعمل للمعاونة علىٰ أشياء لتحصيل الخير، لا لمراد النفس لقوله تعالىٰ: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المَائدة: ٢].

وقوله عليه الصلاة والسلام: «**إن الله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه المسلم**»[2].

وحسم الأطماع، أي ولقطع أطماعه عن الخلق، ولقصد عود المكتسب علىٰ الأغيار، والشفقة علىٰ الجار لأن الشفقة شرط الإسلام.

---

(١) قال ابن عباس رضي الله عنه: كان آدم عليه السلام حراثًا، ونوح نجارًا، وإدريس خياطًا، وإبراهيم ولوط زراعين، وصالح تاجرًا، وداود حدادًا، وموسى وشعيب ومحمد صلوات الله عليهم رعاة، وروي عن لقمان الحكيم أنه قال لابنه: يا بني استعن بالكسب الحلال فإنه ما افتقر أحد قط إلا أصابه ثلاث خصال: رقة في دينه، وضعف في عقله، وذهاب مروءته، وأعظم هذه الخصال استخفاف الناس به.
مختصر منهاج القاصرين لابن قدامة ص٦١٧

(٢) الحديث أخرجه: في الأذكار النووية (١٣٥، ٢٧٨، ٣٠٩)، وابن القيسراني في تذكرة الموضوعات (١٣٨).

وهي عندهم واجبة لمن ربط به غيره ممن يلزمه فرضه وسبيل المكاسب عند الجنيد علىٰ ما سبق من الشرط سبيل الأعمال المقربة إلىٰ الله عز وجل ويشتغل العبد بها علىٰ حسب ما يشتغل في إتيان ما ندب إليه من النوافل لا علىٰ أن بها تجلب الأرزاق وتجر المنافع.

قوله: ممن يلزمه فرضه.

أي المكاسب عندهم واجبة[١] علىٰ من ربط به غيره ممن يجب عليه نفقته وكسوته ومما يحتاج إليه.

قوله: علىٰ ما سبق من الشرط، وهو أن يكون علىٰ تيقظ وتحرز من الشبهات، وأنها تعمل للتعاون إلىٰ آخره لا علىٰ أن بها منافع أي **ويشتغل العبد** بالمكاسب **علىٰ حسب** اشتغاله **بما ندب إليه من النوافل، لا علىٰ أن** بالمكاسب **تجلب الأرزاق وتجر المنافع.**

فإنه حينئذ لا يكون من النوافل المندوب إليها.

والطاعة والمكاسب عند غير الجنيد رحمه الله عليه مباحة وليست بطاعة للمنفرد الذي لا يلزمه فرض غيره، لكن بشرط أن لا يكون قادحًا في توكله بأن يعتمد علىٰ كسبه[٢]، ولا يوجب نقصان دينه بأن يمنعه عن الطاعة، وإلَّا لم يكن مباحًا.

(١) كان أصحاب رسول الله ﷺ يتجرون في البر والبحر ويعملون في نخلهم، وقال أبو سليمان الداراني ليس العبارة عندنا أن تصف قدميك وغيرك يتعب لك، ولكن ابدأ برغيفك فحرزه ثم تعبد، ولذا ينبغي أن نوضح أن الثراء والطيب والكسب الحلال والضرب في الأرض والسعي فيها بالصورة الكريمة التي لا مخافة فيها للدين والتي أخلص الإنسان فيها وجهه لله فإنها مطلوبه ولقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يضربون في الأرض ويكتسبون المال من حله.

انظر عبد الحليم محمود في الفضيل بن عياض (ص٥، ٤٥)

(٢) السعي بالتكسب وجلب المنفعة ودفع المضرة معاملة بين العبد وغيره إطاعة لله وتنفيذًا لأحكامه وتعالى ويقول سفيان الثوري: عليك بعمل الأبطال الكسب من الحلال والإنفاق علىٰ العيال، ولما سئل عن الحلال ما هو؟ قال: تجارة برّه، أو عطاء من إمام عادل أو صلة من أخ مؤمن، أو ميراث لم يخالطه شيء.

ثم يعود فيقول: لأن أخلف عشرة الآف درهم أحاسب عليها أحب إلي من احتاج إلىٰ الناس.

انظر عبد الحليم محمود في كتاب سفيان الثوري (ص١٦، ١٨)

وهي عند غيره مباح للفرد ليس بواجب عليه من غير أن يقدح في توكله أو يجرح دينه.

والاشتغال بوظائف الحق أولى وأحق.

والإعراض عنه عند صحة التوكل والثقة بالله أوجب وقال سهل: لا يصح الكسب لأهل التوكل إلَّا لاتِّباع السنة ولا لغيرهم إلَّا للتعاون.

والاشتغال بوظائف الحق أولى وأحق من الكسب لأن **الاشتغال بوظائف الحق أولى وأحق** من الكسب لأن وظائف الحق كلها طاعة.

والكسب عند هذا القائل مباح، والطاعة أولى من المباح، **والإعراض** عن الكسب **عند صحة التوكل والثقة بالله أوجب**.

لأنه قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣] وضمن الرزق بقوله: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦].

وأخبر بأن الرزق ليس بكسب بقوله تعالىٰ: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الذاريات: ٢٢].

فإذا صح التوكل للعبد علىٰ الله والثقة علىٰ وعده فترك الكسب عليه واجب لئلا يتهم الله في ذلك.

قوله: إلَّا لاتباع السُّنّة[1].

أي إلَّا أن يكسب المتوكل متابعة للأنبياء عليهم السلام والأكابر، وموافقة لهم اعتقادًا له بأن نجاته في موافقتهم.

---

(١) يقول القشيري في رسالته: اعلم أن التوكل محله القلب والحركة بالظاهر لا تنافي التوكل بالقلب بعد ما تحقق العبد أن التقدير من قبل الله تعالىٰ فإذا تعسر شيء فبتقديره وإن اتفق فبتيسيره، وقد روى القشيري حكايات كثيره عن عدد من مشايخ الصوفية تركوا الأسباب بل رفضوها عمدًا ودخلوا البادية المقفرة من غير زاد متوكلين علىٰ الله منكسرين علىٰ من يتعلق بسبب في أي وجه وآية صورة.

ولكن العارفين الراسخون يعلمون أن السنة علىٰ خلا ما يحكى عن هؤلاء.

هذا ما تحققناه وصح عندنا من مذاهب القوم من أقاويلهم في كتبهم ممن ذكرنا أساميهم بدءًا وما سمعناه من الثقات ممن عرف أصولهم فتحقّقت مذاهبهم.

والذي فهمناه من رموزهم وإشاراتهم في ضمن كلامهم قال: وليس كل ذلك مسطورًا لهم علىٰ حسب ما حكيناه، وأكثر ما ذكرنا من العلل والاحتجاج.

فمن كلامنا عبارة عما حصلناه من كتبهم ورسائلهم ومن تدبر كلامهم وتفحص كتبه علم صحة ما حكيناه ولولا أنا كرهنا الإطالة والإكثار كنا نذكر مكان ما حكيناه من كلامهم من كتبهم نصًّا ودلالة.

إذ ليس كل ذلك مرسومًا في الكتب علىٰ التصريح ونذكر الآن بعض ما تخصصوا به من أقاويلهم وما استعملوه من ألفاظهم مما تفردوا به والعلوم التي عنوا بها وما يدور كلامهم عليه ونشرح بعض ما يمكن شرحه وبالله نستعين ولا حول ولا قوة إلَّا بالله.

ولا يصح الكسب لغير أهل التوكل إلَّا للتعاون ليفرغ قلوب الناس عنه ويصل منه النفع إلىٰ غيره.

❊ ❊ ❊

الباب الحادي والثلاثون
في علوم الصوفية علوم الأحوال

أقول وبالله التوفيق: اعلم أن علوم الصوفية علوم الأحوال[1]، والأحوال مواريث الأعمال، ولا يرث الأحوال إلَّا من صحح الأعمال.

وأول تصحيح الأعمال معرفة علومها، ....

قوله: علوم الصوفية علوم الأحوال، أي علوم تحصل من التحقق بالأحوال، والأحوال مواهب نوازل من الله بالعبد ترقيه إلىٰ المقامات، ولهذا **قال: والأحوال مواريث الأعمال، ولا يرث الأحوال إلاَّ من صحح الأعمال.**

وأول تصحيح الأعمال معرفة علومها.

معنى تصحيح الأعمال إقامة الشريعة، ومعنى الأحوال صفوة السر، يريد أن من لم يصح له معاملة الظواهر لم يصح له أحوال الباطن[2]، فمن وجد في باطنه ما يظنه أنه كرامة من الله تعالىٰ فيوازن بمعاملته الظاهرة وآداب الشريعة، فإن صحت المعاملة والآداب ولم يفت عنه شيء منها فما وجده في باطنه هو كرامة من الله تعالىٰ

---

(١) الأحوال والمقامات هي درجات أو مراحل التطور أو الترقي الروحي، وبعض هذه الدرجات بعضها ذو طابع ذاتي هي الأحوال وبعضها ذو طابع موضوعي هي المقامات فالأحوال تمثل الدرجات الذاتية لهذا الترقي الروحي متمثلة في الأنماط الانفعالية والمعرفية التي تجيء كمحصله لالتزام الإنسان بمجموعة من القواعد التي تحدد للإنسان ما ينبغي أن يكون عليه وجدانه وتفكيره.

والحال معنى يرد علىٰ القلب من غير تصنع ولا اكتساب والأحوال هي المذاهب الفائضة علىٰ العبد من ربه.

(٢) الحال عند القاشاني هو ما يرد علىٰ القلب بمحض الموهبة من غير تعمل كحزن أو خوف أو بسط أو قبض أو شوق أو ذوق يزول بظهور صفات النفس فإذا دام وصار ملكًا يسمى مقامًا فالأحوال مواهب والمقامات مكاسب، كما حكي عن إمام العارفين وسيد الطائفة الجنيد أنه قال: الحال نازلة تنزل بالقلوب فلا تدوم.

انظر الجرجاني في التعريفات ص١١٠ ـ ١١١ والطوسي في اللمع ص٦٦

وهي علم الأحكام الشرعية من أصول الفقه من الصلاة والصوم وسائر الفرائض إلىٰ علم المعاملات من النكاح والطلاق والمبايعات وسائر ما أوجب الله تعالىٰ وندب إليه وما لا غناء به عنه من أمور المعاش، وهذه علوم التعلم والاكتساب.

فأول ما يلزم العبد الاجتهاد في طلب هذا العلم وأحكامه علىٰ قدر ما أمكنه ووسعه طبعه وقوي عليه، فهمه بعد إحكام علم التوحيد والمعرفة علىٰ طريق الكتاب والسُّنّة وإجماع السلف الصالح عليه القدر الذي يتيقن بصحة ما عليه أهل السُّنّة والجماعة، فإن وفق لما فوقه من نفي الشبهة التي تعترضه من خاطر أو ناظر فذاك.

وإلا فهو غرور وخديعة الشيطان فخرب ظاهره، وفسد باطنه بتخريبه، وتصحيح الأعمال بمعرفة علومها، لأن المعاملة إنما تصح بالعلم بها، فإذا لم يعلمها لم يقدر علىٰ تصحيحها.

قوله: بعد إحكام علم التوحيد.

أي أول ما يلزم العبد الاجتهاد في طلب الأحكام الشرعية وإحكامه بعد أن أحكم علم التوحيد[1].

ومعرفة الله تعالىٰ يعني يجب أولاً علم التوحيد والمعرفة ثم يجب علم الأحكام الشرعية.

قوله علىٰ طريق الكتاب، أي يجب أولاً إحكام علم التوحيد والمعرفة مبنيًا علىٰ طريق الكتاب والسُّنّة وإجماع السلف الصالح القدر الذي، أي يجب إحكام العلم القدر الذي يتيقن بصحة ما عليه أهل السُّنّة.

---

(١) تعتبر الأحوال والمقامات عند الصوفية طريق موصل إلىٰ معرفة الله ﷻ وقد وصفها ابن خلدون في مقدمته بالغاية المطلوبه للسعادة يقول: ولا يزال المريد يترقى من مقام إلىٰ مقام إلىٰ أن ينتهي إلىٰ التوحيد والمعرفة التي هي الغاية المطلوبة للسعادة، ويتفق الصوفية مع ابن خلدون في رأيه بأن الترقي في المقامات ينتهي بصاحبه إلىٰ توحيد الله ومعرفته.
انظر مقدمة ابن خلدون (ص٣٢٨)

وإن أعرض عن خواطر السوء اعتصامًا بالجملة التي عرفها وتجافى عن الناظر الذي يحاجه فيه ويجادله عليه وباعده فهو في سعة إن شاء الله عز وجل، واشتغل باستعمال علمه وعمل بما علم فأول ما يلزمه علم آفات النفس ومعرفتها ورياضتها وتهذيب أخلاقها ومكائد العدو، وفتنة الدنيا، وسبيل الاحتراز منها.

وهذا العلم علم الحكمة، فإذا استقامت النفس علىٰ الواجب وصلحت

والطرق الثلاثة المذكورة هي المعتمد عليها والتي صانت عن الضلال، ومتابعة الباطل، فإن وفق لما فوق علم التوحيد والمعرفة[١]، أي يبالغ في تعلم علم التوحيد بحيث لو عرض له شبهة، أو نظر بعدها، فإن وقوع الشبهة من مقدمات زوال التوحيد والمعرفة فذاك التوفيق جائز وحسن، وإن أعرض عن خواطر السوء وهي الشبهة التي تعترضه ويتمسك منها بالجملة علىٰ عرفها وهي الكتاب والسنة وإجماع السلف الصالح، ويعتمد عليها ويدفع بها خواطر السوء ويقول: إذا صح الأصل المذكور عندي، فلا أعدل عنه إلىٰ الخاطر السيِّئ ولا أتركه له، وتباعد عن الناظر الذي يحتاجه في الخاطر السوء وما فيه شبهة فهو في سعة من العدول عن الشبه والخاطر[٢] السوء ومحاجة الناظر معه، وسهل عليه طريق الدفع وأعرض عن الجدال والمناظرة واشتغل باستعمال علمه الذي حصل له من الكتاب والسُّنّة والإجماع في العمل وعمل بما علم منها، فهو أولى له من الجدال والمناظرة، لأنهما إن كانا لاستقامته وتصحيح عقائده فقد صحح بما هو خير منهما،

---

(١) التوحيد عند الشاذلية ثلاثة اصناف، يقول ابن عطاء الله السكندري: الناس في التوحيد وذكره علىٰ ثلاثة أصناف: صنف منهم عمومًا لأهل البداية وهو التوحيد باللسان نطقا ومقالاً واعتقادًا وإخلاصًا وهو الإسلام، وصنف خصوص وسط وهو توحيد القلب وهو الإيمان، وصنف خصوص الخصوص وهو الإحسان، والمعرفة عن الشاذلي هي ما قطعتك عن غير الله وردتك إلىٰ الله، وقد نبه الشاذلي بهذا إلىٰ منتهى المعرفة وهي الرجوع إلىٰ الله والانقطاع عن غيره.
انظر ابن عطاء الله في القصد المجرد في معرفة الاسم المفرد (ص٧٤)

(٢) الخاطر تحريك السر لا بداية له، وإذا خطر بالقلب لا يثبت فيزول بخاطر آخر مثله ويقال: إن الخاطر الصحيح أول الخاطر أي أول ما يخطر ومعنى الخاطر أيضًا ما لا يكون للعبد نسبه في ظهوره في الأسرار.

المعجم الصوفي (ص٨٦)

طباعها وتأدبت بأداب الله عز وجل من ذم جوارحها وحفظ أطرافها وجميع حواسها سهل عليه إصلاح أخلاقها وتطهير الظاهر منها والفراغ مما لها.

وإن كانا لتصحيح عقائد غيره فلا عليه، لقوله تعالىٰ: ﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ [المَائدة: ١٠٥].

وأول ما يجب علىٰ العبد بعد صحة التوحيد والمعرفة وعلم أحكام الشريعة علم آفات النفس[١] ومعرفتها ورياضتها وتهذيب أخلاقها المذمومة؛ وهي أعدى عدو بين جنبيك فلا تأمن منها بحال وعلم مكائد العدو الذي هو الشيطان.

لقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يُوسُف: ٥].

وعلم فتنة الدنيا وطريق الاحتراز عنها.

وقال عليه الصلاة والسلام: «**من اشتغل بالدنيا أضرَّ بآخرته، ومن اشتغل بالآخرة أضرَّ بدنياه**».

وقال: «**ما لي وللدنيا إنما مثلي ومثل الدنيا كمثل الراكب نزل في ظل شجرة ساعة ثم تركها وراح عنها**»[٢].

وهذا العلم الذي ذكر وهو علم النفس والشيطان، والدنيا ليستقيم النفس ويزكيها وينجو من الشيطان ويترك الدنيا هو علم الحكمة.

فإذا استقامت النفس علىٰ الواجب بالإتيان بأوامر والله والاجتناب عن نواهيه وصلحت طباعها بأن هذبت من الأخلاق المذمومة وزكيت منها وتأدبت بآداب الله تعالىٰ من المحافظة علىٰ الشريعة وآدابها وسد جوارحها وحفظ أطرافها لئلا يرتكب

---

(١) يتكلم الغزالي عن أمراض النفس التي يطلق عليها أمراض القلب وذلك لأنه يعطي للنفس والقلب والروح نفس المعنى أحيانًا وتنشأ هذه الأمراض عادة من اختلال التوازن بين أقسام النفس البشرية وغلبة طرف علىٰ أطراف أخرى وعدم القدرة للعقل علىٰ التحكم والسيطرة من جهة أخرى، فنصبح أمام حالات من انحراف السلوك وطاعة الرغبات والشهوات التي تسيطر علىٰ صاحبها والأسباب الأساسية في أمراض القلوب كما يسميها الغزالي هو الصراع بين قوى الخير وقوى الشر، بين العقل والغريزه بين الرغبه في الإشباع وطلب اللذة وبين الاستقامة والرضا.

(٢) أخرجه: البخاري في صحيحه (٣/ ٢١٣)، وأحمد في مسنده (١/ ٣٠١، ٤٤١)، والحاكم=

وعزوفها عن الدنيا وإعراضها عنها، فعند ذلك يمكن للعبد مراقبة الخواطر وتطهير السرائر.

وهذا هو علم المعرفة، ثم وراء هذا علوم الخواطر وعلوم المشاهدات والمكاشفات وهي التي تختص بعلم الإشارة وهو العلم الذي تفردت به الصوفية بعد جمعها سائر العلوم التي وصفناها.

منهيًّا وجمع حواسها إما بأن يمنعها عن المناهي، وإما بأن يشغلها بما يشتغل به سرّه لتصير الحواس مع معنى القلب مجموعة سهل عليه، أي فإذا استقامت النفس بما ذكر سهل عليه إصلاح أخلاقها وتطهير الظاهر منها، بقوله: فعند ذلك يمكن العبد مراقبة الخواطر وتطهير السرائر.

المراقبة[1] مراعاة السر لملاحظة الحق في كل لحظة وذلك لا يحصل إلّا بحسم مراد الخواطر الردية، ومنع سرّه أن يدخله غير الحق.

قوله: وهذا هو علم المعرفة.

أي استقامة النفس على الوجه المذكور علم المعرفة.

قوله: ثم وراء هذا.

أي ثم بعد علم المعرفة علوم الخواطر وعلوم المشاهدات والمكاشفات رتب

= في المستدرك (٤/ ٣١٠)، والهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٣٢٦)، والبيهقي في دلائل النبوة (١/ ٣٣٨) والمنذري في الترغيب والترهيب (٤/ ١٩٩)، والشجري في أماليه (٢/ ٢٠٨)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٢/ ١٠٢)، والدارمي في سننه (٢/ ٥٤)، والعجلوني في كشف الخفا (٢/ ٤١٨)، وذكره الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٤٣٩).

(١) المراقبة حال شريف وهي محافظة القلب على الرديه وقيل هي أن تعلم أن الله تعالى على كل شيء قدير، وقيل حقيقة المراقبة أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

وقيل: إنها على ضربين مراقبة العام ومراقبة الخاص، فمراقبة العام من الله تعالى خوف، ومراقبة الخاص من الله رجاء وسئل ابن عطاء ما أفضل الطاعات فقال: مراقبة الحق على دوام الأوقات.

المعجم الصوفي (ص٢٢٧)

وإنما قيل علم الإشارة لأن مشاهدات القلوب ومكاشفات الأسرار لا يمكن العبارة عنها علىٰ التحقيق.

بل تعلم بالمنازلات والمواجيد، ولا يعرفها إلَّا من نازل تلك الأحوال، وحلّ تلك المقامات روى سعيد بن المسيب عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول

العلوم علىٰ الأصل المذكور.

أولها علم التوحيد الذي هو أصل للعلوم غيره.

ثم علم الشريعة الذي هو فرع علم التوحيد، وصحته دليل صحة الباطن.

ثم علم الحكمة وهو معرفة النفس(١) رياضتها واستقامة أخلاقها والحذر عن كيد العدو، ومعرفة مكائده وفتنة الدنيا والاحتراز عنها.

ثم علم المعرفة وهو ترك الدنيا والإعراض عنها وإصلاح أخلاق النفس وحفظ الحواس وجمعها وتطهير السر عما سواه ومراقبة الخاطر.

ثم علم الخواطر والمشاهدات والمكاشفات بعد ذلك يبدو ويظهر وعلم الخاطر هو العلم الرباني الذي لا يحظى أبدًا، والمكاشفة ما ينكشف للقلوب من أنوار الغيوب وهو لأهل العين إلىٰ أن يستقر، فإذا استقر فهي المشاهدة وهي لأهل الحق أي حق اليقين، فالمكاشفة مقدمة للمشاهدة وعلوم الخواطر والمكاشفات والمشاهدات تختص بعلم الإشارة.

أي التي تسمى علم الإشارة ويختص بهذا الاسم وهو العلم الذي تفرد به الصوفية، لا يكون إلَّا لهم بعد جمعهم سائر العلوم التي وصفت، ومرّ ذكرها من علم التوحيد، وعلم الاكتساب، وعلم الحكمة، وعلم المعرفة.

---

(١) العلماء الزاهدون ومشايخ الصوفية المقربون رزقوا سائر العلوم وقالوا إنها فرض فمن ذلك علم الحال وعلم القيام وعلم الخواطر وعلم اليقين وعلم الإخلاص وعلم النفس ومعرفة أخلاقها وهو من أعز علوم الصوفية وأقوم الناس بطريق المقربين والصوفية أقومهم بمعرفة النفس، وعلم معرفة أقسام الدنيا ووجود رقائق الهوى وخفايا شهوات النفس وشرها وشرها وعلم الضرورة ومطالبة النفس بالوقوف علىٰ الضروري ومعرفة حقائق التوبة.
المعجم الصوفي (ص١٧٧، ١٧٨)

الله ﷺ: «إن من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه ....

وإنما سمي علم الإشارة[١] لأن مشاهدات القلوب ومكاشفات الأسرار لا يمكن العبارة عنهما علىٰ التخفيف، بل إنما يعبر عن أصلهما بأن حصل لي خوف ولطف أو رجاء، وبهذا المقدار يسمّى أصل المشاهدة والمكاشفة وأما كيفيتهما وكميتهما فلا حدَّ لهما.

وما لا حدَّ له لا تصح العبارة عنه.

والمراد بالأسرار ههنا هي المعاني التي تكون للقلب بسبب صفوته، وجعل صاحب الكتاب ههنا المكاشفة أعلى من المشاهدة، والأمر بالعكس، كما ذكر من قبل، بل تعلم تلك المشاهدات والمكاشفات بمنازل، لأن القلوب مع تلك الأحوال وبمواجيد الأسرار وبالحلول في المقامات يحتمل أن يكون معناه أن القلب ما لم يحل بمقام لا يكون له خبر منه، وإن السرّ ما لم يحترق بمحل لا يكون له خبر منه.

وإن السرّ ما لم يحترق بمحل لا يكون له خبر منه، ومن لم يحترق لو عبّر وبين له عن الاحتراق لم يكن له خبر عن الاحتراق، فلا يعرف تلك المكاشفات والمشاهدات إلّا من نازل تلك الأحوال، وحلَّ تلك المقامات ويحتمل أن يكون معناه أنه لو حصل للواجد وجد يستدل به علىٰ منازلته لأي حال ومقام له، لكن لو أراد صاحب المنازلة والوجد أن يخبر عن منازلته ووجده لا يطيق ولا يقدر، لأن منازلات القلوب حيرة، ومواجد الأسرار دهشة والمتحير والمدهوش[٢] كيف يقدر علىٰ الإخبار عما وقع له في حالة التحير والدهشة، فإن المحترق لو نجا منه لا يقدر أن يخبر عما وقع له في حالة

---

(١) الإشارة هي الإخبار من غير الاستعانة بالتعبير باللسان، وقيل ما يخفى عن المتكلم كشفه بالعبارة للطافة معناه وتكون مع القرب، ومع حضور الغيب وتكون مع العبد، وعلم الصوفية علم إشارة فإذا صار علم عبارة خفى، والإشارة كما في قول الله عز وجل: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ و﴿ٱلَّذِى﴾ [الناس: ٥] في الآية كالكنايه، والكناية كالإشارة في لطافتها ولا يدركها إلا الأكابر من أهل العلم.

المعجم الصوفي (ص٢٣)

(٢) الدهشة سطوة تصدم عقل المحب من هيبة محبوبه إذا لقيه عند الإياس لم يجد له عاهة إذا انقضت وكان الشبلي يقول: يا دهشًا كله ومعناه كل شيء مع الخلق منك دهش كله.

المعجم الصوفي (ص٩٦)

إلاَّ أهل المعرفة بالله فإذا نطقوا به لم ينكره إلاَّ أهل الغرّة بالله»[١].

وعن عبد الواحد بن زيد قال: سألت الحسن عن علم الباطن فقال: سألت حذيفة بن اليمان عن علم الباطن فقال: سألت رسول الله ﷺ عن علم الباطن فقال: «**سألت جبريل عن علم الباطن فقال: سألت الله عز وجل عن علم الباطن فقال: هو سرٌّ من سرّي أجعله في قلب عبدي لا يقف عليه أحد من خلقي**»[٢].

قال أبو الحسن بن أبي ذر في كتابه منهاج الدين أنشدونا للشبلي:

احتراقه إلَّا عن الاحتراق، لأنه بالاحتراق يكون من هو شاذ، وغافلًا عما سواه.

وقد مر الفرق من الأحوال والمقامات.

وعلم أيضًا أن المواجيد أحوال أيضًا.

قوله: إلَّا أهل المعرفة[٣] **بالله** وهم العالمون بالله والباقون به.

فإذا نطقوا بذلك العلم لم ينكره إلَّا أهل الغفلة بالله وهم العالمون بوجودهم والباقون به.

قوله: لا يقف عليه أحد من خلقي.

أي من غير إيقافي إياه عليه.

---

(١) أخرجه المنذري في الترغيب والترهيب (١/ ١٠٣)، والزبيدي في الإتحاف (١/ ١٦٦)، وذكره الألباني في الضعيفة (٨٧٠).

(٢) أخرجه: الزبيدي في الإتحاف (١٠/ ٤٤).

(٣) ما يسميه الصوفية معرفة هي نوع من الذوق لا دخل للعقل فيه وهي شهود القلب الذي استفناء بنور الله للحق سبحانه وقيل المعرفة معرفتان: معرفة حق ومعرفة حقيقة، فمعرفة الحق هي إثبات وحدانيته على ما أبرز من الصفات ومعرفة الحقيقة لا سبيل إليها لامتناع الصمدية واستحالة الإحاطة بالربوبية يقول الله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠] لأنه تعالى الصمد الذي لا تدرك حقائق نعوته وصفاته.

المعجم الصوفي (ص٢٣٥)

علم التصوف علم لا نفاذ له   علم سني سماوي ربوبي
فيه الفوائد للأرباب يعرفها   أهل الجزالة والصّنع الخصوصي

ثم لكل مقام بدو ونهاية وبينهما أحوال متفاوتة ولكل مقام علم وإلى كل حال إشارة ومع كل مقام إثبات ونفي.

وليس كل ما نفي في مقام منفيًّا فيما قبله ولا كل ما أثبت فيه كان مثبتًا فيما دونه.

قوله: علم التصوف علم لا نفاذ له لحصول المعدات والقابلية بالفعل، والقبض من الله تعالىٰ يتوقف علىٰ حصول المعدات والشرائط وارتفاع الموانع.

فإذا حصل ذلك فقد حصل القبض منه بلا توقف وعلم الفاعل مما لا نهاية له.

ويقدر علىٰ إعطاء علم لا نفاذ له ولا انقطاع.

قوله: سنِي، أي شريف عزيز رفيع عليّ سماوي ربوبي، لأنه يحصل من الله من غير واسطة.

قوله: يعرفها أهل الجزالة.

أي يعرف فوائد علم التصوف من هو تام كامل مختار صاف عما سواه، خاص لله منفرد عن غيره.

قوله: ثم لكل مقام بدو ونهاية وبينهما أحوال متفاوتة، فإن مقام الخوف له بدو، وهو ترك المعاصي وله نهاية وهو أن ينتهي الخوف إلىٰ حد القنوط.

وبينهما أحوال مختلفة، لأنه يكون شخص له خوف بحيث يترك بعض المعاصي دون البعض، ويكون شخص له خوف يترك الكبائر دون الصغائر ويكون لآخر خوف بحيث يتركهما، ويكون له خوف من غير الله ويكون لآخر خوف بحيث لا يخاف إلَّا من الله.

وهذا المقام أعني مقام الخوف[1] إنما يحصل من مشاهدة جلال الله.

---

(١) الخوف يتمثل في نشيج من يقدر خطوره العواقب فيقف عند الواجب ولا يعرض نفسه لزيغ=

....

فمتى تكون له مشاهدة جلال الله أكثر يكون الخوف أكثر وفي مقابلة مقام الرجاء وأوله هو المسارعة إلىٰ الطاعة ونهايته الأمن، وبينهما أحوال مختلفة، لأنه يكون من له رجاء بغير الله تعالى، يكون رجاء آخر بحيث يفعل الفرائض دون السنن، ويكون لآخر بحيث يفعلهما، ويكون لآخر بحيث يطمع في الثواب، ويكون لآخر بحيث لا يطلب عوضًا لفعله ولا يطمع فيه.

وهذا المقام أعني مقام الرجاء إنما يحصل من مشاهدة الكرم، فمتى يكون له مشاهدة الكرم أكثر يكون رجاؤه أكثر وعليهما قياس سائر المقامات.

ومعرفة هذه الأحوال المختلفة إنما يكون لصاحب ذلك المقام لا لغيره، ولكل مقام علم غير علم المقام الآخر، وإلى كل حال إشارة يكون ظهوره من مشاهدة السر، فإن شاهد السر جلال الحق يكون حاله الخوف[1].

وإن شاهد الجمال يكون حاله الرجاء.

وإن شاهد اللطف يكون حاله المحبه.

وإن شاهد الكرم يكون حاله الشكر.

وإن شاهد القهر يكون حاله الصبر، فإذا ظهرت هذه الأحوال المختلفة في سره من تأثير المشاهدات المختلفة فكل ما جرى علىٰ لسانه يكون مشيرًا إلىٰ ما شاهده في السر، فطرب الظاهر يشير إلىٰ سرور الباطن.

= ولا إثم بل ولا يقف في مواطن توشك أن توقعه في الشر والفساد ثم يترقى الصوفي في الخوف فيتحلى بأشرف ما يتجلى به المقربون وعندئذ تنتقل مظاهر الخوف من عالم الجسم إلىٰ عالم الروح فتكون للعارف أشجان لا يدركها إلا أهل الصفا، ويرى الصوفية أن المحب لا يسقي كأس المحبة إلَّا بعد أن ينضح الخوف من قلبه.

(١) صنف ابن عجيبة مراتب الخائفين إلىٰ ثلاث مراتب: فقال: خوف العامة من العقاب وفوات الثواب، وخوف الخاصة من العتاب وفوات الاقتراب، وخوف خاصة الخاصة من الاحتجاب بعروض سوء الأدب.

انظر معراج التشوف إلىٰ حقائق التصوف (ص٦)

....

ونياحة الظاهر تشير إلىٰ حزن الباطن، فمن يدل بنياحة الظاهر علىٰ سرور الباطن فقد أخطأ.

وكذا من يستدل بطرب الظاهر علىٰ مصيبة الباطن فكل شيء يطلب من مشربه، ومع علم كل مقام إثبات ونفي.

وليس كل ما نفي في مقام كان منفيًا فيما قبله، ولا كل ما أثبت في مقام كان مثبتًا فيما دونه لئلا ينظر أحد إلىٰ هذه الطائفة بعين الخصومة والإنكار لأن المقامات[1] إذا كانت مختلفة، ولكل مقام بدو ونهاية وبينهما أحوال مختلفة، فكل ما أثبت في محل يكون منفيًا عن محل آخر.

وما هو منفي عن محل يكون مثبتًا في محل آخر، وذلك كما أنه لا يكون مؤمن إلَّا وله توقير لله تعالىٰ ولكن يكون مؤمن له مع توقير الله مقدار الأشياء في سره حتى يكون له جزع في فوات غير الله مع وجوده، ولو كان توقيره لله تعالىٰ بالكمال لا يكون له مع وجود الحق جزع علىٰ فوات غيره.

ألا ترى إلىٰ كمال توقير الصديق رضي الله عنه فإنه لا يكون له معه جزع علىٰ فوات المصطفى عليه الصلاة والسلام ولا يزعجه ولا يقلقه شيء حتى قال: من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله تعالىٰ حي لا يموت.

فشتان ما بين التوقيرين، توقير يزعجه فوات حبه وتوقير لا يزعجه فوات سيد الكونين عليه الصلاة والسلام.

ويكون مؤمن له مقام خوف بحيث يكون له خوف من أدنى مخلوق، ولو كان له كمال الخوف[2] لا يبقى لخوف غير الله تعالىٰ في سرّه أثر.

---

(١) يقول السراج الطوسي في اللمع: إن قيل ما معنى المقامات يقال معناه مقام العبد بين يدي الله عز وجل فيما يقام فيه من العبادات والمجاهدات والرياضات والانقطاع إلىٰ الله عز وجل قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم: ١٤] وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾﴾ [الصافات: ١٦٤] ومن المقامات التوبة، والورع، والزهد، الفقر، الصبر، الرضا، التوكل... إلخ.

(٢) قال حجة الإسلام الإمام الغزالي: اعلم أن حقيقة الخوف هو تألم القلب واحتراقه بسبب توقع=

....

ألا ترى إلىٰ كمال خوف الفاروق ﷺ فإنه قد فرغ عن خوف غير الحق بحيث يخاف منه الشيطان الذي يخاف منه الكل، ويكون مؤمن له حياء من الله تعالىٰ، ومع ذلك يكون له حياء عن غيره أيضًا.

ولو كان له كمال الحياء من الله لا يكون له حياء من غيره ألا ترى أن ذي النورين ﷺ لما كان له كمال الحياء من الله تعالىٰ يكون للملائكة حياء منه ويكون مؤمن له محبة الله تعالى، ويكون مع ذلك له محبة غيره.

ولو كان له كمال محبه الله لما بقى مع محبته محبة غيره فلا يكون له مراد غيره[1].

ألا ترى أن كمال محبة علي كرم الله وجهه لله تعالىٰ إنما تكون بحيث قال الله في حقه: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ [الإنسان: ٨]. يعني علىٰ حب الله تعالىٰ.

فإن كمال محبته غلب عليه بحيث ينسى سره هلاكه وهلاك عياله والأهل والولد.

وإذا ثبت ذلك فعلم أن بين بدو مقام ونهايته كثير تفاوت، وإذا كان كذلك فكل ما أثبت في البدو يكون منفيًا في النهاية، وكل ما نفي في النهاية يكون مثبتًا في البدو.

وإذا اختلف حال مقام واحد هكذا فكيف حال مقامين وصاحب الكتاب إنما ذكر المقامات والأحوال في كتابه واختصر في شرحهما حتى لو كان أحد لا يكون صاحب مقام ولا حال[2] لعلم علم المقام والحال وسمعه لئلا ينكر الحق بجزاف، ولا يتصور

= مكروه في المستقبل وقد يكون ذلك من جريان ذنوب وقد يكون الخوف من الله تعالىٰ بمعرفة صفاته التي توجب الخوف لا محالة، وهذا أكمل وأتم لأن من عرف الله خافه بالضرورة ولهذا قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨].

انظر الأربعين في أصول الدين (ص١٦٩)

(١) قال الشيخ أحمد زروق في قواعده: من بواعث العمل وجود الخشيه وهي تعظيم يصحبه مهابة والخوف هو انزعاج القلب من انتقام الرب.

انظر قواعد التصوف (ص٧٤)

(٢) جعل الإمام الواسطي للأحوال والمقامات علامات منها ما وافق كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وجذب إلىٰ الله واتصل بالله وآثرهما قربًا من الله وعبد الله بذلك الحال فاتصلت عبودية العابد بذلك الحال بالله وكان الله ﷻ هو المعبود به والمعظم فيه وكان رسول الله ﷺ هو الداعي إليه=

وهو ما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا إيمان لمن لا أمانة له**»[١].

فنفى إيمان الأمانة لا إيمان العقد، والمخاطبون أدركوا ذلك إذ كانوا قد حلوا مقام الأمانة أو جاوزوه إلىٰ ما فوقه. وكان عليه الصلاة والسلام مشرفًا علىٰ أحوالهم فصرح لهم، فأمّا من لم يشرف علىٰ أحوال السامعين وعبر عن

الصواب باطلًا ولا ينكر هذه الطائفة ولا كلماتهم لو لم يعلمها، بل يعرف بعجزه وإقراره بالعجز إيمان.

وما نفي في مقام أو في بدوه يكون مثبتًا في مقام آخر أو في نهايته.

كما روي عن رسول الله ﷺ: «لا إيمان لمن لا أمانة له»، فنفى إيمان الأمانة لا إيمان العقد، وإيمان الأمانة هو أمن الخلق، ومن لا أمانة له لا يأمن الخلق منه، ولا يؤآمنهم لأن الأمن لا يجتمع مع الخيانة، فإن الخلق يأمن من صاحب الأمانة، ويخاف من صاحب الخيانة.

والمخاطبون وهم الصحابة الذين خاطبهم رسول الله ﷺ بذلك **أدركوا ذلك**، أي أن المراد نفي إيمان الأمان لا إيمان العقد **إذا كانوا قد حلوا مقام الأمانة** وجاوزوا مقام الأمانة **ورسول الله ﷺ كان مشرفًا علىٰ أحوالهم**، لأنه عليه الصلاة والسلام أعلى مقامًا وحالًا منهم، **فصرح لهم** ذلك الكلام بنفي الإيمان علىٰ الإطلاق لمن لا أمانة له[٢]، ولم

= والعابد له فيه وكان العبد هو الذليل الفقير الراجع إلىٰ مولاه بالافتقار والالتجاء إليه كما أنها تزهد صاحبها في الفاني وترغبه في الباقي وتغنيه عن الخلق.

انظر الواسطي في السلوك القسم الرابع (ص٢٣٧)

(١) أخرجه: أحمد في مسنده (٣/ ١٣٥، ١٥٤)، والطبراني في المعجم الكبير (٨/ ٢٣٠)، وابن أبي شيبة في مصنفه (١١/ ١١)، والهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ٩٦) وابن عبد البر في التمهيد (٩/ ٢٥٥).

(٢) الإيمان في الاصطلاح أنه التصديق بالجنان والإقرار باللسان والعمل بالأركان والأصل في الإيمان التصديق وحمل الأمانة التي كلف الله بها الأنس والجن فمن صدق بقلبه كما صدق بلسانه وانقاد بجوارحه لأوامر ربه فقد أدى الأمانة فهو مؤمن ومن لم يعتقد التصديق بقلبه فهو غير مؤد للأمانة التي ائتمنه الله عليها وهو منافق والأمانة اسم جامع للطاعات والعبادات والودائع والثقة والأمان وإلى هذه المعاني أشار الحديث الشريف: «**الإيمان أمانة ولا دين لمن لا أمانة له**». وفي رواية أخرى «**لا إيمان لمن لا أمانة له**».

مقام فنفى فيه وأثبت، جاز أن يكون في السامعين من لم يحل ذلك المقام.

وكان الذي نفاه القائل مثبتًا في مقام السامع فيسبق إلىٰ وهم السامع أنه نفى ما أثبته العلم فخطَّأ قائله أو بدَّعه وربما كفره.

يفسره، لأنه عليه الصلاة والسلام علم أنهم علموا مراده منه.

معنى ذلك الكلام أن من وصل إلىٰ مقام الأمانة أو جاوزه إلىٰ مقام أعلى منه يكون خائفًا فيه كخوف المؤمن بأول مقام الإيمان من الكفر، فيخاف هذا في أول المقام من الكفر ويخاف آخر في مقام آخر فوقه من الخيانة كخوفه هناك.

ولو لم يؤاخذ هذا في أول المقام بالخيانة بعدم الإيمان لضل، لأنه يظن أنه كفر بالخيانة، فيكون الإيمان ههنا مثبتًا مع الخيانة ولا يكون مثبتًا مع مؤمن اعتقد أن الخلق آمن من سره وخيانته فإذا خان زال الأمن فزال إيمان الأمن، فإثبات هذا صار نفيًا لذاك، وإثباته ذاك صار نفيًا لهذا.

فهذا دليل اختلاف المقامات والأحوال بالنفي والإثبات هذا إذا كان القائل مشرفًا علىٰ أحوال السامعين وأما إذا لم يكن مشرفًا عليها وعبر عن مقامه فنفى فيه وأثبت بجوار أن يكون في السامعين من لم يحل ذلك المقام ولا يكون خبر عنه.

وكان الذي نفاه القائل يكون مثبتًا عند المستمع أو الذي أثبته في مقامه يكون منفيًّا عند المستمع، فالمستمع ينكر نفيه أو إثباته، وهو حق وتوحيد[1] في نفسه، لأن القائل إنما يقوله عند رؤيته ومشاهدته.

والمستمع إنما يستمع من حيث علمه فخطأه تارة وبدعه أخرى وربما كفّره.

كما أن الضلال عند أهل الحق ضلال، فكذا الحق عند أهل الضلال ضلال.

ولما كان الأمر علىٰ ما ذكر من اختلاف المقامات والأحوال وفي كل مقام نفي وإثبات.

---

(١) توحيد الذات هو إثبات الذات لله تعالىٰ مطلقًا ونفيها عن غيره، فيرى صاحب هذا التوحيد كل الذوات والصفات والأفعال متلاشية في أشعة ذاته وصفاته وأفعاله ويجد نفسه مع جميع المخلوقات ويرى ذاته في الذات الواحدة وصفته في صفتها وفعله في فعله لاستهلاكه بالكليه في عين التوحيد.

المعجم الصوفي (ص٦٠)

فلما كان الأمر كذلك اصطلحت هذه الطائفة علىٰ ألفاظ في علومها تعارفوها بينهم ورمزوا بها، فأدركه صاحبه، وخفي عن السامع الذي لم يحل مقامه، فإما أن يحسن ظنه بالقائل فيقبله ويرجع إلىٰ نفسه فيحكم عليها بقصور فهمه عنه أو بسوء ظنه به، فيهوس قائله وينسبه إلىٰ الهذيان وهذا أسلم له من رد حق وإنكاره.

قال بعض المتكلمين لأبي العباس بن عطاء: ما بالكم أيها المتصوفة قد اشتققتم ألفاظًا أغربتم بها علىٰ السامعين وخرجتم عن اللسان المعتاد، هل هذا إلَّا طلبًا للتمويه أو سترًا لعوار المذهب فقال أبو العباس: ما فعلنا ذلك إلَّا لغيرتنا عليه لعزته علينا كيلا يشربها غير طائفتنا، ثم اندفع يقول:

أحسن ما أظهره ونظهره   بادئ حق للقلوب نشعره

ونفي هذا المقام إثبات مقام آخر، وإثبات هذا المقام نفي مقام آخر.

ومن المستمعين من لم يصل إلىٰ ذلك المقام فلا ينبغي أن يقال معه من ذلك المقام شيء لئلا ينسب القائل إلىٰ الكفر أو الضلالة أو البدعة ومنعه من أهله ظلم.

اصطلحت هذه الطائفة علىٰ ألفاظ فيما بينهم يعرف أهل هذا المذهب معناها[1].

ومن لم يكونوا أهلًا لها يسمعونها ولم يعرفوا معناها، ليصل أهله إلىٰ المراد، ولم نغيب[2] غير أهله.

قوله: لعوار المذهب، أي لقبحه.

قوله: ثم اندفع، أي سرع.

قوله: أحسن مبتدأ خبره **بادئ حقٍّ نشعره**، أي نشعر به ونستره عن غير أهله، لا نظهره له، لأنه لا يجوز إفشاء سرّ الربوبية.

---

(١) لخص ابن خلدون في مقدمته أربعة موضوعات رئيسية عني بها الصوفية المتفلسفة منها: ألفاظ موهمة الظاهر صدرت من الكثير من أئمة القوم يعبرون عنها في اصطلاحهم بالشطحات تستشكل ظواهرها فمنكر ومحسن ومتأول.

(٢) أي نقعوا في الغيبة . (وجدناه بالهامش).

يخبرني عني وعنه أخبره أكسوه من رونقه ما يستره

قوله: يخبرني عني وعنه أخبره.

معناه أن وجودي منه لا منِّي، فبالنظر إليه إنما هو موجود به، بل هو يخبرني عني ونظره إلي لأني موجود به يخبره عنه، فوجودي يخبره عنه وإن كان وجوده يخبره عن كل شيء، وذلك لا ينافيه قوله يخبرني عني وعنه أخبره، يعني يظهر الحق[١] في سري ما يريني بي، وأعرف نفسي به وأنا أخبر الحق عنه.

يعني أظهر من نفسي صدق معناي لأظهر أن ما ظهر في سري منه لا مني.

أي أعتقد صدقًا أن ما ظهر في سري من الحق لا مني، فهذا هو معنى قوله: وعنه أخبره.

قوله: أكسوه من رونقه ما يستره.

يعني أكسوا المعنى الذي أظهره الله في سري من جهة رونقه ما يستر ذلك المعنى.

يعني أكسوه عبارة تستر تلك العبارة وقتي علىٰ غير الأهل وهو جاهل لا يستطيع ينشر ما ظهر في سري ومرادي لو صرحته له، فيفسد ذلك الجاهل معناه إذا عبره بعبارته فأكسوه ما يستره عن ذلك الجاهل ليبقى سرّي معي[٢] ولا يطلع غير الأهل عليه فلا يطيق أن يحكي لفظي وعبارتي، بل لا يطيق أن يحكي عشرًا من عبارتي فيمشي إلىٰ غيره فيخبره، فإذا لم يطق الجاهل المذكور أن يحكي لفظي وعبارتي فيحكي ما يفهمه لا ما

---

(١) الفرق بين الحق والحقيقة أن الحق الذات، والحقيقة هي الصفات فالحق اسم الذات والحقيقة اسم الصفات ذلك لأن المريد إذا ترك الدنيا وتجاوز حدود النفس والهوى ودخل في عالم الإحسان فإنهم يقولون دخل في عالم الحقيقة.

المعجم الصوفي (ص٧٩)

(٢) أسرار الصوفية بكر لا يفتضها وهم واهم، والسر سران سر للحق وهو ما أشرف عليه بلا واسطة، وسر للخلق وهو ما أشرف عليه الحق بواسطة، ويقال: سر من السر للسر، وهو حق لا يظهر إلَّا بحق وما ظهر بخلق فليس بسر والسر من جانب الحق هو ما يختص بكل شيء من جانب الحق عند التوجه الإيجادي إليه المشار إليه بقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ [النحل: ٤٠].

المعجم الصوفي (ص١٢٣)

عن جاهل لا يستطيع ينشره يفسد معناه إذا ما يعبره
فلا يطيق اللفظ بل لا يعشره ثم يوافي غيره فيخبره
فيظهر الجهل وتبدو زمره ويدرس العلم ويعفو أثره

وأنشدونا أيضًا:

إذا أهل العبارة سائلونا أجبناهم بأعلام الإشارة
نشير بها فنجعلها غموضًا تقصر عنه ترجمة العبارة
ونشهدها وتشهدنا سرورًا له في كل جارحه إثارة

يكون مرادي فيظهر الجهل ويظهر أهله وزمرته ويندرس العلم وينطمس أثره ويمحو.

قوله:

إذا أهل العبارة سألونا أجبناهم بأعلام الإشارة

العبارة للعوام والإشارة للخواص.

لأن من لم يختص بعلم ولم يعرفه يكون له في مسائله عبارة وبيان ليفهمها.

ويجوز مع ذلك أن لا يفهمها كما للعوام في مسائل ظاهر الفقه، فإنه لو عبرتها لهم لفهموا، ولو عبرت غوامض مسائله لم يفهموا.

وأما من اختص بعلم فلا يخفى عليه ظواهره.

وأما دقائقه فلو خفيت عليه لظهرت عليه بأدنى رمز وإشارة.

ومعنى البيت أن أهل العبارة وهم العوام إذا سألونا عن وقتهم فأجبناهم بالإشارة، لأن أهل العبارة إنما سألوا عن وقتهم ووقتهم عند أهل الحقيقة شرك، ولا يجاب للمشرك من التوحيد.

ولو أجاب أهل الحقيقة عن وقتهم فلا يكون ذلك الجواب جوابًا لسؤال السائل، لأن الحقيقة لا تكون جوابًا للعبارة، بل يكون جواب العبارة عبارة، وجواب الحقيقة حقيقة[1] إنما يجاب بالإشارة، لأن السائل لو كان من أهل الحقيقة فبالإشارة يقف على المراد.

---

(١) الحقيقة هي إقامة العبد في محل الوصال إلى الله ووقوف سره على محل التنزيه، وقيل الحقيقة سلب آثار أوصافك عنك بأوصافه بأنه الفاعل بك فيه منك لا أنت. =

ترى الأقوال في الأحوال أسرى كأسر العارفين ذوي الخسارة

ولو كان من غير الحقيقة فلا يقع الكلام إلىٰ غير الأهل بل يشير بتلك المعاني فيجعلها غموضًا بحيث يقصر عنه ترجمة العبارة.

وتشهدنا سرورًا.

وذلك إشارة إلىٰ المشاهدة، فإن السرور بها يصيرنا بحيث لا نذكر غير الحق، ولا يخطر سرنا غيره.

وكذلك المعنى في كل جارحة إناره وضياء.

وهذا إشارة إلىٰ ما قيل إن تأملته فكلي عيون أو تفكرته فكلي قلوب.

قوله:

ترى الأقوال في الأحوال أسرى كأسر العارفين ذوي الخسارة

أي كأسر ذوي الخسارة في العارفين.

واعلم أن المغلوب أسير للغالب، والأسير عاجز فالقول أسير للسرّ، والسرّ مغلوب للحقيقة، لأن القول يعجز أن يعبر عن أقل شيء من السرّ وذرة منه.

ولو أراد السرّ أن يطلع علىٰ الحقيقة[1] لا يقدر أن يطلع علىٰ ذرة منها.

فالقول أسير الأحوال التي تجري علىٰ السرّ، والسرّ أسير الحق كأسر ذوي الخسارة في أحوال العارفين فإنهم أُسراء لها لأنهم لا يطلعون علىٰ شيء منها.

❋ ❋ ❋

=

والحقائق ثلاث: حقيقة مع العلم، وحقيقة معها العلم وحقيقة تشطح عن العلم وأصح الحقائق وأتمها ما قارن العلم والعلم كله حقيقة والحقيقة كلها علم، وعلم الحقيقة لا يخالف علم الشريعة وكل حقيقة تخالف الشريعة فهي كفر.

المعجم الصوفي (ص٧٨)

(١) الحقيقة لإصلاح السرائر بثلاثة أمور بالمراقبة والمشاهدة والمعرفة وقالوا: الحقيقة مشاهدة الربوبية بالقلب ويقال: هو سر معنوي لا حد له ولا وجه له ومن اتخاذهما صدقا لا مفهومًا والمريد في هذه المرحلة يفهم من معاني لا إله إلَّا الله أنها تعني لا موجود إلا الله وخلاصة قولهم في الحقيقة أن تشهده.

الباب الثاني والثلاثون
في التصوف ما هو

سمعت أبا الحسن محمد بن أحمد الفارسي يقول: أركان التصوف عشرة، أولها: تجريد[1] التوحيد، ثم فهم السماع، وإيثار الإيثار، وترك الاختيار، وسرعة الوجد، والكشف عن الخواطر، وكثرة الأسفار، وترك الاكتساب، وتحريم الادخار.

معنى تجريد التوحيد أن لا يشوبه خاطر تشبيه أو تعطيل.

قوله: في التصوف

قوله: معنى تجريد التوحيد أن لا يشوبه خاطر تشبيه أو تعطيل، فإن الواحد الحقيقي لو اعتبرت قبله شيئًا لعطلته.

ولو اعتبرت مثله لشبهته، لأنه لا شيء قبل الواحد فيصير الواحد به واحدًا، فإذا تفكرت فيما قبله تعطل، والثاني مثل الأول، وإذا تفكرت في الثاني تشبه.

والقيام علىٰ الواحد من غير تفكر فيما قبله ولا ما بعده تجريد التوحيد.

ويحتمل أن يكون معناه أنه إذا ثبت وحدانيته لا تتفكر في أن وحدانيته من غير مثل كيف تكون فإن ذلك يعطلك، لأنك إذا لم تجد مثله فتنكر وجوده فتقع في التعطيل وإذا أثبته لا تقسه علىٰ شيء، لأنك تقع في التشبيه.

وعند أهل الحقيقة معناه بلسان المعاملة أن لا تجرّ قدمك عنه لأن ذلك علامة التعطيل، لأن ذلك علامة عدم وجدانه، وإذا لم تجده تكون معدومًا بالنسبة إليه، وهذا

---

(١) التجريد خلو قلب العبد وسره عما سوى الله، بمعنى أن يتجرد بظاهره عن الأعراض وبباطنه عن الأعواض وهو ألا يأخذ من عرض الدنيا شيئًا ولا يطلب عما ترك منها عوضًا من عاجل ولا آجل، بل يفعل ذلك لوجوب حق الله تعالىٰ لا لعلة غيره ولا لسبب سواه ويتجرد بسره عن ملاحظة المقامات التي يدخلها والأحوال التي ينازلها بمعنى السكون إليها والاعتناق لها.
المعجم الصوفي (ص٤٨)

وفهم السماع أن يسمع بحاله لا بالعلم فقط.

تعطيل، ولا تستأنس مع غيره فإنه علامة التشبيه، فمن ترك الطلب فقد تعطل، ومن سكن إلىٰ غيره فقد تشبه وأحسن منه أن يقال لا تترك الطلب ولا ترى الوجود بالطلب.

فإن ترك الطلب تعطيل، ورؤية الوجود بالطلب تشبيه ويحتمل أن يكون معناه أنه لا يطلب من التوحيد إلّا الواحد، فإن من لم يرد الواحد فقد تعطل، ومن أراد من الواحد غير الواحد فقد تشبه.

وأحسن منه أن يقال لا يرى في توحيده التوحيد، فإن من رأى أنه وحد فقد ألحد، ومن لم يوحد فقد كفر فلا بدّ من التوحيد أن يكون متبريًا من الكفر ولا بد من الإعراض عن رؤية التوحيد أن يكون متبريًا من الإلحاد.

ومعنى ذلك أن التوحيد صفة الموحد[1]، والموحد بهذه الصفة يكون موحدًا.

ومن رأى صفته لا يكون رائيًا للحق، بل يكون رائيًا لصفته، وما دام يرى صفته يكون محجوبًا عن الحق، لأن الحجاب عن الحق هو رؤية غيره.

والمحجوب عن الحق لا يكون موحدًا، وإذا شاهد الحق لا يبقى له مشاهدة غير الحق، فيرى في توحيده المؤحَّد لا المُوَحِّد ولا التوحيد.

ويحتمل أن يكون معناه أن يعلم أن الواحد لا يكون بتوحيده واحدًا، لأنه واحد قبل توحيده ومعه وبعده، بل الموحد يكون بتوحيده موحدًا، فتوحيد الموحد يرجع إليه والحق وراء كل توحيد موحد قائم بذاته موصوف بصفاته.

قوله: وفهم السماع أن يسمع بحاله لا بالعلم فقط، يريد أن بين الله وبين العبد في سره حالاً كل شيء يسمعه العبد فإنما يسمعه بذلك الحال لا بالعلم، أي لا ينظر إلىٰ الحرمة والإباحة اللتين هما بالعلم بل ينظر إلىٰ أن حال باطنه كيف يكون مع الله لأن كثيرًا

(١) أركان التوحيد سبعة: إفراد القدم عن الحدث وتنزيه القديم عن إدراك المحدث له، وترك التساوي بين النعوت، وإزالة العلة عن الربوبية، وإجلال الحق عن أن تجري قدرة الحدث عليه فتلونه، وتنزيهه عن التمييز والتأمل وتبرئته عن القياس، وللتوحيد مراتب علم وعين وحق وعلمه ما ظهر بالبرهان وعينه ما ثبت للوجدان وحقه ما اختص بالرحمن.
المعجم الصوفي (ص٦٠)

....

من السماع[١] يكون مباحًا بظاهر العلم فإذا لم يصح حال الباطن يصير حرامًا.

وكذا كثير من السماع يكون حرامًا بظاهر العلم ومع صحة حال الباطن يصير حلالًا، كما أن سماع القرآن مع الغفلة يصير معصية ومع الاستخفاف يصير كفرًا، وهو في نفسه مباح وقد يكون السماع ببيت مباحًا في أصل الشريعة ويصير معصية إذا كان يلهو، ويصير كفرًا إذا كان بتشبيه، ويصير توحيدًا إذا كان بمحبة وحال السر.

وروى أن الشبلي رحمة الله عليه مَرّ يومًا بموضع يغني فيه مغنٍ ويذكر بيتًا وهو:

كـل ذنـب لـك مـغـفـور سـوى الإعـراض عـنـي

فصاح وصعق، فإذا أفاق قيل له: من أين سمعته قال: من قول الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨].

وروى أيضًا أن رجلين من كبار هذه الطائفة كانا واقفين علىٰ طرف دجلة، فجاءت جارية بيدها كوز فأرادته وضربت يدها علىٰ أسفل الكوز وقالت هذا البيت:

سـبـحـان جـبـار الـسـمـاء إن الـمـحـب لـفـي عـنـاء

فصاحا ونعرا، وقال أحدهما: صدقت يا حبيبي وقال الآخر: كذبت يا حبيبي، وكلاهما صدقا، لأن أحدهما يرى في المحبة[٢] الحرقة والبلاء، وترك المراد والإعراض عن الكون.

---

(١) السماع في رأي الدقاق حرام للعوام لبقاء نفوسهم ومباح للزهاد لحصول مجاهداتهم ومستحب للصوفية لحياة قلوبهم، وفي رأي الجنيد: هو وارد حق يزعج القلوب إلىٰ الحق، فمن أصغى إليه بحق تحقق ومن أصغى إليه بنفس تزندق، وعند الشبلي: السماع ظاهره فتنة وباطنه عبره، فمن عرف الإشارة يحل له استماع العبرة وإلا فقد استدعى الفتنة.

المعجم الصوفي (ص١٢٨)

(٢) الحب الإلهي وراء حب العقلاء فإنه صفة قديمة قائمة بذاته تعالىٰ وصفته عين الذات فهي قائمة بنفسها لو حب العقلاء قائم بهم فيحبونه بحبه إياهم وذلك معنى قوله تعالى: ﴿فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤] وبداية المحبية والمحبوبية أمر مبهم لأن المحب لا يكون إلا بعد سابقيه جذب المحبوب إياه ولا يجذبه إلا لمحبته إياه فكل محبوب محب وكل محب محبوب.

المعجم الصوفي (ص٢٢٣)

وإيثار الإيثار هو أن يؤثر علىٰ نفسه غيره بالإيثار ليكون فضل الإيثار لغيره.
وسرعة الوجد أن لا يكون فارغ السر مما يثير الوجد[١]، ولا ممتلئ السر

فإذا شاهد هذه البلايا في تلك الحال فقال: صدقت ويرى الآخر ذوق الوصال والبِرّ وأنواع الطاف المحبوب، فإذا شاهدها حينئذ قال: كذبت.

فالبيت واحد صدقه واحد وكذبه آخر بحسب اختلاف حاليهما.

قوله: وإيثار الإيثار، هو أن يؤثر علىٰ نفسه غيره بالإيثار ليكون فضل الإيثار لغيره.

معنى الإيثار هو أن تقدم غيرك علىٰ نفسك في كل خير ديني أو دنياوي، وهذا هو علامة الشفقه علىٰ الخلق.

وأنت تنجو ببركة هذه الشفقة وتصل إلىٰ الدرجات العالية والمراتب الفائقة.

وأما معنى إيثار الإيثار، فهو أنك تريد أن تحسن إلىٰ أحد ويريد آخر أن يحسن إليه، فتقدمه علىٰ نفسك في الإحسان إلىٰ ذلك الأحد ليكون فضل الإيثار له لا لك.

ذلك فضل إيثار الإيثار.

قوله: وسرعة الوجد أن لا يكون فارغ السر مما يثير الوجد[٢].

---

(١) فرق بعض المشايخ بين الوجد والتواجد بقولهم: التواجد من الوجد بمنزلة التباكي من البكاء» ويروى عن سيد الطائفة الجنيد قوله: لا يضر نقصان الوجد مع فضل العلم، وفضل العلم أتم من فضل الوجد، ويقول القشيري في رسالته: الوجد يصادف قلبك ويرد عليك بلا تعمد وتكلف، ولهذا قال المشايخ الوجد المصادفة والمواجيد ثمرات الأوراد.
انظر اللمع للطوسي (ص٣٨١) والرسالة القشيرية (ص٨٥)

(٢) قال عمرو بن عثمان المكي: لا يقع علىٰ كيفية الوجد عبارة لأنه سر الله تعالىٰ عند المؤمنين الموقنين وحكي عن سهل التستري أنه قال: كل وجد لا يشهد له الكتاب والسنة فهو باطل، ومن أهمية الوجد في الفكر الصوفي ألف فيه أبو سعيد الأعرابي كتابًا سماه الوجد وقد لخصه الطوسي في كتابه اللمع.
وإذا زاد الوجد جاءت معه الغلبة.
انظر طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي (ص٢٠٢) والرسالة القشيرية (ص٨٥)

مما يمنع من سماع زواجر الحق.

والكشف عن الخواطر أن يبحث عن كل ما يخطر علىٰ سره فيتابع ما للحق ويدع ما ليس له.

ولا ممتلئ السر مما يمنع من سماع زواجر الحق يعني يدوم في سره ما يثير الوجد، ويؤثر منه الوجد من المشاهدة أو الخوف أو المحبة أو القرب، أو ما شابه ذلك.

وزواجر الحق عند هذه الطائفة ما يمنع العبد من الشر ويدعوه ويجره إلىٰ الخير.

مثل ما يظهر في سره، ويوصله من مقام الغفلة إلىٰ مقام الذكر.

أو من مقام المخالفة إلىٰ مقام الموافقة، وما يمنعه عن زواجر الحق، مثل حب الدنيا أو شهوات النفس أو تغلب عليه بحيث يمتلئ منه السرّ.

ولا يبقى لسماع زواجر الحق منه موضع فارغ.

قوله: والكشف عن الخواطر أن يبحث عن كل ما يخطر علىٰ سره، فيتابع ما للحق ويدع ما ليس له أن يتفحص عن كل ما يخطر ويرد علىٰ سره.

فإن دعاه إلىٰ تعظيم أمر الحق أو إقامة الشريعة أو إصلاح حال الغير يعلم أن ذلك الخاطر حق فيتابعه وإن دعاه إلىٰ هوى[1] النفس ومراداته فيتركه لئلا يقطعه عن الحق.

فإن أُشكل عليه يعرض علىٰ كتاب الله.

فإن لم يجد فيه، فعلى سنة رسول الله ﷺ.

فإن لم يجد فعلى قول الصحابة والسلف الصالح المعرض عن الدنيا،

---

(١) الهوى هو ميل القلب بالكلية إلىٰ وجهة المحبوب والإعراض عما سواه، وتجريد القصد له في كل حين وصرف الهمة إليه، وفي الهوى تستحكم المحبة وتشتد صورتها وينبسط سلطانها ويستولى لاعج الشوق ويجدده النظر إلىٰ الصور الجميلة والمحاسن الرائعة النبيلة والشمائل اللطيفة المعاني ولا يصح الاتصاف بالهوى إلا لمن خرج عن هواه وآثر طاعة حبيبه علىٰ ما سواه.
وطاعة الحق هي أعلى الطاعات وهي التي تخالف ميل النفس إلىٰ مقتضيات الطبع.
المعجم الصوفي (ص٢٥٣)

وكثرة الإسفار لشهور للاعتبار في الآفاق والأقطار قال الله تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [الروم: ٩].

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ [العنكبوت: ٢٠].

وقيل في قوله عز وجل: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١١].

قال: بضياء المعرفة لا بظلمة النكرة، ولقطع الأسباب ورياضة النفوس.

وترك الاكتساب لمطالبة النفوس بالتوكل، ....

والمشتغلين أغلب الأوقات بالنوافل وفعلهم.

وإن لم يجد فيهما تصريحًا به فيجتهد ويعمل بما أدى إليه اجتهاده.

وإن أشكل مع ذلك فإن مال نفسه إليه ورأى لنفسه نصيبًا فيه فيتركه وإلَّا يفعله.

وقد ورد في بعض الأخبار: أصل كل طاعة مخالفة النفس، وأصل كل معصية موافقة النفس.

قوله: قيل في قوله عز وجل: ﴿سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١١].

قال: بضياء المعرفة لا بظلمة النكرة.

يريد أن السفر[١] إما لطلب زيادة الدنيا أو لطلب زيادة الدين، فمن كان سفره لطلب زيادة الدين يكون سيره بضياء المعرفة، ومن كان سفره لزيادة الدنيا فسيره بظلمة النكرة.

وسفر هذه الطائفة يكون أيضًا لقطع الأسباب والعلائق من الأحباء والأقرباء والأوطان، وللقرب من مسببها.

قوله: وترك الاكتساب لمطالبة النفوس بالتوكل يريد أن العبد إذا اشتغل بالكسب

---

(١) سمي السفر لأنه يسفر عن أخلاق الرجال وليس من آداب الصوفية السفر للدوران والنظر إلىٰ البلدان وطلب الأرزاق ولكنهم يسافرون إلىٰ الحج والجهاد ولقاء الشيوخ وصلة الرحم ورد المظالم وطلب العلم أو إلىٰ مكان له فضل وشرف.

المعجم الصوفي (ص١٢٥)

وتحريم الادخار في حالة لا في واجب العلم كما قال النبي ﷺ في الذي يعتمد نفسه عليه ويقطع التوكل علىٰ الحق عنه.

فيتصور أن الرازق هو الكسب لا الحق.

فترك هذه الطائفة للكسب لهذا المعنى لا لأجل الكسالة وتحمل مشقة نفسه علىٰ الغير، فلو كان تركه للكسب لذلك أو لم يعتمد نفسه بتحمل مشقة الجوع[1] أو بخدمة الحق، وبمنعه عن الخدمة أو ترك الكسب يوجب زيادة الجاه له عند الخلق، فالكسب له أولى، وإن لم يجد في نفسه من هذه المعاني شيئًا، فترك الكسب له أفضل إلَّا أن يكون له بسببه جاه عند الخلق فيشتغل بالكسب تسترًا لا تكثرًا.

قوله: وتحريم الادخار في حالة لا في واجب العلم.

يريد أنهم يحرمون الإدخار لا لأنه حرام في العلم أي في الشريعة[2] لادخار النبي عليه الصلاة والسلام لعياله سنة، فلو كان حرامًا لما ادخر النبي عليه الصلاة والسلام بل لأن حال هذه الطائفة اختيار الفقر، وترك المراد وقهر النفس والإعراض عن غير الله وقطع الاعتماد عن غيره وعدم اتهام الحق، فمن وضع القدم في طريق هذه الطائفة ودخل فيه فقد ادعى المعاني المذكورة بالحال فيطالب تصديق الدعوى، لأنه يجب علىٰ المدعي تحقيق دعواه، ومخالفة الدعوى حرم عليه، فحرم حالهم الادخار لا الشريعة، ولذلك قال النبي عليه الصلاة والسلام فيمن مات من أهل الصفة وترك دينارًا

---

(١) الجوع عند الصوفية سر من أسرار الله لا يبذله لمن يفشيه ولذلك قالوا: لو كان الجوع يباع في الأسواق فإنه ما كان ينبغي لطلاب الآخرة أن يشتروا غيره ومن آدابهم في الجوع: أن الفقير لا يعانق الجوع إلَّا وقت الشبع حتى إذا جاع يكون الجوع أنيسه.
المعجم الصوفي (ص٦٩)

(٢) علم الشريعه هو علم الظاهر والباطن والظاهر هو عمل الجوارح والباطن عمل القلوب، ولا حقيقة بلا شريعة وكل علم عن طريق الكشف والإلقاء يأتي بحقيقة تخالف الشريعة المتواترة فإن ذلك العلم وذلك الكشف لا يعول عليهما وإذا كان علم الحقيقة يوافق الشريعة فهو صحيح.

المعجم الصوفي (ص١٣٤)

مات من أهل الصفة وترك دينارًا فقال رسول الله ﷺ «كية»[1].

فقال ﷺ: «كية»[2]، أي يكوي بذلك كيّة واحدة، وإنما أورد هذا الخبر لأجل أن الادخار وإن لم يكن حرامًا بحكم الشريعة لأن عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما جمعا المال وادخرا، ولم يعاتبا بذلك لأنهما لم يدَّعيا الفقر فجمعهما المال لا يخالف حالهما حتى عوتبا عليه، لكن لما ادعى أهل الصفة الفقر فوجب عليهم تصديق الدعوى.

والادخار يخالف دعوى إثبات الفقر، لأن الفقر هو الترك، فلذلك عوتب وعوقب به. وأصل هذه الطائفة أن يروا ما هو غير الحق محنة وبلاء فإن نعمتهم وراحتهم هو الحق لا غير، ومن لم يكن له قوة هذا المعنى، فالأحسن له أن لا يدعيه ولا يضع قدمه فيه، بل يعيش بالسلامة في كنف حكم الشريعة[3].

* * *

(١) أخرجه: الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٢٤٠)، والتبريزي في مشكاة المصابيح (٥٢٠٢)، والسيوطي في الدر المنثور (٥/ ١٤٨)، والقرطبي في تفسيره (٨/ ١٣١)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٣/ ٣٧٢).

(٢) تقدم تخريجه من قبل. وروى مسلم في صحيحه كتاب الزكاة، حديث رقم (١٢٥) عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال: **«قد أفلح من أسلم ورزق كفافًا وقنعه الله بما آتاه»**.

قال النووي: الكفاف الكفاية بلا زيادة ولا نقص وفيه فضيلة هذه الأوصاف وقد يحتج به لمذهب من يقول الكفاف أفضل من الفقر ومن الغنى، وفي حديث رقم (١٢٦) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: اللهم اجعل رزق آل محمد قوتًا» . قال النووي: فيه فضيلة التقلل من الدنيا والاقتصار على القوت منها والدعاء بذلك.

شرح مسلم للنووي (٧/ ١٣٠) طبعة دار الكتب العلمية

(٣) روى مسلم في صحيحه كتاب الزكاة، حديث رقم (١٢٣) عن أبي سعيد الخدري قال: جلس رسول الله ﷺ على المنبر وجلسنا حوله فقال: إن مما أخاف عليكم بعدي ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها» . . . الحديث.

قال النووي: قال الأزهري: فيه مثلان: أحدهما: للمكثر من الجمع المانع من الحق وإليه الإشارة بقوله ﷺ: **«إن مما ينبت الربيع ما يقتل»** لأن الربيع ينبت أجرار البقول فتستكثر منه الدابة حتى تهلك.

والثاني: للمقتصد وإليه الإشارة بقوله ﷺ: إلا آكلة الخضر، لأن الخضر ليس من أجرار البقول وقال القاضي عياض: ضرب ﷺ لهم مثلًا بحالتي المقتصد والمكثر.

شرح مسلم للنووي (٧/ ١٢٨) طبعة دار الكتب العلمية

الباب الثالث والثلاثون
في الكشف عن الخواطر[1]

قال بعض الشيوخ: الخاطر علىٰ أربعة أوجه، خاطر من الله عز وجل، وخاطر من الملك، وخاطر من النفس، وخاطر من العدو، ....

قوله: الخاطر علىٰ أربعة أوجه، خاطر من الله، وخاطر من الملك وخاطر من النفس وخاطر من الشيطان.

إنما ذكر هذا التقسيم للفرق بين الخواطر، فما هو من الله والملك مقبول.

وما هو من النفس والشيطان مردود، وجعل خاطر الحق بينهما، فإن للباطن نومًا ويقظة كما أن للظاهر كذلك. وكما أن النوم بحسب الظاهر يقتضي عزل الحواس عن الولاية، فلا يسمع ولا يبصر، وكذا سائر الحواس وإذا انتبه من النوم يسمع ويبصر، وكذا باقيها.

وفاعل ذلك هو الحق، فكذا نوم الباطن وانتباهه، فإن نومه يقتضي غفلته[2] عن الاعتبار والاتّعاظ وعن الحق.

ولهذا المعنى قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**نبهنا عن نومة الغافلين**».

(١) الخاطر تحريك السر لا بداية له، وإذا خطر بالقلب فلا يثبت فيزول بخاطر آخر مثله ويقال: إن الخاطر الصحيح أول الخاطر، أي أول ما يخطر، ومعنى الخاطر أيضًا ما لا يكون للعبد نسبة في ظهوره في الأسرار، والخاطر أيضًا قهر يستوعب الأسرار، وقيل: الخاطر ما يرد علىٰ القلب والضمير من الخطاب، ربانيًا كان أو ملكيًا أو نفسيًا أو شيطانيًا من غير إقامة، وقد يكون كل وارد لا تعمل لك فيه.

المعجم الصوفي (ص٨٦)

(٢) النوم علىٰ أقسام: نوم غفلة ونوم عادة وذلك أي نوم الغفلة غير محمود بل هو معلول لأنه أخو الموت. وقيل: لو كان في النوم خير لكان في الجنة نوم.

وقيل لما ألقى الله علىٰ آدم النوم في الجنة أخرج منه حواء، وكل بلاء إنما حصل حين حصلت حواء.

المعجم الصوفي (ص٢٤٩)

فالذي من الله تنبيه، والذي من الملك حث على الطاعة، والذي من النفس مطالبة الشهوة .والذي من العدو تزيين المعصية، ....

وانتباهه هو أن ينظر في الآيات والدلائل ويعتبر بها، ويشتغل سره بالله.

قال: **فالذي من الله تنبيه**، أي تنبيه عن نومه الغفلة لئلا يموت، فإن الله تعالىٰ لما علم أن القلب ينام بالغفلة ويصير محجوبًا عنه ضرب خاطرًا علىٰ رأسه ليمنعه عن النوم[(١)] لأنه إذا دام النوم يكون نهايته الموت، **والذي من الملك حث على الطاعة**، لأن سبيله الطاعة لقوله تعالىٰ: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾، وإذا كان سبيلهم يدعون الخلائق إلىٰ ما يكون لهم وهو الطاعة، **والذي من النفس مطالبة الشهوة**، لأن خلعة النفس وجبلتها علىٰ الشهوة، حتى لو أعطى النفس مراداتها في الدنيا حرم عليها المرادات الأخروية.

ولو ترك مراداتها في الدنيا يكون لها المرادات الأخروية جزاء لما تركته لقوله تعالىٰ: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ﴾.

والمكافأة في العقبى شيئان:

أحدهما: مكافأة النفس وهو نعيم الجنة.

وثانيهما: مكافأة السرّ وهو رؤية الحق.

والذي من العدو، أي الشيطان **تزيين المعصية** لقوله تعالىٰ: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمَّد: ٢٥]، أي زين لهم والله أملى لهم.

وقوله عليه الصلاة والسلام: «**بُعث إبليس مزينًا وليس إليه من الإضلال شيء**».

---

(١) قال الشبلي: من نام غفل، ومن غفل حجب، وقيل: المريد أكله فاقة ونومه غلبة، وكلامه ضرورة وقبل: نوم المريدين والطالبين نوم الغرقى لأنهم ينامون من غلبة، أما الواصلون فإن نفوسهم يزعجها صدق عزيمتهم فلا تسترسل في الاستقرار، وهو التجافي الذي يقول فيه الله تعالىٰ: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ [السَّجدَة: ١٦] ثم إن للناس نظرين: نظر إلىٰ تحت لاستيفاء الأقسام البدينة ونظر إلىٰ فوق لاستيفاء الأقسام العلوية الرحمانية.

المعجم الصوفي (ص٢٤٩)

فبنور التوحيد يقبل من الله، وبنور المعرفة يقبل من الملك، وبنور الإيمان ينهى النفس، ....

وإنما جاء تزيين المعصية من الشيطان، لأنه صار في عينه مزينًا.

كما قال الشيطان: أنا خير[1]، وبسببه صار هالكًا ولما كان سبيله التزيين يدعو الخلق إليه.

ثم بين في الكتاب أن كل خاطر منها بأي معنى فما هو من الله يقبل بنور التوحيد، لأن التوحيد هو أن لا يرى إلّا واحدًا، وإنما يكون بتأييد الحق.

فمدد نور التوحيد ونظره لا يكون إلَّا من جهة الحق وإذا كان كذلك، فالخاطر الذي من الله يقبله بنور التوحيد.

وما هو من الملك يقبل بنور المعرفة، لأن ثمرة المعرفة هو أن يعرف ما له وعليه، فيأخذ ما له ويترك ما عليه.

وهذه صفة الملائكة، فيريه الملائكة أن لا سبيل للعبد إلَّا لزوم الطاعة.

فبنور المعرفة يقبل منهم ذلك الخاطر.

وما هو من النفس ينهاه بنور الإيمان، لأن الإيمان قيد للمؤمن، والكفر إطلاق للكافر فالمؤمن في الدنيا مقيد به.

وفي الأخرى مطلق لقوله تعالى: ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ [النَّازعات: ٤٠]، ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ﴾ [الزّخرُف: ٧١].

---

(١) وذلك في قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾.
قال ابن كثير: قول إبليس لعنه الله ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ [الأعرَاف: ١٢] من العذر الذي هو أكبر من الذنب كأنه امتنع من الطاعة لأنه لا يؤمر الفاضل بالسجود للمفضول يعني لعنه الله وأنا خير منه فكيف تأمرني بالسجود له ثم بين أنه خير منه بأنه خلق من نار، والنار أشرف مما خلقته منه وهو الطين فنظر اللعين إلىٰ أصل العنصر ولم ينظر إلىٰ التشريف العظيم وهو أن الله تعالىٰ خلق آدم بيده ونفخ فيه من روحه وقاس قياسًا فاسدًا.

تفسير ابن كثير (٢/ ٢٠٨)

وبنور الإسلام يرد على العدو.

والكافر في الدنيا مطلق وفي الآخرة مقيد، لأن الدنيا جنة الكافر[١] والأخرى سجنه.

وما هو من العدو يرده بنور الإسلام، لأن الإسلام هو الانقياد للحق، فمن هو أشد انقيادًا له فأشد تحققًا في الإسلام وصفة الشيطان الطغيان، وعدم الانقياد للحق.

فالخاطر الذي منه يدعوه إلى ما يخرجه عن الإسلام فبالنظر إلى الإسلام وبنوره يرد ذلك الخاطر.

❊ ❊ ❊

(١) حديث: «**الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر**».

رواه مسلم في صحيحه كتاب الزهد، حديث رقم (١)، والترمذي (٢٣٢٤)، وابن ماجة (٤١١٣)، وأحمد في مسنده (٢/ ١٩٧)، والحاكم في المستدرك (٣/ ٦٠٤، ٤/ ٣١٥)، والطبراني في المعجم الكبير (٦/ ٢٨٩).

قال النووي: معناه أن كل مؤمن مسجون ممنوع في الدنيا من الشهوات المحرمة والمكروهة مكلف بفعل الطاعات الشاقة فإذا مات استراح من هذا وانقلب إلى ما أعد الله تعالى له من النعيم الدائم والراحة الخالصة من النقصان، وأما الكافر فإنما له من ذلك ما حصل في الدنيا مع قلته وتكديره بالمنغصات فإذا مات صار إلى العذاب الدائم وشقاء الأبد.

شرح مسلم للنووي (١٨/ ٧٤) طبعة دار الكتب العلمية

الباب الرابع والثلاثون
في التصوف[1] والاسترسال

قال الجنيد: التصوف حفظ الأوقات، قال: وهو أن لا يطالع العبد غير حده، ولا يوافق غير ربه ولا يقارن غير وقته.

وقال ابن عطاء: التصوف الاسترسال مع الحق.

قوله: وهو أن لا يطالع العبد غير حدِّه.

وحده هو لزوم العبودية فلا يتجاوز عنها.

قوله: ولا يوافق غير ربه.

يعني يقف حيث يكون رضاه ويهرب عما لا يكون فيه رضاه، أو يكون معناه يترك العبد اختياره، ويقف مع اختيار الرب، والمعنى الأعلى أن يقف سره علىٰ الحق، فلا يشغله بغيره ولا يتجاوز عنه، فإن الحق نهاية كل شيء، وليس وراء الحق نهاية كما قال الله تعالىٰ في حق النبي عليه الصلاة والسلام: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾ [النجم: ١٧].

أي ما زاغ عن المولى وما طغى إلىٰ غير المولى.

قوله: ولا يقارن غير وقته.

أما بالظاهر فبالخدمة، وأما بالباطن فبالمشاهدة أي ولا يجعل العبد غير وقته قرينًا له.

قوله: التصوف الاسترسال مع الحق[2].

أي حيث قاده الحق انقاد له.

---

(١) قال الشبلي: التصوف ضبط حواسك ومراعاة أنفاسك وقال أيضًا: الصوفي في كل عهد موفٍ، وقال الصوفي الذي لا يرى في الدارين من الله غيره، وقال: هو المنقطع عن الخلق غير متصل بالحق، وقال: هو الذي لا يملك شيئًا ولا يملكه شيء، وقال: الصوفية أطفال في حجر الحق.

(٢) ذكر الشارح أنها: فعلهم في رسومهم.



قال أبو يعقوب السوسي: الصوفي هو الذي لا يزعجه سلب ولا يتعبه طلب.

قيل للجنيد: ما التصوف؟ قال: لحوق السر بالحق ولا ينال ذلك إلّا بغناء النفس عن الأسباب لقوة الروح، والقيام مع الحق.

وسئل الشبلي: لم سميت الصوفيه صوفية؟

قال: لأنها ارتسمت بوجود الرسم وإثبات الوصف، لو ارتسمت ....

قوله: الصوفي[1] **هو الذي لا يزعجه سلب ولا يتعبه طلب.**

يعني لو أخذ منه شيء في الصحة والمال والأهل لا يضطرب ولا يزعجه عما كان هو عليه، ولو لم يعط شيئًا لا يتعب نفسه في طلبه.

قوله: لحوق السر بالحق، وذلك إنما يكون بترك ما دون الحق ومتابعة الحق لأن اللاحق بشيء تابع له، والتابع بحكم المتبوع.

ولا ينال لحوق السرّ بالحق إلّا بغناء النفس عن الأسباب، وهو أن لا يعتمد عليها بل يعتمد علىٰ مسببها، وهو الحق، وذلك الغناء يحصل بقوة الروح بأن يجعله غالبًا علىٰ النفس فينهزم ظلمة النفس مع نور الروح وبالقيام مع الحق، وهو أن ينقطع عن غيره.

ويثبت معه ولا يتجاوز عنه لقوله تعالىٰ: «**فماذا بعد الحق إلّا الضلال**».

وإذا قام مع الحق فأمن من الهلاك والفناء.

وهذا هو لحوق السر بالحق.

قوله: لأنها ارتسمت بوجود الرسم، وإثبات الوصف.

يعني الصوفية طائفة ارتسمت بوجود رسم الظاهر وبإثبات وصف الباطن، أي

---

(١) قال أبو علي الروذباري: الصوفي من رمي الحركات بالأفكار، وسكن عن مجاري الأقدار ولم يتناول الرفق إلا بمقدار.

وسئل الحلاج عن التصوف وهو مصلوب فقال: أهونه ما ترى، وقال أيضًا: الصوفي الذي لا يقبله أحد ولا يقبل أحدًا.

انظر تهذيب الأسرار لعبد الملك النيسابوري (ص٢٩)

بمحو الرسم لم يكن إلّا مرسم الرسم.

ومثبت الوصف أحالهم على[1] رسومهم، وأنكر أن يكون للمتحقق رسم أو وصف.

هم طائفة جمعوا بين رسم[2] الظاهر ووصف الباطن هذا إذا لم يتحقق بالحقيقة، وأما إذا ارتسم بمحو الرسم بأن لا يرى الرسم والوصف لنفسه. وتحقق بالحقيقة فهو مرسم الرسم ومثبت الوصف أي مظهرهما، لأن مظهرهما هو الحقيقة، فإذا تحقق بها يتصف بصفة الحقيقة، بأن يكون مظهرًا لهما.

قال صاحب الكتاب: أعلهم في رسومهم.

أي جعل الشبلي الصوفية معلولة في رسومهم لأنه إنما جعلهم صوفية لارتسامهم بما ذكر.

فكونهم صوفية معلول للارتسام ذكور.

وأنكر الشبلي أن يكون للمتحقق[3] بالحقيقة رسم أو وصف، لأن من مشى علىٰ رسم أو وصف يكون سرّه مشغولًا بمحافظة ذلك الرسم والوصف.

---

(١) قال أبو رويم: التصوف مبني علىٰ ثلاث خصال: التمسك بالفقر، والافتقار، والتحقق بالبذل والإيثار، وترك التعرض والاختيار.

المعجم الصوفي (ص٥٢)

التصوف هو التخلق بالأخلاق الإلهية وبالوقوف مع الآداب الشرعية، ظاهرًا فيرى حكمها من الظواهر في الباطن وباطنًا فيرى حكمها من الباطن في الظاهر فيحصل للتأدب بالحكمين كمال.

المعجم الصوفي (ص٥١)

(٢) التصوف مذهب كله جد يقوم علىٰ عشرة أركان: أولها تجريد التوحيد، ثم فهم السماع، وحسن العشرة وإيثار الإيثار، وترك الاختيار، وسرعة الوجد، والكشف عن الخواطر، وكثرة الأسفار، وترك الاكتساب، وتحريم الادخار.

المعجم الصوفي (ص٥١)

(٣) التحقق وقوف القلب بدوام الانتصاب بين يدي من آمن به، والتحقيق: هو الحق في صور الأسماء الإلهية وقيل هو تكلف العبد لاستدعاء الحقيقة جهده.

المعجم الصوفي (ص٤٩)

قال أبو يزيد: الصوفية أطفال في حجر الحق.

قال أبو عبد الله النباجي: مثل التصوف مثل علة البرسام في أولها هذيان، فإذا تمكنت أخرست يعني أنه يعبر عن مقامه وينطق بعلم حاله، ....

والمتحقق بالحقيقة لا يكون سره إلّا مشتغلًا بالحق قوله: أعلهم في رسومهم.

كأنه إنكار علىٰ الشبلي رحمه الله بأن جعل للتصوف علة، فإن التصوف لا يكون له علة[1]، لأن العلة والرسم وضع تمشي عليها، وليس للصوفي رسم يمشي عليه.

(قال أبو يزيد: الصوفية أطفال في حجر الحق)[2].

واعلم أن الشبلي رحمة الله عليه جعل الصوفي معلولًا في رسمه باعتبار عدم تحققه بالحقيقة.

وبعد تحققه بها لا يكون له رسم ولا وصف.

وكلاهما صوفي، والثاني أرفع حالًا وأعلى منزلة من الأول.

قوله: مثل التصوف مثل علة البرسام في أولها هذيان، فإذا تمكنت أخرست.

علة البرسام علة توجب إفساد الدماغ، ويتولد منه فساد العقل وتشوشه فإذا شوش العقل يهذي إذ لا يرى العقل حينئذ علىٰ وجه الاستقامة فيخبر عن الوجه يراه، فإذا تمكنت تلك العلة وقويت أخرست أو أصمّت أو يحق بها، واستمر جنونه أو قتلته، وهذا هو صفة البرسام، فكل من دخل في التصوف يكون له الرؤيا والواقعة إلىٰ أن يتحقق بمقام الحقيقة، فمتى لم يتحقق بمقام الحقيقة ويخبر عما يراه يختلف ويختلط معنى كلامَه، فتارة يضحك، وتارة يبكي، وأخرى يعربد.

---

(١) العلة تنبيه الحق لعبده بسبب أو بغير سبب، وقيل: العلة كناية عن بعض ما لم يكن فكان، قال ذو النون علىٰ كل شيء صنعه ولا علة لصنعه، يعني أن وجود النقصان في كل شيء مصنوع كائن لأنه لم يكن فكان وليس في صنع الصانع لمصنوعاته علة، وفي نفس المعنى يقول الشبلي في صفة الخلق: إن الذل كائنهم والعلة كونهم.

المعجم الصوفي (ص١٧٧)

(٢) وجدناه بالهامش.

فإذا كوشف تحير وسكت[١].

وسمعت فارسًا يقول: متى تظاهر فيّ خواطر الهجوس على دواعي ملمات النفوس، وجد السبيل إلىٰ ترجيح الأولى فيقع النشر.

مثل هذيان المبرسم[٢]، ولو لم يصل ما يراه إلىٰ كمال الحقيقة يسكن تلك الحال عليه، ويرجع إلىٰ صفة أصحاب الظاهر.

ولو صارت تلك الحال حقيقة لصار أعمى حتى لا يرى إلَّا الحق.

أو صار أصم حتى لا يسمع إلَّا خطاب الحق أو صار أخرس حتى لا يتكلم إلَّا مع الحق أو يصير مسلوب الوصف كالمجانين حتى لا يستأنس إلَّا مع الحق أو يصير فاني الصفات كالموتى فهو سميع أصم بصير أعمى ناطق أخرس، عاقل مجنون حيّ ميت.

قوله: فإذا كوشف تحير وسكت.

أي فإذا كوشف بحقيقة الحق[٣] يضل حاله ومقامه فتحير وسكت إذ لا مجال للعبارة مع تحقق المشاهدة.

قوله: متى تظاهر فيّ خواطر الهجوس علىٰ دواعي ملمات النفوس وجد السبيل إلىٰ ترجيح الأولى فيقع النشر.

الهاجس هو الخاطر النفساني، وملمات النفوس أمور عظيمة يعرض لها يعني

---

(١) الرمز في التصوف معنى باطن تحت الكلام الظاهر لا يدركه إلَّا أهل الطريق، وقال بعضهم: من أراد أن يقف علىٰ رموز مشايخنا فلينظر في مكاتباتهم ومراسلاتهم فإن رموزهم فيها لا في مصنفاتهم.

المعجم الصوفي (ص١١٠)

(٢) البرسام ذات الجنب - أي أصابته ذات الجنب وهو التهاب في الغشاء المحيط بالرئة.

(٣) قيل: الفرق بين الحق والحقيقة أن الحق هو الذات، والحقيقة هي الصفات، فالحق اسم الذات والحقيقة اسم الصفات ذلك لأن المريد إذا ترك الدنيا وتجاوز عن حدود النفس والهوى ودخل في عالم الإحسان فإنهم يقولون إنه دخل في عالم الحقيقة ووصل إلىٰ مقام الحقائق وإن كان قد بعد عن عالم الصفات والأسماء فإذا وصل إلىٰ نور الذات يقولون إنه وصل إلىٰ الحق وصار شيخًا لائقًا للاقتداء به.

المعجم الصوفي (ص٧٩)

وأما الوصلة فإنها تحجب مواد الإملاء فيكون المرجع إلىٰ الخرس عن كل نفس.

متى غلب في الخواطر النفسانية علىٰ دواعي الأمور العظيمة التي تعرض للنفس وجد السبيل إلىٰ ترجيح ما هو الأولى، فينبسط بالعبارة يريد أن من عبّر باللسان ونشر وقته إنما يكون من جهة أنه تبقى معه بقية من بقايا النفس.

وأما الوصلة فإنها تحجب مود الإملاء فيكون المرجع إلىٰ الخرس عن كل نفس.

يريد أن النشر والعبارة إنما يكون إذا بقيت بقية من بقايا النفس، فإذا فنيت النفس لم يبق النشر والعبارة، لأن عند فناء النفس[1] يحصل الوصلة والمشاهدة وتلك تمنع مواد إملاء النفس التي يكون منها اضطرابها وهو استرسالها ليقول ويفعل ما يشاء.

فإذا منعت مواد إملائها وقطعت عنها فيكون مرجعه عن كل نفس إلىٰ الخرس، لأن السرّ إذا اتصل بالحق حتى لا يرى غيره فتغيب النفس عنه بحيث لا يكون له خبر عن أحد، وإذا لم يكن له خبر يكون شأنه الخرس.

وبالجملة مهما بقى شيء من الأمور النفسانية في العبد لا يكون له مع الحق اتصال، وإذا صار المقام مقام اتصال ومشاهدة ويزيد فائدته نفسًا فنفسًا.

وزوائد الحق ليس لها انقطاع فما يظهر في السرّ في كل نفس فقبل أن يخبر بذلك في النفس الثاني يظهر في السرّ فوق ما ظهر في السرّ في النفس الأول وأحسن منه، فكذا في كل نفس يظهر في السرّ فيه أحسن ما ظهر فيه في نفس قبله فيزيد ذلك علىٰ الدوام نفسًا فنفسًا فلا يجد نفسًا يخبر بذلك فيه فيصير أخرس.

---

(١) قال في لطائف المنن (ص٤٥): إن لله عبادًا محوا أفعالهم بأفعاله وأوصافهم بأوصافه وذواتهم بذواته وحملهم من أسرارهم ما يعجز عامة الأولياء عن سماعه وهم الذين غرقوا في بحر الذات وتيار الصفات فهي إذًا فناءات ثلاث: أن يفنيك عن أفعالك بأفعاله وعن أوصافك بأوصافه وعن ذاتك بذاته، فإذا أفناك عنك أبقاك به فالفناء دهليز البقاء وقد قال قائلهم:

وقوم تاهوا في أرض بقفر ... وقوم تاهوا في ميدان حبه

فأفنوا ثم أفنوا ثم أفنوا ... وأبقوا بالبقاء من قرب قربه

لطائف المنن لابن عطاء نقلاً عن الشيخ أبي العباس المرسي (ص٤٥)

سئل النوري عن التصوف فقال: نشر مقام واتصال بقوام.

قيل له: فما أخلاقهم؟ قال: إدخال السرور علىٰ غيرهم، والإعراض عن أذاهم. قال الله تعالىٰ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف: ١٩٩].

معنى نشر مقام هو أن يعبر عن حاله إذا عبر، لا عن حال غيره بلسان العلم.

ومعنى اتصال بقوام، هو أن يحمله حاله في حاله عن حال غيره.

وأيضًا مقام الوصلة والمشاهدة مقام المغلوب والمغلوب في النفس الأول يصير أخرس وفي النفس الثاني إذا ظهر أزيد مما قبله يصير أشدَّ خرسًا.

فمهما زادت المشاهدات زاد خرس الظاهر.

قوله: نشر مقام واتصال بقوام.

معنى نشر المقام أن يعبر عن حاله بلسان العلم[(١)] إذا عبّر لا عن حال غيره، لأن حال غيرك لا يغني عنك شيئًا.

ومعنى اتصال بقوام هو أن يتصل السرّ بالحق بحيث يقوم به قيام الظاهر بالطعام والشراب، وذلك بأن يظهر فيه حال يصير فيها محمولًا لتلك الحال بحيث لا يتفرغ بحال غيره.

يعني يكون له علىٰ الدوام مع الحق حال لا يكون معها احتياج إلىٰ حال غيره.

وروي في المعنى المذكور بيتان من النوري وهما:

---

(١) اللسان معناه البيان عن علم الحقائق، ولسان العلم ما تأدى إلينا بواسطة ولسان الحقيقة ما تأدى إلينا بلا واسطة، ولسان الحق ما ليس للخلق إليه طريق، يقول الجيلي: لسان الحق هو الإنسان الكامل وقال غيره: ولسان الحق هو الإنسان المتحقق بمظهرية الاسم المتكلم أو الإنسان الكامل.

المعجم الصوفي (ص٢١٢)

وأنشدونا للنوري:

أزعجتني عن نعوت الحال بالحال وكيف ينعت من لا قال بالقال
ما كل من يدّعي حالاً تصدقه حتى يترجم عنه صاحب الحال

ونريد أن نخبر الآن ببعض المقامات علىٰ لسان القوم من غير بسط كراهة الإطالة.

ونحكى من مقالات المشايخ فيها ما قرب منها إلىٰ الأفهام دون الرموز[1] الخفية والإشارات الدقيقة ونبدأ بالتوبة.

أزعجتني عن نعوت[2] الحال بالحال وكيف ينعت من لا قال بالقال
ما كل من يدّعي حالاً تصدقه حتى يترجم عنه صاحب الحال

يريد أنك شغلتني بك بحيث لا أقدر أن أنعت الحال بالحال، لأن من صار حاله صفته لا يحتاج إلىٰ نعته مثل الخوف إذا صار حالًا في الباطن يظهر صفاته علىٰ الظاهر بحيث يفنى عن العبارة بأن يقول أنا خائف وكذا المحبة والشوق وغير ذلك من الأحوال، فإن كل من يدعي حالًا باللسان نصدقه فيه حتى يترجم عن ذلك الحال صاحب الحال، أي مدعيه، وترجمته عنه بأن يستقيم باطنه مع ظاهره فيترجم ظاهره عما في باطنه، فيكون حينئذ صادقًا.

❊ ❊ ❊

---

(١) الرسم هو الخلق وصفاته لأن الرسوم هي الآثار وكل ما سوى الله آثاره الناشئة من أفعاله، وإياه عنى من قال: الرسم نعتي يجري في الأبد بما جرى في الأزل فالرسم هو ما رسم به ظاهر الخلق أو هو الظاهر المتحقق.

المعجم الصوفي (ص١٠٧)، (ص١٠٨)

(٢) يحتمل أن يكون النعت والوصف بمعنى واحد إلّا أن الوصف يكون مجملًا، والنعت يكون مبسوطًا فإذا وصف جمع، وإذا نعت فرق، والذات هي الشيء القائم بنفسه والاسم والنعت والصفة معالم للذات فلا يكون الاسم والنعت والصفة إلا لذي ذات ولا يكون ذو ذات إلا مسمى منعوتًا موصوفًا وذلك أن القادر اسم من أسماء الله تعالى، والقدرة صفة من صفات الله تعالى، والتقدير نعت من نعوت الله تعالىٰ.

المعجم الصوفي (ص٢٤٥)

الباب الخامس والثلاثون
قولهم في التوبة[1]

سئل الجنيد بن محمد عن التوبة ما هي؟ فقال: هو نسيان ذنبك.

وسئل سهل عن التوبة فقال: هو أن لا تنسى ذنبك فمعنى قول الجنيد أن تخرج حلاوة ذلك الفعل من قلبك خروجًا لا يبقى له في سرك أثر حتى تكون بمنزلة من لا يعرف ذلك قط.

وقال رويم: معنى التوبة أن تتوب من التوبة معناه ما قالت رابعة: أستغفر الله من قلة صدقي في قولي، أستغفر الله.

سئل الحسين المغازلي عن التوبة فقال: تسألني عن توبة الإنابة أو توبة الاستجابة؟ فقال السائل: ما توبة الإنابة[2]؟

قوله في التوبة

هو أن تنسى ذنبك، بل تستغفر كل العمر له وتشتغل بعذره إلىٰ الموت.

قوله: من قلة صدقي في قولي استغفر الله.

يريد أن الاستغفار الظاهر لا بدّ من صدق المعاملة ليكون الاستغفار بالحقيقة

---

(١) التوبة أول مقام من مقامات الانقطاع إلىٰ الله وصفها السري السقطي فقال: هي أن لا تنسى ذنبك وقال الجنيد: هي أن تنسى ذنبك ولا تناقض بين العبارتين فإنها بالمعنى الأول في حق المبتدئ وبالمعنى الثاني في حق المنتهي الكامل، فإن العبد إذا بلغ النهاية ينبغي له أن ينسى ذنوبه، لأن ذكر الجفاء في حالة الوفاء جفاء وقال الثوري يصف التوبة: هي أن تتوب عن كل شيء سوى الله تعالى، وقال رويم: التوبة هي أن تتوب عن التوبة.

المعجم الصوفي (ص٥٩)

(٢) الإنابة هي الرجوع من الغفلة إلىٰ الذكر، وقيل الرجوع إلىٰ الله من كل شيء، والمنيب من لم يكن له مرجع سواه فيرجع إليه من رجوعه ثم يرجع من رجوع رجوعه فيبقى لا وصف له قائمًا بين يدي الحق تعالىٰ مستغرقًا في عين الجمع.

المعجم الصوفي (ص٣٤)

قال: أن تخاف من الله من أجل قدرته عليك.

قال: فما توبة الاستجابة؟

قال: أن تستحي من الله لقربه منك.

قال ذو النون: توبة العام من الذنب، وتوبة الخاص من الغفلة، وتوبة الأنبياء من رؤية عجزهم عن بلوغ ما ناله غيرهم.

استغفارًا، وصدق المعاملة في الاستغفار عن الذنب أن يخرج همته عن سرّه، وصدق معاملة التوبة ترك الإعادة ويحتمل أن يكون معنى التوبة عن التوبة أن التوبة طاعة، والذي يتوب عنه معصية، فيرى المعصية ولا يرى التوبة عنها لأن رؤية التوبة اعتماد علىٰ فعله وهو معصية فيتوب عن رؤيتها لا عن فعلها فيكون مغفورًا برؤية المعصية والتوبة مقبولة بعدم رؤيتها.

قوله: أن تخاف من الله من أجل قدرته عليك فتقف عن الذنب من خوف عذاب الله.

قوله: أن تستحي من الله لقربه منك كما تستحي من قريب آخر هو أبعد منك من الله، فيكون الاستحياء من الله أكثر من غيره.

ويحتمل أن يكون معنى الاستحياء[1] من الله أن لا تتفكر خلاف الحق، فيكون معنى الخوف من الله أن لا يفعل الذنب.

قوله: وتوبة الخاص من الغفلة.

هو أنه متى اشتغل سره بغير الحق طرفة عين يكون بذلك المقدار غافلًا عن الحق فيتوب عن ذلك ويرجع عن مقام الإعراض إلىٰ مقام الإقبال.

وتوبة الأنبياء من رؤية عجزهم عن بلوغ ما ناله غيرهم، وهو موافق لقوله عليه

---

(١) الحياء انقباض النفس من شيء وتركه حذرًا من اللوم فيه، والحياء الإيماني يمنع المؤمن من فعل المعاصي خوفًا من الله تعالى، وهو بخلاف الحياء النفساني الذي خلقه في النفوس كلها كالحياء من كشف العورة.

وقال ذو النون: الحياء وجود الهيبة في القلب مع حشمة ما سبق منك إلىٰ ربك.
المعجم الصوفي (ص٨٣)

وقال النوري: التوبة أن تتوب عن ذكر كل شيء سوى الله جل وعز[(١)].

وقال إبراهيم الدقاق: التوبة أن تكون لله وجهًا بلا قفا كما كنت له قفا بلا وجه.

الصلاة والسلام: «**إني لأستغفر الله في كل يوم مائة مرة**»، وهو أنه عليه الصلاة والسلام إذا قصد أداء حق الله على قدر الطاقة وأدّاه، ينظر في معاملته فلا يراها لائقًا وجديرًا لحضرته تعالىٰ فيعتذر عن عجزه وتقصيره، فيقصد ليفعل أحسن ممّا فعله أولاً، فإذا فعله يرى نفسه أيضًا مقصرة فيما فعله، فاشتغل بعذره فيكون حاله متزايدًا على الدوام ويشتغل بالعذر.

قوله: أن تتوب من ذكر كل شيء سوى الله.

لأن ذكر ما سوى الله سواء كان باللسان أو بالقلب يوجب ترك ذكر الله[(٢)]، وترك ذكر الله هو الإعراض عن الله، فإن فعل المعصية هو الإعراض عن الحق.

والإعراض عن الحق سيئة، فيتوب عنه كذلك.

قوله: بلا قفا.

أي بلا إعراض عن الله، فإن فعل المعصية هو الإعراض بالسرّ عن الله.

قوله: كما كنت له قفا بلا وجه.

أي كما كنت في حال فعل المعصية قفا بلا وجه، أي معرضًا عن الله بالسرّ ولا يكون مقبلًا عليه فكان قفا السرّ إلىٰ الله ووجهه إلىٰ غيره.

❊ ❊ ❊

---

(١) قيل التوبة صفة عامة المؤمنين، قال الله تعالىٰ ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [النور: ٣١]، وقيل توبة المحسنين من الذنب، وتوبة أهل المقام الشهادة من خاطر المعصية وتوبة أهل مقام الصديقية من أن يخطر غير الله تعالىٰ في البال، وتوبة المقربين من الدخول تحت حكم الحال فلا تملكهم الأحوال.

المعجم الصوفي (ص٥٩)

(٢) قال القاضي عياض: الذكر ضربان: ذكر بالقلب وذكر باللسان وذكر القلب نوعان: أحدهما: وهو أرفع الأذكار وأجلها الفكر في عظمة الله تعالىٰ وجلاله وجبروته وملكوته وآياته في سمواته وأرضه ومنه الحديث: خير الذكر الخفي والمراد به هذا، والثاني ذكره بالقلب عند الأمر والنهي فيمتثل ما أمر به ويترك ما نهى عنه ويقف عما أشكل عليه، وأما ذكر اللسان مجردًا فهو أضعف الأذكار ولكن فيه فضل عظيم كما جاءت به الأحاديث.

شرح مسلم للنووي (١٧/ ١٤) طبعة دار الكتب العلمية

الباب السادس والثلاثون
قولهم في الزهد

قال الجنيد: الزهد خلو الأيدي من الأملاك والقلوب من التتبع.

قال علي بن أبي طالب ﷺ وسئل عن الزهد ما كان فقال: هو أن لا تبالي من أكل الدنيا من مؤمن أو كافر.

قال يحيى: الزهد ترك البُدّ.

قال مسروق: الزاهد الذي لا يملكه مع الله سبب.

سئل الشبلي عن الزهد فقال: ويلكم أي مقدار لأقل من جناح بعوضة حتى يزهد فيها.

قوله: قولهم في الزهد

قوله: والقلوب من التتبع.

أي خلوها من طلب الأملاك.

قوله: هو أن لا تبالي من أكل الدنيا.

يعني ترجع رزقك إلىٰ قدر الضرورة.

قوله: ترك البدّ.

أي ترك ما زاد علىٰ الضرورة.

قوله: الزاهد الذي لا يملكه مع الله سبب.

إذ لو ملكه لصار عبدًا له، وذلك السبب محتاج إلىٰ الله كما أنه محتاج إليه، والمملوك لا يكون مالكًا.

قوله: أيّ مقدار لأقل من جناح بعوضه حتى يزهد فيها.

وهذا معنى قوله عليه الصلاة والسلام: «**لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة**

قال أبو بكر الواسطي: كم تصول بترك كنيف، وإلىٰ متى تصول بإعراضك عما لا يزن عند الله جناح بعوضة[١].

وسئل الشبلي عن الزهد فقال: لا زهد في الحقيقة لأنه إما أن يزهد فيما ليس له فليس ذلك بزهد، أو يزهد فيما هو له فكيف يزهد فيه وهو معه وعنده، فليس إلا ظلف النفس وبذل ومواساة ....

ما سقى منها كافرًا شربة ماء»[٢].

قوله: كم تصول بترك كنيف.

والكنيف المبرز، والمراد به ههنا الدنيا.

وكذا بقوله: عما لا يزن، لأن الدنيا صارت كنيفًا لآدم عليه السلام حين أهبط من الجنة وكان حاقنًا.

قوله: لا زهد في الحقيقة لأنه إما أن يزهد فيما ليس له فليس ذلك بزهد.

لأن ما ليس له لا يصلح له تركه ليكون زهدًا، لأن الزهد ترك وما ليس له يكون متروكًا.

فالزهد فيه تحصيل للحاصل.

وإما أن يزهد فيما هو له، أي قدره الله أن يكون له، فكيف يزهد فيه وهو معه وعنده لا يفارقه لأنه قدره الله ان يكون له معه فا يقدر علىٰ تركه.

فليس إلّا ظلف النفس وبذل معها.

أي عطيه وهبة مع النفس، إن كان يزهد فيما له، والهبة مع النفس ليس بزهد، وإن

---

(١) حديث: **«لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضه ما سقى الكافر منها شربة ماء».**
أخرجه: الترمذي في سننه (٢٣٢٠)، وابن ماجة في سننه (٤١١٠)، والحاكم في المستدرك (٣٠٦/٤)، والتبريزي في المشكاة (٥١٧٧)، والسيوطي في الدر المنثور (١٧/٦)، وابن حجر في المطالب العالية (٣١٧٢)، والخطيب في تاريخ بغداد (٩٢/٤)، والهيثمي في مجمع الزوائد (٢٨٨/١٠)، والمنذري في الترغيب والترهيب (١٧٣/٤)، والزبيدي في الإتحاف (٧٩/٨)، وذكره الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٦٨٦، ٩٤٣).

(٢) انظر ما قبله.

كأنه جعل الزهد[1] ترك الشيء فيما ليس له، وما ليس له لا يصح له تركه لأنه متروك، وما هو له لا يمكنه تركه.

كان يزهد فيما ليس له فهو مواساة مع الخلق فأوصل إليه ما هو له ليخلص نفسه عن وبال مال الغير، فهذا أيضًا ليس بزهد.

والظلف: بالطاء المهملة العطاء والهبة، وبالظاء المعجمة كف النفس عن الشيء.

ويقال: ظلفت نفسي عن كذا بالكسر، يظلف ظلفًا أي كفت.

ولو حمل الكلام المذكور علىٰ هذا المعنى لكان تقديره فما أعطى وآثره علىٰ غيره، تبين أنه ليس له فليس ما توهمه الناس أنه زهد إلَّا كف النفس عن محافظته وسعى في إيصال ما للغير إليه.

❊ ❊ ❊

---

(١) قالوا: الزهد قسمان: زهد مقدور هو ترك الطلب والتبرع بالموجود، وزهد غير مقدور هو أن يبرد قلب الزاهد من الدنيا بالكلية فلا يحبها أصلاً.

والفرق بين الزهد والفقر هو أن الفقر يمكن وجوده بدون الزهد كأن يترك الفقير الدنيا بعزم ثابت إلا أن ميله إليها لا يزال باقيًا، والزهد أيضًا يمكن وجوده بدون الفقر كأن يزهد الشخص في الدنيا رغم إقبالها عليه.

المعجم الصوفي (ص١١٨)

الباب السابع والثلاثون

قولهم في الصبر[1]

قال سهل: الصبر انتظار الفرج من الله تعالى، قال: وهو أفضل الخدمة وأعلاها.

وقال غيره: الصبر أن تصبر في الصبر.

معناه أن لا تطالع فيه الفرج. قال بعضهم:

صابر الصبر فاستغاث به الصبر   فنادى الصبور يا صبْر صبرًا

قوله: قولهم في الصبر

لما كان الزهد مستلزمًا لترك المراد، وترك المراد لا يحصل إلّا بالصبر، فقرن الصبر بالزهد.

قوله: الصبر انتظار الفرج من الله تعالىٰ.

أي انتظار الفرج من مكروه من الله لا من غيره لأن المفرج هو لا غير، وهو أفضل الخدمة وأعلاها لأن فيه رضى العبد بما فعله الحق، وعدم رؤية غير الحق وإلَّا طلب الفرج منه لا من الحق.

قوله: صابر الصبر[2].

بأن لا يطالع فيه الفرج، فاستغاث به الصبر، لأنه غلب أعني صار مغلوبًا

---

(١) الصبر هو الوقوف مع البلاء بحسن الأدب والفناء في البلوى بلا ظهور شكوى، وهو علىٰ أقسام، فصبر علىٰ ما هو كسب للعبد وصبر علىٰ ما ليس بكسب والصبر علىٰ المكتسب قسمان: صبر علىٰ ما أمر الله تعالىٰ به وصبر علىٰ ما نهى عنه، وأما الصبر علىٰ ما ليس بمكتسب للعبد فصبره علىٰ مقاساة ما يتصل به من حكم الله فيما يناله فيه من المشقة.
المعجم الصوفي (ص١٤٠، ١٤١)

(٢) بالهامش/ أوله:

إن صوت المحب من ألم الشوق   وخوف الفراق يورث عُذرا

قال سهل في قوله: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ٤٥].

أي استعينوا بالله واصبروا علىٰ أمر الله، واصبروا علىٰ أدب الله سبحانه.

قال سهل: الصبر مقدس تقدس به الأشياء.

قال أبو عمرو الدمشقي في قوله تعالىٰ: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ [الأنبياء: ٨٣] أي مسّني الضُّرُّ فصبرني لأنك أرحم الراحمين.

مقهورًا[١]، فناداه الصبور يا صبر صبرًا، أي اصبر صبرًا.

قوله: واصبروا علىٰ أمر الله بأن لا تخالفوه، **واصبروا علىٰ آداب الله**، بأن لا تجزعوا ولا تضطربوا عن بلائه **قوله: تقدس به الأشياء.**

والتقديس بالصبر إما للعام وهو أن يقدسوا به عن الذنوب، وإما للخاص وهو أن يقدسوا أسرارهم به عن غير الحق.

في قوله تعالىٰ: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ [الأنبياء: ٨٣] [٢] فصبرني.

أي ليس قوله مسّني الضُّرُّ جزعًا وقلقًا من أيوب عليه السلام، بل هو طلب الصبر من الله تعالىٰ لأنه علم أنه لا يصبر في بلاء الله إلا بالله.

---

(١) قيل الصبر علىٰ ضربين: صبر العابدين وصبر المحبين فصبر العابدين أحسنه أن يكون محفوظًا، وصبر المحبين أحسنه أن يكون مرفوضًا، وقيل الصبر ضربان: بدني كالصبر علىٰ الضرب الشديد ونفساني وهو منع النفس عن مقتضيات الشهوة، ولأهل الصبر ثلاث مقامات الأول ترك الشكوى وهو درجة التائبين، والثاني الرضا بالمقدور وهو درجة الزاهدين والثالث المحبة أي محبة ما يفعله المولى به وهو درجة الصديقين.

المعجم الصوفي (ص١٤١)

(٢) يذكر تعالىٰ عن أيوب عليه السلام ما كان أصابه من البلاء في ماله وولده وجسده وذلك أنه كان له من الدواب والأنعام والحرث شيء كثير وأولاد كثيرة ومنازل مرضية فابتلى في ذلك كله وذهب عن آخره ثم ابتلى في جسده يقال بالجذام في سائر بدنه ولم يبق منه سليم سوى قلبه ولسانه يذكر بهما الله عز وجل حتى عافه الجليس وأفرد في ناحية من البلد ولم يبق أحد من الناس يحنو عليه سوى زوجته كانت تقوم بأمره ويقال إنها احتاجت فصارت تخدم الناس من أجله، وكان نبي الله أيوب عليه السلام غايه في الصبر وبه يضرب المثل في ذلك.

تفسير ابن كثير (٣/ ١٩٣)

وقال غيره: مسّني الضُّرُّ الذي تخص به أنبياءك وأولياءك بلا استحقاق مني، لكن لأنك أرحم الراحمين.

وقال بعضهم: إنما جزع من أجله لا من أجل نفسه وذلك أن الألم استولى علىٰ بدنه فخاف زوال عقله، أنشدونا لأبي القاسم سمنون:

تجرعت من حاليه نعمى وابؤسًا زمان إذا أمضى عزاليه احتسى

وقال غيره: مسَّنِيَ الضُّرُّ إظهار الشكر لله تعالىٰ علىٰ الضُّرُّ لا الجزع منه، لأن الله تعالىٰ وكل بلاءه علىٰ أوليائه وخاصة عباده، وهو فضل من الله وعطاء منه فشكر الله تعالىٰ فقال: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ [الأنبياء: ٨٣] أي الضُّرّ تخص به أنبياءك وأولياءك بلا استحقاق مني له، بل هو تفضل منك لأنك أنت ارحم الراحمين.

وقال بعضهم: إنما جزع أيوب عليه السلام من أجل الله تعالىٰ لا من أجل نفسه، وذلك لأن الألم استولى علىٰ بدنه فخاف زوال عقله، وبقاء المعرفة وزيادتها في بقاء العقل، فإذا زال العقل لم تبق المعرفة[١].

قوله:

تجرعت من حاليه نعمى وابؤسا زمان إذا مضى عزاليه احتسى

يقال تجرع غصص الغيظ، أي كظمه مع كره النعمى بالضم والقصر النعمة.

والأبؤس جمع بؤس وهو شدة الحاجة، والضمير في حاليه للزمان، وكذا في عزاليه.

قيل: هو طرفاه.

والعزلاء فم المزادة الأسفل، والجمع العزالي ـ بكسر اللام ـ والمراد به ههنا أن يصب الزمان نعمه من جميع جوانبه.

يقال: أخنسه غيره ـ إذا خلفه ومضى عنه.

---

(١) اختلفوا في السبب المهيج لأيوب عليه السلام في هذا الدعاء فقال الحسن وقتادة: لما حلقت زوجته شعرها للإطعام فلما رأى أيوب رأسها محلوقًا جزع جزعًا شديدًا فعند ذلك دعا الله عز وجل: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

مختصرًا من ابن كثير (٣/ ١٩٤)

....

معناه أني تجرعت بالتكلف[١] من غير إرادة، بل (نبا كام)[٢] من حالي الزمان وهما النعمة والشدة.

أما النعمة فلخوف الزوال، فإن تجرع خوف الزوال يكون بؤسًا وشدة.

وأما البؤس فتجرعه نباكام ظاهر يخبر عن وقته وحاله بأن الزمان تارة يعطي النعمة وتارة يصب البلاء، ولا يبقى العبد علىٰ حالة واحدة، بل تحوله من حال إلىٰ حال حتى الموت.

وبقوله: تجرعت أشار إلىٰ الصبر، فإن التجرع للصابر سواء كان تجرع بلاء أو نعمة فإنه لو كان بلاء فلا يقول مع أحد ولا يجزع عنه ولا يضطرب ولو كان نعمة فلا يستأنس معها حتى إذا زالت لا يتألم منه ولا يجزع.

ثم ذكر وصف الزمان بأن الله تعالىٰ بنى حاله ووصفه علىٰ ما لا بقاء له.

فقال: **زمان إذا أمضي عزاليه احتسى.**

يعني لو أعطى أحدًا نعمة خلفه ومضى عنه وأخذها منه وإنما أضاف البلاء والنعمة إلىٰ الزمان لا بمعنى أنه رآه من الحق، لكن كما أن رؤيته من الحق شرط الحقيقة، فكذا عدم الشكاية منه شرط الحقيقة، فأضافه إلىٰ الزمان لئلا يكون شكاية من الحق وهذا كما قاله إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ٨٠] فأضاف الشفاء إلىٰ الحق ولم يضف المرض إليه[٣].

---

(١) من أخلاق الصوفية ترك التكلف وذلك أنه تصنع وتعمل وتمايل علىٰ النفس لأجل الناس وذلك يباين حال الصوفية، والتكاليف أصلها من الكلف وهي المشقات والعوالم تقسمت فتقسمت التكاليف فعالم كلفتهم في أداء العبادة وعالم كلفتهم في حيرتهم في موافقة الأمر والإرادة، وعالم كلفتهم في توجيه الخطاب الإلهي علىٰ هذا العالم الكياني مع رد الأفعال إليه استحالة التكليف عليه.

المعجم الصوفي (ص٥٤)

(٢) كذا بالأصل.

(٣) للصوفية في المرض آداب، والمرض ابتلاء والصبر عليه واجب وصبر المريض وأهله دليل صدقهم مع الله وقمة الصدق أن تعتبر الابتلاء نعمة. =

فكم غمرة قد جرعتني كؤوسها فجرعتها من بحر صبري أكؤسا
تدرعت صبري والتحفت صروفه وقلت لنفسي الصبر أو فاهلكي أسا

وإن كان كلاهما من الحق ليكون شكرًا مع عدم الشكاية ثم ذكر ما فعل به الزمان من البلايا وتلقيه لها.

فقال:

فكم عمرة قد جرعتني كؤسها فجرعتها من بحر صبري أكؤسا

يعني فكم شدة عظيمة حيرتني قد جرعتني تلك الغمرة كؤوسها، فشبه تجرع البلاء والشدة بتجرع كؤس السُّم، فجرعت تلك الغمرة من بحر صبري أكؤسا.

يعني إذا أتى الزمان بي بلاء، فقدمت الصبر إليه وجعلته في مقابلته ليدفعه ولم أجزع منه ولتحمل البلاء وجه آخر وهو المشاهدة، فإن سرّه في تلك الحالة يكون مشغولًا بالحق بحيث لا يكون له خير من غيره.

قوله:

تدرعت صبري والتحفت صروفه وقلت لنفسي الصبر أو فاهلكي

يعني جعلت الصبر درعًا أو قميصًا، وصروف الزمان لحافًا، وقلت لنفسي اصبري صبرًا[1] أو فاهلكي من جهة الأسى والحزن.

=

ومن أقوالهم: لا تقل من شدة المرض أخ فإنه اسم من أسماء الشيطان، وقل آه فإنه اسم من أسماء الله، وقيل إن بشر الحافي مرض فدخل عليه الطبيب فكان بشر يصف له ما به، فقالوا له ألا تخشى أن تكون هذه شكاية فقال: لا وإنما أخبره بقدرة القادر عليَّ، وقيل: اعتل الجنيد فكان يدعو: يا من يشكر على ما يهب هب لنا ما نشكر.

المعجم الصوفي (ص٢٢٩)

(١) قيل الصبر على ضربين: صبر العابدين وصبر المحبين فصبر العابدين أحسنه أن يكون محفوظًا، وصبر المحبين أحسنه أن يكون مرفوضًا.

وقيل الصبر ضربان: بدني كالصبر على الضرب الشديد ونفساني وهو منع النفس عن مقتضيات الشهوة ولأهل الصبر ثلاث مقامات: الأول ترك الشكوى وهو درجة التائبين، والثاني الرضا بالمقدور وهو درجة الزاهدين والثالث المحبة أي محبة ما يفعله المولى به وهو درجة الصدّيقين.

المعجم الصوفي (ص١٤١)

خطوب لو أن الشُّم زاحمن خطبها   لساخت ولم تدرك لها الكف ملمسا

قوله:

خطوب لو أن الشم زاحمن خطبها   لساخت ولم تدرك لها الكف ملمسا

يخبر عن البلايا العظيمة التي ألمت به وتجرعها وصبر عليها ولم يجزع عنها.

الخطوب الأمور العظيمة، والشُّم بالضم الجبال المرتفعة، جمع أشمّ وهو جبل طويل الرأس، وساخت قوائمه في الأرض، أي دخلت فيها وغابت.

يعني دخلت تلك الجبال في الأرض وغابت فيها والحال أنه لم تدرك الكف ملمسًا لتلك الجبال.

❊ ❊ ❊

الباب الثامن والثلاثون
قولهم في الفقر

قال أبو محمد الجريري: الفقر أن لا تطلب المعدوم حتى تفقد الموجود.

معناه أن لا تطلب الأرزاق إلّا عند خوف العجز عن القيام بالفرض.

قال ابن الجلاء: الفقر أن لا يكون لك فإذا كان لا يكون لك على معنى قوله تعالىٰ: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

قال أبو محمد رويم بن محمد: الفقر عدم كل موجود، وترك كل مفقود(١).

قوله: قولهم في الفقر

صحة الفقر **أن لا تطلب المعدوم حتى تفقد الموجود.**

قال بعضهم: معناه لا تطلب شيئًا من الدنيا ما دام يكون شيء من الدنيا موجودًا في تصرفه، فإذا ذهب الموجود، فالآن تطلب لإصلاح المعاش وتقوية النفس لإقامة الشريعة، لا للاستكثار والجمع.

ويحتمل أن يكون معناه أن لا نطلب غير الله، لأن غيره معدوم في نفسه، لئلا تفقد الموجود وهو الحق، لأنه الموجود بالحقيقة، يعني إذا وجد الحق لا يطلب غيره فهو صحة الفقر.

قوله: الفقر أن لا يكون لك.

أي لا يكون لك شيء لا تطلب له، فإذا كان لك شيء لا يكون ذلك لك، بأن لا

---

(١) حقيقة الفقر الصوفي أن لا يستغني العبد إلّا بالله، ورسم هذا الفقر عدم الأسباب كلها ونعت الفقير الصوفي السكون عند العدم، والبذل والإيثار عند الوجود، ويقول الجنيد: إذا لقيت الفقير - يقصد الصوفي - فلا تبدأه بالعلم وابدأه بالرفق، فإن العلم يوحشه والرفق يؤنسه، وقيل ليس الفقر عند الصوفية الفاقة والعدم ولكن الفقر المحمود الثقة بالله تعالىٰ والرضا بما قسم.
المعجم الصوفي (ص١٩٤)

وقال الكناني: إذا صح الافتقار إلىٰ الله صح الغنى بالله، لأنهما حالان لا يتم أحدهما إلّا بالآخر.

قال النوري: نعت الفقير السكون عند العدم، والبذل والإيثار عند الوجود.

وقال بعض الكبراء: الفقير هو المحروم من الإرفاق والمحروم من السؤال لقوله عليه الصلاة والسلام: «**لو أقسم علىٰ الله لأبره**»[1]، فدل أنه لا يقسم.

تعتمد عليه، بل تؤثر محتاجًا إليه علىٰ نفسك ليكون حال العدم وحال الوجود سواء.

ويحتمل أن يكون معناه أنه بالنظر إلىٰ ذاته لا يكون له شيء وإن حصل شيء له بالنظر إلىٰ الحق فلا يرى أنه منه، بل من الحق، فباعتبار الحالين لا يكون له شيء.

قوله: إذا صح الافتقار إلىٰ الله صح الغناء بالله لأن افتقار العبد إلىٰ الله علىٰ مقدار استغنائه عن غيره.

قوله: هو المحروم من الإرفاق.

أي من القدر الذي يرفق به، وممن لا يرفق به[2].

أي لا يرفق به أحد.

قوله: لأبرّه، أي لأمضاه علىٰ الصدق.

قوله: فدل أنه لا يقسم، لأن ما بعد لو ههنا مثبت فيكون في معنى لا يقسم.

---

(١) أخرجه: مسلم في صحيحه كتاب البر والصلة حديث رقم (١٣٨)، وكتاب الجنة، حديث رقم (٤٨)، والمنذري في الترغيب والترهيب (٤/ ١٥٢)، والزبيدي في الإتحاف (٦/ ٧)، والهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٢٦٤)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (١/ ٣٥٠).

(٢) كان من دعائه ﷺ: «**اللهم أحيني مسكينًا وأمتني مسكينًا واحشرني مع المساكين**».

وحديث: «**يدخل فقراء أمتي الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام**». هذا ما استشهد به كبار الصوفية في تفضيل الفقر علىٰ الغني، وقال بعضهم الغنى أفضل لأنها صفة الله تعالىٰ فالله هو الغني، والفقر صفة العبد واستشهدوا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [لقمان: ٢٦]، وحديث: «**اليد العليا خير من اليد السفلى**».

المعجم الصوفي (ص١٩٥)

قال الدراج: فتشت كنف أستاذي أريد مكحلة فوجدت فيه قطعة فضة، فتحيرت، فلما جاء قلت له: إني وجدت في كنفك قطعة قال: قد رأيتها ردها.

ثم قال: خذها واشتر بها شيئًا، فقلت له: ما كان أمر هذه القطعة بحق معبودك.

قال: ما رزقني الله من الدنيا صفراء ولا بيضاء غيرها فأردت أن أوصي أن تُشدّ في كفني فأردها إلىٰ الله عز وجل.

سمعت أبا القاسم البغدادي يقول: سمعت الدوري يقول: كنا ليلة العيد مع أبي الحسن النوري في مسجد الشونيزي، فدخل علينا إنسان فقال للنوري: أيها الشيخ غدًا العيد، ماذا أنت لابسه فأنشأ يقول:

قالوا غدًا العيد ماذا أنت لابسه   فقلت خلعة ساق عبده جرعا

قوله: فتشت كنف استاذي.

الكنف: بالكسر وسكون النون وعاء يكون فيه أداة الراعي، ثم استعمل في وعاء يكون فيه الأداة، **فوجدت فيه قطعة** - أي قطعة من نقرة - **فتحيرت** لأنه لم ير أستاذه أن يصحب مع الدنيا.

والسؤال عن الأستاذ إنما كان ليعلم حاله فلا ينظر إليه بعين العوج، **ثم قال: خذها واشتر بها شيئًا** لأنه سرٌّ بينه وبين الله، فلما انكشف وظهر لم يبق السرّ، فلذلك قال اشتر بها.

قوله: فأردت أن أوصى أن تُشدّ في كفني فأردها إلىٰ الله تعالى، والمقصود منه أنه يخاف من وباله لو صرفه في شيء لم يطق حسا.

قوله: في مسجد الشونيزي، مسجد في بغداد.

قوله: فقلت خلعة ساق عبده جرعا.

أي أنا غدًا لابس خلعة ساقي عبده جرعا، جمع جرعة وهي ما يشرب بالكراهية.

والمراد بالخلعة هذه هي حال الباطن، وجعل لتلك الخلعة صفة وهي الجرعة، لأن عطاء الحق وخلعته لأوليائه في الدنيا هو الغم والحزن والمحنة فقال: الخلعة التي

فقر وصبر هما ثوباي تحتهما	**قلب يرى ربه الأعياد والجمعا**
أحرى الملابس أن تلقي الحبيب بها	**يوم التزاور في الثوب الذي خلعا**
الدهر لي مأتم إن غبت يا أملي	**والعيد[١] ما دمت لي مرأىً ومستمعا**

أنا لابسها غدًا شيئان:

فقر وصبر، هما ثوباي تحتهما ... قلب يرى ربه الأعياد والجمعا

والمراد بهذا الفقر فقر الباطن يعني كل أحدٍ غدًا يجيء بالخدمة ومعه شيء، وأنا بالإفلاس، وإنما جعل الصبر خلعة لأنه إذا قطعني عن المراداة وأعطاني ما هو غير مرادي فلا حيلة لي إلَّا الصبر وهذا لي خلعة منه، لأنه إذا أعطاني مرادي عني أصير بلا علاقة، وإذا صرت بلا علاقة بقيت معه.

فالخلعة بالحقيقة هو أن يقطعني الحق عن غيره وأوصلني إليه.

قوله: أحرى الملابس، أي أجدرها وأليقها **أن تلقى الحبيب بها يوم التزاور في الثوب الذي خلعها** أي خلعه خلعةً[٢] لك.

ثم قال:

الدهر لي مأتم إن غبت يا أملي ... والعيد ما دمت لي مرأىً ومستمعا

أي موضع رؤيتي وسماعي، يعني ما دمت أراك وأسمع منك يكون الدهر لي عيدًا[٣].

---

(١) صلاة العيد عند الشافعي وجمهور أصحابه وجماهير العلماء سنة مؤكدة وقال أبو حنيفة: هي واجبة، وسمي عيدًا لعوده وتكرره، وقيل لعود السرور فيه، وقيل: تفاؤلاً بعوده على من أدركه، كما سميت القافلة حين خروجها تفاؤلاً لقفولها سالمة وهي رجوعها وحقيقتها الراجعة.
شرح مسلم للنووي (٦/ ٤٩) طبعة دار الكتب العلمية

(٢) خلع عليه خلعة أعطاه أو ألبسه إياها، جمع خلع.

(٣) قال النووي: قال أصحابنا: يستحب إخراج النساء غير ذوات الهيئات والمستحسنات في العيدين دون غيرهن وأجابوا عن إخراج ذوات الخدور والمخبأة بأن المفسدة في ذلك الزمن كانت مأمونة بخلاف اليوم ولهذا صح عن عائشة رضي الله عنها: لو رأى رسول الله ﷺ ما أحدث النساء لمنعهن المساجد كما منعت نساء بني إسرائيل، قال القاضي عياض: واختلف السلف في خروجهن للعيدين فرأى جماعة ذلك حقًّا عليهن منهم أبو بكر وعلي وابن عمر وغيرهم رضي الله عنهم، ومنهم من منعهن ذلك منهم عروة والقاسم ويحيى الأنصاري ومالك وأبو يوسف وأجازه أبو حنيفة مرة ومنعه مرة.
شرح مسلم للنووي (٦/ ١٥٦) طبعة دار الكتب العلمية

سئل بعض الكبراء: ما الذي منع الأغنياء عن العود بفضول ما عندهم علىٰ هذه الطائفة؟

فقال: ثلاثة أشياء:

أحدها: أن الذي في أيديهم غير طيب، وهؤلاء خالصة الله، وما اصطنع إلىٰ أهل الله فمقبول، ولا يقبل الله إلَّا الطيب[1].

والثاني: أنهم مستحقون فيحرم الآخرون بركه العود عليهم والثواب فيهم.

والثالث: أنهم مرادون بالبلاء فيمنعهم الحق عن العود عليهم ليتم مراده فيهم.

قوله: عن العود بفضول ما عندهم.

أي عن إعطاء ما فضل عند الطائفة الصوفية.

قوله: غير طيب.

أي غير حلال.

قوله: مستحقون.

أي لكل خير فعل بهم، ومن فعل شيئًا بالاستحقاق يجد بركته وثوابه.

فيجوز أن لا يكون هؤلاء الأغنياء من أهل تلك البركة والثواب، فيحرموا بركة عود ما فضل علىٰ هذه الطائفة وثوابه فيهم.

قوله: أنهم مرادون بالبلاء.

أي إن هذه الطائفة مرادون للحق بالبلاء بهم ليكونوا معه وليروه ويريدوه ولا يعرضوا عنه، فيمنع الأغنياء عن عود ما فضل عندهم عليهم ليتم الحق مراده في هذه الطائفة.

---

(١) حديث: «**إن الله طيب لا يقبل إلَّا طيبًا**» أخرجه: البخاري في صحيحه (١٤١٠)، ومسلم في صحيحه كتاب الزكاه حديث رقم (٦٥)، والترمذي في سننه (٢٧٩٩)، وأحمد في مسنده (٢/٣٢٨)، وعبد الرزاق في مصنفه (٨٨٣٩)، والمنذري في الترغيب والترهيب (٢/ ٥٤٥)، والتبريزي في مشكاة المصابيح (٤٤٨٧).

سمعت فارسًا يقول: قلت لبعض الفقراء مرة - ورأيت عليه أثر الجوع والضر - لم لا تسأل الناس فيطعموك، قال: أخاف أن أسألهم فيمنعوني فلا يفلحون، وقد بلغني عن النبي ﷺ أنه قال: «**لو صدق السائل ما أفلح من منعه**»[1].

قوله: سمعت فارسًا يقول: قلت لبعض الفقراء مرة . . . إلىٰ آخره.

وإنما أورد هذه الحكاية ليعلم الناس أن شفقة هذه الطائفة عليهم بحيث يؤثرون هلاك أنفسهم للرفق بالناس وحسن حالهم.

قوله: وقد بلغني من جملة مقولة قال في **قوله: قال أخاف**، أي قال بعض الفقراء الذي هو المسؤول.

قوله: لو صدق السائل.

أي في سؤاله عن احتياج وضرورة.

❊ ❊ ❊

---

(١) أخرجه: ابن عبد البر في التمهيد (٥/ ٢٩٧)، والزبيدي في الإتحاف (٤/ ١٧١، ٩/ ٣٠٣)، والسيوطي في اللآلئ المصنوعة (٢/ ٣٩)، وعلي القاري في الأسرار المرفوعة (٢٨٩)، والفتني في تذكرة الموضوعات (٦١)، والعقيلي في الضعفاء (٣/ ٥٩) وابن عراق في تنزيه الشريعة (٢/ ١٣٢)، والشوكاني في الفوائد المجموعة (٦٤)، وابن الجوزي في الموضوعات (٢/ ١٥٥)، والسيوطي في الدرر المنتثرة (١٣٢).

الباب التاسع والثلاثون
قولهم في التواضع[1]

سئل الجنيد عن التواضع فقال: هو خفض الجناح وكسر الجانب.

قال: رويم: التواضع تذلل القلوب لعلام الغيوب.

قوله: قولهم في التواضع

فقال: خفض الجناح وكسر الجانب، أخذه من قوله تعالىٰ لنبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾﴾.

أي كن حنينًا مشفقًا رؤوفًا متواضعًا.

يريد أنه ينبغي أن يكون المتواضع بصفة الطير الذي كسر جناحه، فإنه حينئذ يكون أسيرًا ولا يقدر علىٰ دفع ما فعل به، ولا علىٰ الفرار، فالمتواضع يخفض جناح بدنه وصفة البشرية ويكسر جانب عادات الطبع، لأن هذا الجناح ليس بجناح حقيقة ليحصل له جناح من الله تعالىٰ فيطير بجناحه.

قوله: تذلل القلوب لعلام الغيوب.

وتذلل القلوب هو أن يتلبس القلوب بلباس اعتقاد الفقر، فإذا اعتقد أنه ليس له شيء أو لغيره إلَّا أن يكون من الحق ويحتاج هو إليه فيه فيكون متذللًا للحق بحسب الباطن، فيظهر أثره علىٰ الظاهر البتة فيصير بحسب الظاهر أيضًا متذللًا، فلأجل هذا

---

(١) قالوا: لولا شرف التواضع لكنا إذا مشينا نخطر والصوفي الذي يرى لنفسه قيمة فليس له من التواضع نصيب والذي يحب أن يتواضع قلبه فعليه أن يصحب الصالحين، وقالوا خمسة أنفس هم أعز الناس في الدنيا: عالم زاهد، وفقيه صوفي، وغني متواضع وفقير شاكر، وشريف سني، ومن علامات التواضع تصغير النفس معرفة بالغيب، وتعظيم الناس حرمة للتوحيد وقبول الحق والنصيحة من كل واحد.

المعجم الصوفي (ص٥٨)

قال سهل: كمال ذكر الله المشاهدة وكمال التواضع الرضا به.

وقال غيره: التواضع قبول الحق من الحق للحق.

الاستلزام سكت عن التواضع[١] بحسب الظاهر.

قوله: كمال ذكر الله المشاهدة وكمال التواضع الرضا به.

يعني أن الذكر الذي هو حركات اللسان من غير حصول المشاهدة التي هي علم الباطن، لا اعتبار له كما أن الله تعالىٰ سمى عبارة صدق المنافقين كذبًا، حيث قال: ﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾، بناء علىٰ أنه ليس لهم مشاهدة الباطن، وإن كانت عبادتهم صادقة.

أو يكون معناه أن ذكر اللسان قاصر ناقص من غير المشاهدة، فإذا حصلت المشاهدة صار الذكر[٢] بالكمال فلا يحتاج إلىٰ عبارة اللسان، لأن الذكر للغائب وكمال التواضع الرضا به.

يريد الرضا بالله ولا يريد غيره مع وجوده والرضا بفعله.

قوله: قبول الحق من الحق للحق.

أي قبول الحق لا قبول غيره من الحق لا من غيره بأن لا تنظر إلىٰ الغير بالفاعلية للحق لا لغيره يعني لا تنظر في ذلك القبول إلىٰ عوض وطمع غير الحق.

---

(١) التواضع علىٰ ضربين: الأول أن يتواضع العبد لأمر الله ونهيه والثاني أن يتَّضع لعظمة الله وقيل التواضع قبول الحق من الحق وفي الحديث ما بعث الله نبيًا إلَّا كان متواضعًا.
المعجم الصوفي (ص٥٨، ٥٩)

(٢) ذكر ابن جرير الطبري وغيره اختلاف السلف في ذكر القلب واللسان أيهما أفضل، قال القاضي: والخلاف عندي إنما يتصور في مجرد ذكر القلب تسبيحًا وتهليلاً وشبههما وعليه يدل كلامهم لا أنهم مختلفون في الذكر الخفي الذي ذكرناه وإلا فذلك لا يقاربه ذكر اللسان فكيف يفاضله وإنما الخلاف في ذكر القلب بالتسبيح المجرد ونحوه والمراد بذكر اللسان مع حضور القلب فإن كان لاهيًا فلا.
شرح مسلم للنووي (١٨/ ١٤) طبعة دار الكتب العلمية

وقال آخر: التواضع الافتخار بالقلة، والاعتناق للذلة، وتحمل أثقال أهل الملة.

قوله: الافتخار بالقلة.

والمراد بالقلة ههنا هو العبودية، والعبد لا يكون له شيء وليس وراء العدم قلة أخذه من قوله عليه الصلاة والسلام: «**أختار أن أكون عبدًا نبيًا**»[(١)].

والاعتناق للذلة أخذه من قوله عليه الصلاة والسلام: «**اللهم أحيني مسكينًا وأمتني مسكينًا واحشرني في زمرة المساكين**»[(٢)]. **وتحمل أثقال أهل الملة** أخذه من فعله عليه الصلاة والسلام فإنه تحمل ثلاث عشرة سنة أثقال المخالفين حتى أثنى الله تعالىٰ عليه بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: ٤]، وإذا ثبت استحقاق الثناء من الله بتحمل أثقال المخالفين، فكيف بتحمل أثقال أهل الملة.

وتصح هذه الثلاثة بثلاثة معان كل بواحد.

أما الافتخار بالقلة فبأن يعلم أن هذه القلة باختيار الله له فيفتخر بها.

وأما الاعتناق للذلة فبأن يرى عز وجود الحق في ذلته فيعتنقها، فلا يريد أن ينقطع عنها لحظة بناء علىٰ أن من أراد أن يجد عزيزًا، فلا سبيل له إليه إلَّا بتذلل إليه.

وأما تحمل أثقال أهل الملة فبأن يعلم أنهم مسلطو الحق فلا أخاصمهم وإلَّا تصير المخاصمة مع الله، ولهذا المعنى أمر الله نبيه عليه الصلاة والسلام بالصبر علىٰ الأثقال فقال: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ [لقمان: ١٧] أي من البلاء والشدة، فإنه لو لم أرده لدفعته عنك ولهذا قال: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨].

❊ ❊ ❊

---

(١) أخرجه: ابن عساكر في تهذيب تاريخ دمشق (١/ ٣٨٥).

(٢) أخرجه: الترمذي في سننه (٢٣٥٢)، وابن ماجة في سننه (٤١٢٦)، والبيهقي في السنن الكبرى (٧/ ١٢)، والحاكم في المستدرك (٤/ ٣٢٢)، والقرطبي في تفسيره (٨/ ١٦٩)، والتبريزي في مشكاة المصابيح (٥١٤٥)، والبخاري في التاريخ الكبير (٧/ ١٩٤، ٩/ ٧٥)، والهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٢٦٢)، والذهبي في ميزان الاعتدال (١٠٥٦٠)، والخطيب في تاريخ بغداد (٤/ ١١)، والألباني في إرواء الغليل (٣/ ٣٥٨)، وابن الجوزي في الموضوعات (٣/ ١٤١، ١٤٢).

الباب الأربعون
قولهم في الخوف[1]

قال أبو عمرو الدمشقي: الخائف من يخاف من نفسه أكثر مما يخاف من العدو.

قوله: قولهم في الخوف

قوله: الخائف من يخاف من نفسه أكثر مما يخاف من عدوه، يعني به الشيطان. وإنما كان كذلك لأن الشيطان بائن عنك والنفس ليس ببائن عنك، ومخالفة البائن واتقاؤه أسهل من مخالفة غيره، والاتقاء منه.

وأيضًا فإن لمكائد الشيطان حدًّا ونهاية، فإنه يدعوك من الطاعة إلىٰ المعصية، وتعلم أن لك توبة منها بخلاف مكائد النفس فإنها ليس لها نهاية فتدعوك النفس إلىٰ الطاعة رياء وعجبًا، فيفسد عليك دينك ولا يخطر بقلبك أن لك توبة من الطاعة التي فيها رياء وعجب، فتتوهم أنك في خير كثير، وأنت في عبادة الخلق.

والذي يدل عليه قوله عليه الصلاة والسلام: **«أعدى عدو لابن آدم نفسه التي بين جنبيه»**[2].

وقال بعض الكبراء: فإن النفس أخبث من سبعين شيطانًا.

---

(١) الخوف هو الحياء من المعاصي والمناهي والتألم منها يقول النبي ﷺ: **«أنا أخوفكم لله تعالى»** وأوحى إلىٰ داود «خفني كما يخاف السبع الفأر»، وقيل: الخوف علىٰ ضربين رهبة وخشية فصاحب الرهبة يلتجئ إلىٰ الهرب، إذا خاف، وصاحب الخشية يلتجئ إلىٰ الرب، وقال مالك ابن دينار: علامة الخوف اجتناب ما نهى الله عنه وقال أبو سليمان: ما فارق الخوف قلبًا إلَّا خرب.

المعجم الصوفي (ص٩٢)

(٢) أخرجه: الزبيدي في الإتحاف (٧/ ٢٠٦، ٩/ ٣٣)، والعراقي في المغني عن حمل الأسفار (٣/ ٤)، والعجلوني في كشف الخفا (١/ ١٦٠).

قال أحمد ابن السيد حمدويه: الخائف الذي تخافه المخلوقات.

قال أبو عبد الله بن الجلاء: الخائف الذي تأمنه المخلوقات قال ابن خبيق: الخائف الذي يكون بحكم كل وقت فوقت تخافه المخلوقات، ووقت تأمنه، الذي تخافه المخلوقات هو الذي غلب عليه الخوف فصار خوفًا كله، فيخافه كل شيء.

قوله: الخائف الذي تخافه المخلوقات[1].

هذا هو مقام عمر بن الخطاب رضي الله عنه فإنه يخاف أهل العالم من الشيطان، واستعاذوا بالله من شرّه والشيطان خاف من عمر.

كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**إن الشيطان ليفر من ظل عمر**»[2].

وقال أيضًا: «**ما يسلك عمر بن الخطاب فجًا إلَّا سلك الشيطان فجًا غير فج عمر**». ومعناه أنه مهما غلب علىٰ باطن العبد شيء ظهر أثره علىٰ ظاهره، فلو غلب علىٰ باطنه الخوف وهو محرق يحرق الباطن عن نظر غير الحق، والظاهر عن الاشتغال بغير الحق، فإذا رأى الشيطان آثار الخوف يخاف الشيطان لو قصده لأحرقه نار الخوف.

وأيضًا غلبه الخوف من مشاهدة الجلال، لأنه يوجب الهيبة، والهيبة تثير الخوف وتظهره.

ومع جلال الله لا يطيق الكون، فكيف يطيق الشيطان ومن آثار تجلي الجلال علىٰ الجبل دك الجبل وصعق موسى عليه السلام مع أن موسى عليه السلام مُحبّه، فلو وقع علىٰ القلب فكيف للشيطان طاقة ذلك، وأنه عدو.

قوله: الخائف الذي تأمنه المخلوقات[3].

وهذا هو مقام المصطفى عليه الصلاة والسلام، فإن الشيطان من غاية أمنه من

---

(١) بالأصل "المخوّفات".

(٢) الحديث: أخرجه: الترمذي في سننه (٣٦٩٠)، والبيهقي في السنن الكبرى (١٠/ ٧٧)، وذكره الحافظ ابن حجر في الفتح (١١/ ٥٨٨)، والحديث التالي أخرجه: ابن أبي عاصم في السنة (٢/ ٥٨٢)، والزبيدي في الإتحاف (٧/ ٢٨٦).

(٣) بالأصل "المخوّفات".

كما قيل: من خاف الله خافه كل شيء، والذي أمنته المخاوف هو الذي إذا طرقت المخاوف أفكاره لم تؤثر فيه لغيبته عنها بخوف الله تعالىٰ ومن غاب عن الأشياء غابت الأشياء عنه.

رسول الله ﷺ قصده في الصلاة[1] حتى ضربت النار فيه.

وهذا المقام أعلى من مقام عمر، لأن العدو إنما يخاف ممن له فراغة بمقابلته.

والرسول عليه الصلاة والسلام إنما يكون مستغرقًا بالحق ومشغولًا به بحيث لا يجري عليه ذكر الشيطان، فإن الشيطان لما رأى فراغته منه قصده.

وعمر رضي الله عنه ما آمن من الشيطان، وكان مستعدًا للمقاتلة معه، وإذا رأى أحد عدوه مستعدًا يحترز منه.

قوله: إذا طرقت المخاوف.

أي إذا مرت المخاوف بأفكاره، **لم تؤثر** تلك المخاوف في سره **لغيبته عنها**.

بمعنى أنه لا يكون له خبر عنها بسبب استيلاء خوف الله تعالىٰ عليه، **ومن غاب عن الأشياء** أن لا يكون له خبر عنها بسبب غلبة الخوف عليه، **غابت الأشياء عنه**.

بمعنى أنه لا يخاف منه شيء.

---

(١) الحديث بلفظ: «**إن عفريتًا من الجن تفلت عليَّ البارحه ليقطع عليَّ صلاتي . . . الحديث**».
أخرجه: البخاري في صحيحه (١/ ١٢٤، ٦/ ١٥٦)، ومسلم في صحيحه كتاب المساجد، حديث رقم (٣٩)، وأحمد في مسنده (٢/ ٢٩٨)، والتبريزي في المشكاة (٩٨٧)، وأبو نعيم في دلائل النبوة (١٣٠)، وأبو عوانة في مسنده (٢/ ١٤٤)، والزبيدي في الإتحاف (٧/ ٢٨٦).
قال النووي: فيه دليل علىٰ أن الجن موجودون وأنهم قد يراهم بعض الآدميين، قال القاضي: وقيل إن رؤيتهم علىٰ خلقهم وصورهم الأصلية ممتنعة لظاهر الآية ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: ٢٧] إلّا للأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين ومن خرقت له العادة ويراهم بنو آدم في صور غير صورهم، قلت - أي النووي - هذه دعوى مجرده فإن لم يصح لها مستند فهي مردودة، قال المازري: الجن أجسام لطيفة روحانية فيحتمل أنه يتصور بصوره يمكن ربطه معها ثم يمتنع من أن يعود إلىٰ ما كان عليه حتى يتأتى اللعب به وإن خرقت العاده أمكن غير ذلك.
شرح مسلم للنووي (٥/ ٢٦) طبعة دار الكتب العلمية

أنشدونا :

يحرق بالنار من يحس بها فمن هو النار كيف يحترق

قال رويم : الخائف الذي لا يخاف غير الله .

معناه لا يخافه لنفسه ، وإنما يخافه إجلالًا له والخوف للنفس خوف العقوبة .

قال سهل : الخوف ذكر والرجاء أنثى ، معناه منهما يتولد حقائق الإيمان[1] .

وقال : إذا خاف العبد غير الله ، ورجا الله تعالىٰ أمن الله خوفه وهو محجوب .

قوله : الخائف الذي لا يخاف غير الله .

يعني من غلب عليه خوف الحق واستولى بحيث يكون مستغرقًا لخوف الحق ، ولم يبق لخوف غير الحق فيه سبيل ، لأنه ممتلئ عن خوف الحق فهو خائف .

قوله : لا يخافه لنفسه ، أي لأجل نفسه .

قوله : الخوف ذكر والرجاء أنثى .

لأن غلبة الخوف تولد الحركة والحرص وهما من صفات الذكور ، وغلبة الرجاء تولد الكسالة والسكون وهما من صفات الإناث .

قوله : وقال : إذا خاف العبد غير الله ورجا الله أمن الله خوفه وهو محجوب .

يعني إذا خاف العبد من النفس والشيطان وجهنم ومع ذلك رجا الله أن يحفظه من شرّ هذه المخلوقات .

جعل الله خوفه آمنًا وهو مع هذا محجوب عن الله ، لأن الخوف من هذه الثلاثة مشتغل غير الله والاشتغال بغير الله من جهته فراغة عنه والفراغة عن الحق حجاب .

وعلامة الخوف من النفس أن يقهر هواها لئلا تقهره النفس .

---

(١) تقرر الآيات المباركات حقيقة الإيمان في قوله تعالىٰ : ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجرات : ١٥] فالإيمان إذن قرار وتصديق وثقة لا يشوبها ارتياب ولا شك ثم جهاد بالأموال والأنفس في سبيل الله ﷻ .

....

كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: **«من مقت نفسه في ذات الله تعالىٰ أمنه الله من عقابه يوم القيامة»**.

وعلامة الخوف من الشيطان أن لا يمشي بمراده فإن من مشي بمراد أحدٍ يصير قريبًا له.

كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾ [الزخرف: ٣٦].

وإذا كان قرينًا له يدل علىٰ أنه لا يخاف منه[1].

وعلامة الخوف من جهنم هو أن يحفظ حدود الأوامر والنواهي، فإن من جاوزها يصير ظالمًا وجهنم مقام الظالمين.

لقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف: ٢٩].

وبالجملة علامة الخوف من هذه الثلاثة الفرار منها، وذلك يتحقق بما ذكر.

❊ ❊ ❊

---

(١) في تمكن النبي ﷺ من العفريت الذي أراد أن يقطع صلاته في الحديث المتقدم قبل هذا وفي آخره "ثم ذكرت قول وفي روايه "دعوة" أخي سليمان ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾ [ص: ٣٥] . . . قال القاضي: معناه أنه مختص بهذا فامتنع نبينا ﷺ من ربطه إما أنه لم يقدر عليه لذلك وإما لكونه لما تذكر ذلك لم يتعاط ذلك لظنه أنه لن يقدر عليه أو تواضعًا وتأدبًا.

شرح مسلم للنووي (٥/٢٦) طبعة دار الكتب العلمية

الباب الحادي والأربعون
قولهم في التقوى[1]

قال سهل: التقوى مشاهدة الأحوال علىٰ قدر الانفراد معناه أن يتقي مما سوى الله سكونًا إليه واستحلاء له وفي قوله تعالىٰ: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ أي بجميع استطاعتكم.

قوله: قولهم في التقوى

التقوى مشاهدة الأحوال علىٰ قدر الانفراد.

الأحوال علىٰ قسمين: أحوال الظاهر وهي الطاعة وأحوال الباطن مثل المشاهدة والخوف والرجاء وما أشبه ذلك.

معناه أن العبد ينبغي أن ينفرد عن هذه الأحوال بمعنى عدم رؤيتها وسكونه إليها والاستحلاء به بل ينفرد عما سوى الله سكونًا إليه واستحلاء به قوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ **أي بجميع استطاعتكم.**

أي ليس معنى الآية أنه إفعل التقوى بمقدار طاقتك فيه كسائر الخدمة لله تعالىٰ.

فإنه يكون بمقدار الطاقة فيه، بل معناها إفعل التقوى بجميع الاستطاعات التي فيك لئلا يقطعك عني شيء عرض لك[2].

---

(١) التقوى مشاهدة الأحوال علىٰ قدم الانفراد، أو أن لا ترى في قلبك شيئًا سواه، وقيل: هو أن تزين سريرتك للحق كما تزين علانيتك للخلق وقيل: هو ترك ما دون الله، وقيل ترك حظوظ النفس ومباينة النهي، وقيل: أن لا ترى نفسك خيرًا من أحد، وقيل الاقتداء بالنبي عليه الصلاة والسلام قولاً وفعلاً.

المعجم الصوفي (ص٥٤)

(٢) روى ابن أبي حاتم بسنده عن ابن مسعود ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ [آل عِمرَان: ١٠٢] قال: أن يطاع فلا يعصى، وأن يذكر فلا ينسى وأن يشكر فلا يكفر» وهذا إسناد صحيح موقوف، وقد رواه ابن مردويه عن ابن مسعود، وكذا الحاكم في المستدرك وقال: صحيح علىٰ شرط الشيخين ولم يخرجاه، والأظهر أنه موقوف والله أعلم.

تفسير ابن كثير (١/ ٣٨٧)

قال سهل: ما استطعتم إظهار الفقر والفاقة إليه.

قال محمد بن سنجان: التقوى ترك ما دون الله.

قال سهل في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾.

قال: هو التبري وهو الإخلاص.

قال غيره: أصل التقوى مجانبة الهوى ومباينة النفس فعلىٰ قدر ما فاتهم من حظوظ أنفسهم أدركوا اليقين.

قوله: إظهار الفقر والفاقه إليه.

أي إلىٰ الله تعالىٰ لأن صفة العبد الفقر والفاقة بل ليس له إلّا ذلك، وكل يعرض ما له.

قوله: ترك ما دون الله.

أي ترك الرغبة والهبة مما سوى الله تعالىٰ وقطعهما عنه.

قوله: ﴿وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ هو التبري والإخلاص.

قال الله تعالىٰ: «**الذي ينالني ويصل إليَّ من أُضحيتكم ليس الدم واللحم، بل تقواكم**»[1]، وفسر سهل ذلك التقوى بالتبري، أي عن نفسه وعن كل ماله، فمن كان تبريه أكثر كان أخلص وأظهر، فالتبري هو الإخلاص.

قوله: التقوى مجانبة الهوى.

أي هو النفس، ومباينة النفس أي بمخالفتها وترك هواها، فعلى قدر ما فات العباد من حظوظ النفس وجدوا اليقين وأدركوه، لأن اليقين إنما يكون في الغائب، وتسكن النفس مع ما حضرها من حظوظها، مهما حضرت حظوظها فتستأنس النفس معها فيفوت الغائب فارتفع اليقين، بل لا يحصل، فإذا فاتت حظوظ النفس[2] تغيب النفس، وإذا غابت النفس يصير الغائب حاضرًا فيحصل اليقين.

---

(١) بالهامش: لكن استدراك: من قوله تعالىٰ: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن﴾ . . . إلخ.

(٢) حظوظ النفس لا تجتمع مع الحقوق لأنهما ضدان لا يجتمعان، والحقوق هي الأحوال =

أنشدونا للنوري:

إني اتقيتك لا مهابة … من محاذرة المصير
إني وكيف وأنت لي … إلف يفوق مدى السَّمير

والدليل على ذلك خبر حارثة[1]، فإنه إذا غيب نفسه عن الحظوظ النفسانية حضره ما غاب عنه من الأمور الأخروية.

قوله:

إني اتقيتك لا مهابة … من محاذرة المصير

يعني خوفي منك ليس لأجل أن مصيري إلى العذاب لأن العذاب للنفس.

والنفس فداء للمحبوب **أني وكيف.**

ولم يكون خوفي من هذا المعنى وأنت لي إلف ومحبوب، تفوق وتفضل كل سمير؟

والسمير من يقول معك السمر[2]، ليكون لك معه أُنس ومحبة، يعني أنت فائق على كل مؤنس لي بحيث لم يبق لي أُنس مع غيرك، ولي معك إلف، لم يجر على سري غيرك، فإذا كان حالي وإلفي معك هكذا، فكيف يكون خوفي من عذاب المصير.

وأيضًا لم يكون خوفي من عذاب المصير وأنت توفي البواطن سرها وتعلم مكنون كل ضمير.

=

والمقامات والمعارف والإرادات والقصود والمعاملات والعبادات، قال الطيالسي الرازي: إذا ظهرت الحقوق غابت الحظوظ وإذا ظهرت الحظوظ غابت الحقوق.

المعجم الصوفي (ص٧٨)

(١) نلاحظ أن حقيقة إيمان حارثة التي وافقه عليها رسول الله ﷺ ليس فيها علمًا باطنيًا أو سرًا لو كشفه الحارث لبطلت النبوة والشريعة وإنما تتضمن تصديقًا حقيقيًا بحقائق الإيمان بالغيب، فكأنه يرى الجنة وكأنه يرى النار ونؤكد على لفظه "وكأني" التي كررها ووافقه عليها سيد البشر من الأولين والآخرين ومن هنا نرى أن الإيمان ليس إقرارًا قلبيًا باطنيًا فقط وإنما هو التصديق القلبي الموافق للانقياد لأوامر الله ﷻ فالإيمان إذن هو اسم جامع لأعمال الجوارح الظاهره وأعمال القلب الباطنة كما هو الحال في الإسلام.

(٢) بالهامش/ السمر: الحكاية.

تـوقـى الـسـرائـر سـرهـا　　وتحوط مكنون الضمير
لـكـن أجـلـك أن أجـل　　سواك للخطر الحقير

يعني إذا علمت من السرائر ما لا يعلم غيرك يكون الخوف منك لا من غيرك.

ويحتمل أن يكون معناه أن سرّي ممتلئ منك بحيث لا يكون لغيرك فيه موضع ومجال، وإذا لم يخطرني غيرك فكيف أخاف منه، لأن الخوف مما يخطر بالبال.

قوله: توقى السرائر.

خبر لقوله: أنت بعد خبر، وقوله **لكن** استدراك من قوله **لا مهابة**.

يعني **إني اتقيتك** لأن جلالتك وعظمتك عندي أكبر من **أن أجلّ سواك**.

يعني مع جلالتك وعظمتك لم يبق لغيرك عندي جلالة لأن خطر غيرك، أي شرفه ومرتبته في خطرك عندي حقير، بل لم يبق لغيرك عندي خطر ومقدار.

❊ ❊ ❊

الباب الثاني والأربعون
قولهم في الإخلاص

قال الجنيد: الإخلاص ما أريد به الله من أي عمل كان قال رويم: الإخلاص ارتفاع رؤيتك من الفعل.

سمعت فارسًا يقول: قدم علىٰ أبي بكر القحطبي قوم من الفقراء من أهل خراسان، فقال لهم أبو بكر: بم يأمركم شيخكم؟ يعني أبا عثمان فقالوا: يأمرنا بكثرة الطاعة مع التزام رؤية التقصير فيها، فقال: ويحه ألا يأمركم بالغيبة عنها برؤية مبديها[1].

قيل لأبي العباس بن عطاء: ما الخالص من الأعمال؟

قوله: قولهم في الإخلاص[2]

قوله: ارتفاع رؤيتك من الفعل.

أي لا ترى ما يفعل منك (بك)[3] من الحق، لأنك محل الفعل ولست بفاعل حقيقة، بل الفاعل الحقيقي هو الله تعالىٰ.

قوله: ألا يأمركم بالغيبة عنها.

أي عن الطاعة مع رؤية موجد تلك الطاعة، لأن مع رؤية التقصير في الطاعة يكون رؤية اثنين وهي حال المجوس فإنهم يرون اثنين نورًا وظلمة.

---

(١) بالهامش: ذكر من أول: «**سمعت فارسًا إلىٰ مبديها**» ثم قال إنها من المتن.

(٢) الإخلاص هو أن لا يفعل العبد المخلص فعلًا إلا لله تعالىٰ وألا تكون حركاته وسكناته وقيامه وقعوده وتقلباته وأقواله لسوى الله تعالىٰ بمعنى أن يجرد بواعثه للواحد.
المعجم الصوفي (ص١٦)

(٣) وجدناها أسفل الكلمة التي قبلها بالأصل.

قال: ما خلص من الآفات.

قال أبو يعقوب السوسي: الخالص من الأعمال ما لم يعلم به ملك فيكتبه، ولا عدو فيفسده، ولا النفس فتعجب به، معناه انقطاع العبد إلىٰ الله جل وعز والرجوع إليه من فعله.

قوله: ما خلص من الآفات.

أي من مفسدات العمل، وهو رياء[1] الخلق وعجب النفس وطمع العوض ورؤية العمل.

قوله: معناه انقطاع العبد إلىٰ الله والرجوع إليه من فعله لأن العبد إذا رأى ما فعله يكون فعله معه فللعدو والنفس والملك إليه سبيل.

وإذا لم ير ما فعله يجعله الله من خالصة عباده ومع خالصة عباده لا سبيل للملك ولا للعدو ولا للنفس إليه، لأنه حينئذ يصير محفوظًا للحق والملك يكتب من الحسنات ما يكون فيه طمع ثواب.

❊ ❊ ❊

---

(١) الرياء هو ترك الإخلاص في العمل بملاحظة غير الله فيه، والمرائي ثوبه نظيف وقلبه نجس يزهد في المباحات ويكسل عن الاكتساب ويأكل بدنيه ولا يتورع جملة، ويحب الحرام ويخفي أمره علىٰ العوام ولا يخفى علىٰ الخواص، وزهده وطاعته في ظاهره، وظاهره عامر وباطنه خراب، هكذا عند الجيلاني.

المعجم الصوفي (ص١١٤)

الباب الثالث والأربعون
قولهم في الشكر

قال الحارث المحاسبي: الشكر زيادة الله للشاكرين معناه إذا شكر زاده الله توفيقًا فزاد شكرًا.

قال أبو سعيد الخراز: الشكر الاعتراف للمنعم والإقرار بالربوبية.

قوله: قولهم في الشكر[1]

معناه إذا شكر زاده الله توفيقًا، فزاد شكرًا.

يعني كل طاعة يفعلها العبد إنما يكون بتوفيق الله تعالىٰ، فإذا رأى طاعته ولم ير توفيقه فتلك الطاعة غير مقبولة، فانقطع الشكر.

أما إذا رأى توفيق الله ولم ير طاعته فتكون مقبولة فيوفقه الله للزيادة.

قوله: الشكر الاعتراف للمنعم والإقرار بالربوبية.

الاعتراف للمنعم بأن النعمة منه لا من غيره.

والإقرار بالربوبية ليصح الاعتراف المذكور، لأن الشكر من غير الإقرار لا يوجد.

---

(١) الشكر هو الاعتراف للمنعم والإقرار بالربوبية، وينقسم إلىٰ شكر باللسان وهو اعترافه بالنعمة بنعت الاستكانة، وشكر بالبدن والأركان وهو اتصاف بالوفاق والخدمة وشكر بالقلب وهو اعتكاف علىٰ بساط الشهود بإدامة حفظ الحرمة، والشكور هو من يشكر علىٰ المنعم، والشاكر من يشكر علىٰ العطاء وقيل الشكور: من يرى عجزه عن الشكر وهو الباذل وسعه في أداء الشكر بقلبه ولسانه وجوارحه اعتقادًا واعترافًا وعملًا.

المعجم الصوفي (ص١٣٦)

قال أبو علي الروزباري:

لو كل جارحة مني لها لغة تثني عليك بما أوليت من حسن
لكان ما زاد شكري إذ شكرت به إليك أزيد في الإحسان والمنن

قال بعض الكبراء: الشكر هو الغيبة عن الشكر برؤية المنعم.

قال يحيى بن معاذ: لست بشاكر ما دمت تشكر وغاية الشكر التحير[١]،

قوله:

لو كل جارحة مني لها لغة تثني عليك بما أوليت من حسن
لكان ما زاد شكري إذ شكرت به إليك أزيد في الإحسان والمنن

قوله: كل جارحة، فاعل فعل محذوف يفسده ما بعده وهو **تثني**.

والمراد بالجارحة العضو، **قوله: ما زاد شكري** ما فيه بمعنى الذي، وشكري مفعول زاد.

قوله: ما زاد شكري هو توفيق الشكر[٢]، فإنه يزيد الشكر لأنه نعمة منه.

يريد أن ما أعطيتني من توفيق الشكر لتجدد النعمة الموجودة معي بقاء وحصلت لي النعمة المعدومة وما زالت بكفران النعمة الموجودة ولم أحرم من المعدومة أزيد من تلك النعمة، لأن النعمة بالحقيقة إنما هو بقاؤها واستمرارها لا وجودها من غير الاستمرار، واستمرارها إنما حصل بتوفيق الله تعالىٰ زيادة الشكر فهو أزيد من النعمة.

قوله: وغاية الشكر التحير.

لأن الشكر إنما يكون بتوفيق الله تعالىٰ العبد له فيكون لذلك التوفيق شكر،

---

(١) التحير منزلة تتولى قلوب العارفين بين اليأس والطمع في الوصول إلىٰ المطلوب والمقصد، ولا تطمعهم في الوصول فيرتجوا، ولا تؤسيهم عن الطلب فيستريحوا فعند ذلك يتحيرون. المعجم الصوفي (ص٥٠)

(٢) من أسمائه الحسنى الشكور وهو الذي يجازي بالخير الكثير علىٰ العمل اليسير، وقال بعض المشايخ الشكور من الشكر وهو إظهار متبطن فعلًا أو قولاً. ومن عرف أنه الشكور، فإنه يكون شاكرًا لنعمته وآثر طاعته وطلب رحمته وشهد منته فكان به وله.

وحقيقة الشكر في حقنا فرح القلب بالمنعم لأجل نعمه حتى يتعدى ذلك إلىٰ الجوارح فتقوم =

وذلك أن الشكر نعمة من الله يجب الشكر عليها، وهذا لا يتناهى.

أنشدونا لأبي الحسن النوري:

سأشكر لا أني أجازيك منعمًا   بشكري ولكن كي يقال له الشكر

واذكر أيامي لديك وحسنها   وآخر ما يبقى علىٰ الشاكر الذكر

كان بعض الكبراء يقول في مناجاته: اللهم إنك تعلم عجزي عن مواضع

ولذلك الشكر توفيق وهلم جرّا إلىٰ ما لا نهاية له.

﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

فإذا لم ير العبد للشكر نهاية (ويرى أيضًا وجوب الشكر عليه، فرؤية وجوب ما لا نهاية له يوجب التحير، وأيضًا إذا لم ير العبد للشكر نهاية)[1] ولا يكون له نهاية فيتحير العبد، فذلك التحير هو غاية الشكر، لأن كل ما لانهاية له فنهايته في بدايته.

قوله: منعمًا، حال من مفعول أجازيك.

أو هو بدل منه، يعني لا إني أجازي إنعامك علي.

قوله: واذكر أيامي لديك وحسنها.

والمراد بتلك الأيام الأزل[2]، وبحسنها إشارة إلىٰ ما سبقت له من الله حسناه في الأزل.

يقول: إذا أذكر تلك الأيام أرى عجزي عن شكرها وليس لي من الشكر إلا ذكره، لأن العبد في كل وقت ونفس لائح من نعمة ومنة من الله، فإذا اشتغل بشكر الوقت لا يكون له فراغ شكر ما مضى فلا يبقى من شكره إلا ذكره.

=

بالخدمة علىٰ بساط الحرمه.

شرح أسماء الله الحسنى لزروق (ص٨٦) من تحقيقنا - طبعة دار الكتب العلمية

(١) وجدناه بالهامش.

(٢) الأزل هو القدم، والأزل والأزلية لله تعالىٰ ولا يتسمى بالأزل شيء غير الله جل جلاله، والأزل اسم من أسماء الأولية فهو الله القديم الذي لم يزل ولا يزال والأزلية من صفاته.

المعجم الصوفي (ص٢٠)

شكرك، فأشكر نفسك عني.

قوله: فأشكر نفسك عني.

وهذا كما عجزت الأمة عن الصلاة على النبي عليه الصلاة والسلام التي تليق به[1]، فأحالوها إلى الله عز وجل.

فقالوا: اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد، وإذا أحالوا الصلاة على مخلوق إلى الله بناء على أنهم عجزوا عن الصلاة التي تليق به عليه، فكيف لا إلى الله إذا عجزوا عن شكره.

* * *

(١) الصلاة على النبي ﷺ أمر إلهي في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ٥٦﴾ [الأحزاب: ٥٦].

وفي صحيح مسلم كتاب الصلاة، حديث رقم (٧٠) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: **«من صلى عليَّ واحده صلى الله عليه عشرًا»**.

قال النووي: قال القاضي: معناه رحمته وتضعيف أجره كقوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ﴾ [الأنعام: ١٦٠] قال: وقد يكون الصلاة على وجهها وظاهرها تشريفًا له بين الملائكة، كما في الحديث: **«وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم»**.

شرح مسلم للنووي (٤/ ١٠٩) طبعة دار الكتب العلمية

الباب الرابع والأربعون
قولهم في التوكل

قال سري السقطي: التوكل الانخلاع من الحول والقوة.

وقال ابن مسروق: التوكل الاستسلام لجريان القضاء في الأحكام.

قال سهل: التوكل الاسترسال بين يدي الله تعالىٰ قال أبو عبد الله القرشي: التوكل ترك الإيواء إلَّا إلىٰ الله.

قال الجنيد: حقيقة التوكل أن يكون لله تعالىٰ كما لم يكن فيكون الله له كما لم يزل.

قوله في التوكل[1]

قوله: الانخلاع من الحول والقوة، أي من الحول عن معصية الله، والقوة علىٰ طاعة الله، بأن لا ترجوهما من نفسك بل من الله تعالىٰ.

قوله: الاستسلام لجريان القضاء في الأحكام يعني الانقياد بجريان القضاء في كل فعل، وقول من غير اضطراب واعتراض هو التوكل.

قوله: التوكل أن يكون لله كما لم يكن فيكون الله له كما لم يزل.

يعني أن يكون العبد بعد الوجود لله كما كان قبل الوجود، وقبل الوجود كان قسمة الله له من غير تدبير، فبعد الوجود يكتفي بتلك القسمة ولا يدبر.

فيكون حال الوجود وحال العدم سواء ليكون الله يحفظه بقسمة الأزلية.

---

(١) سئل يحيى بن معاذ متى يكون العبد متوكلاً، فقال: إذا رضي بالله تعالىٰ وكيلاً، والتوكل يقتضي مقام الرضا.

وعرفه السري السقطي أنه الانخلاع من الحول والقوة وابن مسروق أنه الاستسلام لجريان القضاء في الأحكام والتوكل المقصود هو توكل العنايه لا توكل الكفاية، وهو أن يطالب العبد ربه بالأعواض، والتوكل اشتراطه مقام الإحسان، وتوكل المحسنين عباره عن صرف الأمر إلىٰ الله تعالىٰ.

المعجم الصوفي (ص٦١)

قال أبو سعيد الخراز: قامت الكفايات من السيد لأهل مملكته فاستغنوا عن مقامات التوكل عليه ليكفيهم، فما أقبح التقاضي بأهل الصفاء.

جعل التوكل عليه لأجل الكفاية تقاضى القيام بالكفاية[١].

كما قال الشبلي: التوكل كدية حسنة.

قال سهل: كل المقامات له وجه وقفا غير التوكل فإنه وجه بلا قفا.

قوله: قامت الكفايات من السيد لأهل مملكته.

أي استقامت الكفايات الدينية والدنياوية من الله لأهل مملكته، فاستغنى أهل مملكته عن مقام التوكل ليكفيهم الله لأنه علم ما يحتاجون إليه، وكم يحتاجون، ومتى يحتاجون، ولا يجوز عليه الخطأ والغلط، وبهذا يشير إلىٰ ضعف مقام التوكل وأنه مقام المريد المبتدي، لأن التوكل حينئذ هو التقاضي من الله للقيام بالكفاية في السرّ، فالعام يتقاضون باللسان والخاص يتقاضون بالسرّ، فما أقبح التقاضي بأهل الصفا، لأن مقام الصفا مقام لا يبقى معه الرعونات، والتقاضي يستلزم الطمع وهو دعوته.

كما قال الشبلي رحمة الله عليه: التوكل كدية حسنة، لأن الكدية نطقية وسكوتية.

وعطية السكوتية أكبر من عطية النطقية.

قوله: كل المقامات له وجه وقفا غير التوكل فإنه وجه بلا قفا.

وإنما كان كذلك لأن كل مقام صفة العبد.

---

(١) من الأسماء الحسنى اسم الله الوكيل وهو المتكلف بمصالح عباده والكافي لهم في كل أمر، وقال بعض المشايخ الوكيل من الوكالة، وهو تولي الترتيب والتدبير إقامة وكفاية وتلقيًا وترقيًا، فهو سبحانه الوكيل علىٰ كل شيء بحكم إقامته له والواجد من الخلق، ومن عرف أنه الوكيل اكتفى به في كل أمره فلم يدبر معه ولا يعتمد إلَّا عليه، وكفى بالله وكيلًا، والتقرب إليه باسمه الوكيل تعلقًا بالتوكل عليه وتخلقًا بأن تكون وكيلًا علىٰ عوالمك بطلب حقه تعالىٰ منها تكليفًا وتعريفًا.
شرح أسماء الله الحسنى لزروق (ص١١٦، ١١٧) من تحقيقنا ـ طبعة دار الكتب العلمية

يريد توكل العناية لا توكل الكفاية، وهو أن لا يطالبه بالأعواض.

وقال بعضهم: التوكل سر بين العبد وبين الله معناه كما قال بعض الكبراء: حقيقة التوكل ترك التوكل.

وهو أن يكون الله لهم حيث كان لهم إذا لم يكونوا موجودين.

وفي صفته يجوز الإقبال والإدبار والتوجه إليه والتقفية عليه بخلاف توكل العناية فإنه التفويض وترك الطلب والاختيار، فلا يطلب منه عوضًا لا دنيويًا ولا أخرويًا.

فهو وجه بلا قفا، أي فهو وجه سره إلىٰ الله من غير إدبار، بأن لا يرى غيره.

قوله: التوكل سرّ بين العبد وبين الله.

لأن سائر المقامات[1] إذا ظهرت في السرّ يظهر أثره علىٰ الظاهر، وذلك الأثر الظاهري يدل علىٰ مقام الباطن، كما أن المحبة يدل الإسراع في الطاعة عليها.

والخوف يدل علىٰ الفرار من المعصية بخلاف التوكل فإنه مقام في الباطن لا يدل عليه في الظاهر شيء، لأن الدليل عليه لو كان لكان هو الترك.

والترك قد يكون بالاختيار، وقد يكون بغيره، فلا يعلم أن الترك لأي شيء فالتوكل سرّ لا يعلمه إلَّا الحق.

وأيضًا حقيقة التوكل هو التفويض للسرّ، فلا يطلع عليه إلَّا الحق.

قوله: حقيقة التوكل ترك التوكل.

أي ترك توكل الكفاية، وقد فسره صاحب الكتاب بالتفويض.

---

(١) المقامات مثل التوبه والورع والزهد والفقر والصبر والرضا والتوكل وغير ذلك، والمقام في التصوف معناه مقام العبد بين يدي الله ﷻ بما يقوم به من مجاهدات ورياضات وعبادات وشرطه أن لا يرتقي من مقام إلىٰ مقام إذا لم يستوف أحكام ذلك المقام ففي مقام القناعة مثلًا ما لم يتحقق العبد بها لتكون القناعة له ملكة لم يصح له الارتقاء إلىٰ مقام التوكل.
المعجم الصوفي (ص٢٣٧)

قال بعض الكبار لإبراهيم الخواص: إلىٰ ماذا أدى بك التصوف؟ فقال: إلىٰ التوكل[١].

فقال: ويحك بعد أن تسعى في عمران بطنك.

معناه أن توكلك عليه لأجل نفسك احتراز من مكروه يصيبها.

قوله: معناه أن توكلك عليه لأجل نفسك احتراز من مكروه يصيبها.

ومن هو يسعى في احتراز النفس من مكروه يصيبها، فهو عابد النفس لا عابد الحق.

* * *

---

(١) توكل الشهداء عبارة عن رفع الأسباب والوسائط بنظرهم إلىٰ المسبب سبحانه وتعالى وتصرفه فيهم قد جعلوا توكلهم عليه يجعل إرادته عين مرادهم، فليس لهم اختيار يتميزون به في طلب، بل جميع ما يريده الله تعالىٰ هو اختيارهم وإرادتهم، وتوكل الصديقين إرجاع شأن ذواتهم إلىٰ شأن ذات الحق تعالى، فلا يقع نظرهم علىٰ أنفسهم فهم متوكلون علىٰ الله تعالىٰ بالاستغراق في شهوده والاستهلاك في وجوده.

المعجم الصوفي (ص٦١)

الباب الخامس والأربعون
قولهم في الرضا

قال الجنيد: الرضا ترك الاختيار، قال حارث: الرضا سكون القلب تحت جريان الحكم.

قال ذو النون: الرضا سرور القلب بمرّ القضاء.

قوله: في الرضا[1]

الرضا رفع الاختيار، يعني رضا بما فعله الله تعالىٰ من محبوب ومكروه.

والذي يدل عليه قول رسول الله ﷺ: «**من لم يرض بقضائي ولم يشكر لنعمائي، ولم يصبر علىٰ بلائي، فليطلب ربًا سوائي**»[2].

قوله: الرضا سكون القلب تحت جريان الحكم.

وذلك بمقدار اليقين، فمن صح يقينه يطمئن قلبه ولا يضطرب لما جرى عليه من حكم الله.

قوله: الرضا سرور القلب بمرّ القضاء.

وهذا الكلام أعلى مما قبله، لأن السرور شيء سواء كان نعمة أو محنة يدل علىٰ الطلب له والسكون عن شيء لا يدل علىٰ الطلب له، وأيضًا السرور مستلزم للسكون، بخلاف العكس والسرور أدل علىٰ قوة الرضا من السكون.

---

(١) الرضا آخر مقامات السالك والرضا سكون القلب تحت جريان الحكم، وقال الدقاق ليس الرضا أن لا تحس بالبلاء وإنما الرضا أن لا تعترض علىٰ الحكم والقضاء وشرطه أن يكون بعد القضاء وأما قبله فإنه عزم علىٰ الرضا ورضا المحسنين عن الله تعالىٰ بالقضاء لكن لا يلزم من هذا أن يرضوا بالمقضى، لأن الله تعالىٰ يقضي مثلاً بالشقاوة فرضاهم عن الله بالقضاء إذا القضاء حكم الله تعالىٰ فيجب الرضا بحكمه.

المعجم الصوفي (ص١٠٨)

(٢) أخرجه: الزبيدي في الإتحاف (٩/ ٦٥١)، وابن القيسراني في تذكرة الموضوعات (٨٨٤)، وابن عساكر في تهذيب تاريخ دمشق (٦/ ١٢٨).

قال رويم: الرضا استقبال الأحكام بالفرح.

قال ابن عطاء: الرضا نظر القلب إلىٰ قديم اختيار الله للعبد، فإنه اختار له الأفضل.

قال سفيان عند رابعة: اللهم أرض عني.

فقالت له: أما تستحي أن تطلب رضا من لست عنه براض.

قوله: استقبال الأحكام بالفرح.

وهذا الكلام أعلى مما قبله لأن استقبال الأحكام بالسرور يستلزم السرور بها بخلاف العكس.

والاستقبال بالسرور يدل علىٰ قوة الرضا[١].

قوله: فإنه اختيار الأفضل.

لأنه إذا اعتقد العبد أن الإيمان الذي هو الأصل أعطاه إياه من غير سابقة منه فيعلم حسن اختيار الله تعالىٰ في حقه، وإذا علم ذلك فيعرف بعد ذلك أن ما فعله الله معه من محبوب ومكروه إذا لم يضره بإيمانه هو الأفضل في حقه لصلاح إيمانه فيه، لأنه لو أعطاه مكروهًا مقام المحبوب، أو محبوبًا مكان المكروه ربما فيه زوال الإيمان، وإذا كان كذلك فلا يبقى الاعتراض.

قوله: (قال سفيان عند رابعة: اللهم ارض عني.

فقالت له: أما تستحي أن تطلب رضا من لست عنه براض)[٢].

واعلم أن سفيان من أهل المعاملة وهم يفعلون لطمع الثواب وطلب الرضا.

ورابعة من أهل المعرفة، وهم لا يتقاضون ولا يسألون بل يعملون لوجه الله لا

---

(١) رضا الشهداء هو محبتهم لله تعالىٰ من غير طلب وصول أو نفوذ من هجر أو بعاد، بل علىٰ البعد واللقاء والسخط والرضا، لا يرجعون عن محبتهم ولا يلتفتون إلىٰ راحتهم، ورضا الصديقين هو سكونهم إلىٰ الحق كلما ضاق بهم الطريق أثناء ترقيهم في الحضرة الإلهية. المعجم الصوفي (ص١٠٨)

(٢) وجدناه بالهامش.

قال سهل: إذا اتصل الرضا بالرضوان اتصلت الطمأنينة فطوبى لهم وحسن مآب.

يريد قوله جل وعز ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾، فمعناه الرضا في الدنيا تحت مجاري الأحكام، يورث الرضوان في الآخرة بما جرت به الأقلام.

لغيره، فالتقاضي من سفيان يدل على عدم رضاه من الله بما يفعله **قوله: إذا اتصل الرضا بالرضوان**[1].

قال صاحب الكتاب: **فمعناه الرضا في الدنيا تحت مجاري الأحكام يورث الرضوان في الآخرة، بما جرت به الأقلام.**

يعني أن الرضا من العبد في الدنيا تحت مجاري الأحكام بما جرى به القلم في الأزل يورث العبد في الآخرة ثمرة الرضوان من الله.

قيل: هذا ضعيف، لأنه جعل رضا العبد سببًا لوجود رضى الحق، والأمر بالعكس.

وقال: بل معنى كلام سهل إنه إذا اتصل الرضا الأزلي بالرضوان الأبدي، يعني إذا رضي الله عن العبد في الأزل رضى عنه في الأبد، وفيه نظر لأنه يحتمل أن يكون مراد صاحب الكتاب من كون رضى العبد مورثًا لرضوان الله سببًا هو علامة تدل على رضوان الله عنه لا موجدًا لرضوان الله وذلك ظاهر.

قوله: اتصلت الطمأنينة.

أي طمأنينة العبد بمجاري الأحكام بما جرى به القلم في الأزل، فطوبى للعباد وحسن مآب أي إلى الله عز وجل.

---

(١) قيل الرضا على ثلاثة أحوال، فمن المتصوفة من يسقط الجزع حتى يكون قلبه مستويًا لله فيما يجري عليه من حكم الله ومنهم من ذهب عن رؤية رضاه عن الله ﷻ برؤية رضا الله عنه ومنهم من جاوز هذا وذهب عن رؤية رضا الله عنه ورضاه عن الله لما سبق من الله تعالى لخلقه من الرضا.

وهناك رضا الصديقين وهو سكونهم إلى الحق كلما ضاق بهم الطريق أثناء ترقيهم في الحضرة الإلهية.

المعجم الصوفي (ص١٠٨)

قال الله تعالىٰ: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

فهو قول الفريقين من أهل الجنة والنار من الموحدين من أهلها، فإن المشركين لا يؤذن لهم في الحمد لأنهم محجوبون.

والذي يدل علىٰ أن الرضا في الدنيا يورث الرضوان في الآخرة للموحدين[١] قول الله تعالىٰ: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (يعني وقضى بين العباد بالحق، وقيل الحمد لله رب العالمين)[٢].

وهو قول الفريقين من أهل الجنة والنار من الموحدين.

يعني كما أن المؤمنين الذين يحشرون إلىٰ الجنة يقولون الحمد لله رب العالمين، فكذا المؤمنون الذين يحشرون إلىٰ النار يقولون الحمد لله رب العالمين.

وذلك لأنهم يرون أولًا أن الله تعالىٰ راضٍ عنهم وهذا العذاب عذاب تأديب لا عذاب قطيعة فلأجل ذلك يحمدون الله تعالىٰ، لأنهم لما رأوا بقاء الإيمان معهم يعلمون أنهم لا يخلدون.

فلهذا السرور يحمدون الله تعالىٰ، أو لأنهم لما وجدوا حلاوة المحبة لم يؤثر ألم العذاب في أنفسهم، فلهذا يحمدون الله تعالىٰ، فمن صح إيمانه ورضي بعذاب النار يوم القيامة ويحمد الله عليه، فرضاؤه بمحن الدنيا أولى بحمده.

وقال الكبار: إن رضا العبد المؤمن بالقيامة وحمده إنما يكون لأنه ليس له في النار إلَّا حبس لأن الحبس بنفسه عقوبة.

---

(١) لا سبيل إلىٰ توحيد الحق بلا قال ولا حال، والموحد بالقول لا يشهد بالسر منفردًا به، والموحد بالحال غائب بحاله عن الأقوال، وعلامة الموحد أن لا يجري له خاطر لا حقيقة له عند الحق، فالشواهد عن سره مصروفة والأعواض عن قلبه مطرودة فلا شاهد يشهده ولا عوض يعبده ولا سر يطالعه وهو في حظه الذي هو فيه عن سائر حظوظه مسلوب وفي حقه عن كل حق آخر محجوب فلا نصيب له في نصيب وهو مأسور في نصيبه وهو أوفر نصيب، والحق أوفر نصيب ومن فاته الحق فليس له شيء وإن ملك الكون، ومن وجد الحق فله كل شيء وإن لم يملك ذرة.

المعجم الصوفي (ص٢٤٢)

(٢) وجدناه بالهامش.

أنشدونا للنوري:

إن الرضا لمرارات تجرعها عن القنوع إذا ما استعذب الكدر

والمحب لا يعاقب بعقوبتين، والذي يدل علىٰ أن الحمد المذكور إنما صدر عن الموحدين لا غير أن المشركين لا يؤذن لهم في الحمد، لأنهم محجوبون عن الحق لخلو أنفسهم عن الأعمال الصالحة، وقلوبهم عن المعرفة، فكيف ينطلق لسانهم بالحمد، لأن الحمد شكر النعمة والقطيعة ليست بنعمة ليحمد عليها.

قوله:

إن الرضا لمرارات تجرعها عن القنوع إذا ما استعذب الكدر

القنوع بالفتح صفة مشبهة من القناعة[١] بالفتح وهو الرضا بالقسم.

وقال بعض أهل العلم إن القنوع بمعنى الرضا.

وهذا هو المناسب في البيت.

وتجرعها مبتدأ خبره إذا ما استعذب الكدر.

والجملة صفة مرارات، يريد أن الرضا إنما يحصل للعبد إذا تجرع كل المرارات التي تعرض له، ولا يضطرب ولا تزعجه عن حاله[٢].

وذلك إنما يكون إذا فوض الأمر إلىٰ الله تعالىٰ فحينئذ يستعذب عنده كل كدر ويصفو.

---

(١) القناعة الاكتفاء بالقوت الضروري، والاختصار علىٰ ما لا بد من الملبوس والمفروش والمأكول، وإيثار القليل علىٰ الكثير، قال أبو هريرة قال رسول الله ﷺ يومًا: يا أبا هريرة إذا اشتد بك الجوع فعليك برغيف وكوب ماء وعلى الدنيا الدمار.

المعجم الصوفي (ص٢٠٤)

(٢) الحال هو ما يرد علىٰ القلب أو يحل به من كرب أو حزن أو بسط أو قبض وتسمّى الحال بالوارد أيضًا.

والأحوال سميت بذلك لحول العبد بها من الرسوم الخلقية ودركات البعد إلىٰ الصفات الحقيه ودرجات القرب.

المعجم الصوفي (ص٧١)

عواقب أشهدت بعض الحضور   فما يرعى التكثُّر إلَّا تافه نزر

قوله:

عواقب أشهدت بعض الحضور   فما يرعى التكثُّر إلَّا تافه نزر

التافه: الحقير اليسير، والنزر: القليل التافه.

والمعنى أنه إذا حصل للعبد الرضا علىٰ الوجه المذكور فعاقبته أن يرى بعض الحضور.

يعني يصير بصيرًا بمعطى البلاء، فحينئذ يطيب كل بلاء علىٰ نفسه، ويفعل ذلك من يطلب التكثر، من هو بذاته حقير قليل، كما أن العز لا يطلبه إلّا ذليل، وأن الغني لا يطلبه إلَّا فقير، فمن هو غير راض بما وجده فهو ذليل فقير قليل يطلب أكثر منه.

وأما من يكون له مقام الحضور والمشاهدة فقد وجد كثرة صحبة الحق، فيكون أكثر من كل كثير، وأغنى من كل غني، وأعز من كل عزيز، فأي كثر وغنى وعزة يطلبه.

❊ ❊ ❊

الباب السادس والأربعون
قولهم في اليقين

قال الجنيد: اليقين ارتفاع الشك، قال النوري: اليقين هو المشاهدة.

قوله: في اليقين[1]

قال النوري: اليقين هو المشاهدة، والمشاهدة إما معاينة السرّ، وهو أن يكون كل ما يجب عليه الإيمان به يصير بحيث يراه بالسرّ ليصح منه اليقين وعلامة هذه المشاهدة هو أنه لو كشف ذلك المحجوب لما غيره لا بالزيادة ولا بالنقصان.

وأما الحضور فيكون معناه أنه وإن كان غائبًا مثلًا من الموت والقبر والقيامة وغير ذلك من أحوال الآخرة، لكن قوة اليقين تصيره كأنه حاضر ثمة.

وعلامة ذلك أنه كلها لا يجوز صدوره عنه في تلك المقامات لا يجوز أن يصدر عنه في الوقت ـ (أي في الحال)[2] ـ وذلك دليل صحة اليقين، ولا شك أن من يرى جهنم معاينة يعلم أنه لو فعل الفعل الفلاني لأُدخل فيها، لا يفعل ذلك الفعل قطعًا.

ولو عاينته الجنة ويعلم أنه لو فعل الفعل الفلاني لدخل فيها، فلا يقعد عن ذلك الفعل، ولا يضعف ولا يفتر لحظة، فلو صح يقين العبد بعذاب جهنم ونعيم الجنة لصار حاله كأنه وقف بين الجنة والنار، وينظر بعين واحدة إلىٰ الجنة وبأخرى إلىٰ النار، فيكون حاله في المسارعة إلىٰ الطاعة والفرار عن المعصية حالة اليقين، كحاله حالة المعاينة.

---

(١) اختلفت فيه الأقوال فقيل هو التصديق بالغيب بإزاله كل ظن، وقيل هو المكاشفة، وهي علىٰ ثلاثة أوجه: مكاشفة العيان بالأبصار يوم القيامة ومكاشفة القلوب بحقائق الإيمان بمباشرة اليقين بلا كيف ولا حد، ومكاشفات الآيات بإظهار القدرة للأنبياء عليهم السلام بالمعجزات، ولغيرهم بالكرامات والإجابات.

ويقول ذو النون: كل ما رأته العيون ينسب إلىٰ العلم وما علمته القلوب إلىٰ اليقين.
المعجم الصوفي (ص٢٦٥)

(٢) وجدناه أسفل السطر.

قال ابن عطاء: اليقين ما زالت عنه المعارضة علىٰ دوام الوقت.

قال ذو النون: كل ما رأته العيون نسب إلىٰ العلم وما علمته القلوب نسب إلىٰ اليقين.

قوله: اليقين[١] **ما زالت عنه المعارضة علىٰ دوام الوقت.**

يريد بالمعارضة الاعتراض علىٰ الحق لا بسؤال ولا بردٍ.

وبقوله علىٰ دوام الوقت يشير إلىٰ استمرار زوال الاعتراض ليستمر اليقين لأنه لو اعترض في وقت ما، لدل ذلك منه علىٰ ضعف اليقين **قوله: قال ذو النون: كل ما رأته العيون نسب إلىٰ العلم، وما علمته القلوب نسب إلىٰ اليقين** قيل معناه العلم هو ما حصل للقلب من جهة الحواس، (فإن الحس إذا ارتسم فيه مثال شيء وأدركه القلب فهو علم، واليقين هو ما حصل للقلب لا من جهة الحواس)[٢].

وقد ذكر شيئين علمًا ويقينًا.

وعند أهل الحقيقة ثلاثة أشياء: علم اليقين، وحق اليقين، وعين اليقين[٣].

وبين القائل المذكور هذه الثلاثة بالمثال وهو أنه لو سمع وراء الحجاب صوتًا

---

(١) أهل اليقين علىٰ ثلاثة أحوال: فالأول الأصاغر وهم المريدون والعموم، ويقينهم أول مقام اليقين وهو الثقة بما في يد الله تعالىٰ وارتفاع الشك.

والثاني: الأوساط وهم الخصوص، والعبد الموقن منهم إذا تحقق باليقين ترحل من يقين إلىٰ يقين حتى يصير اليقين له وطنًا، والثالث: الأكابر وهم خصوص الخصوص واليقين عندهم في جملته هو الإثبات لله ﷻ بكل صفاته.

المعجم الصوفي (ص٢٦٠٥)

(٢) وجدناه بالهامش.

(٣) أرباب العقول لهم علم اليقين وهو ما كان بشرط البرهان، وأما الخواص وهم أصحاب العلوم فلهم عين اليقين وهو ما كان بحكم البيان، وأما أصحاب المعارف من الأنبياء والأولياء فلهم حق اليقين وهو ما كان بنعت العيان، وأما حقيقة حق اليقين فذلك ما اختص به نبينا عليه الصلاة والسلام.

وقيل نور الإيمان واليقين واحد سوى أن نور الإيمان من وراء الحجاب واليقين عند رفع الحجاب.

المعجم الصوفي (ص٢٦٦)

وقال غيره: اليقين عين القلب.

قال عبد الله: اليقين اتصال البين وانفصال ما بين البين.

معناه قول حارثة: كأني أنظر إلىٰ عرش ربي بارزًا اتصلت رؤيته بالغيب وارتفع ما بينه وبين الغيب من الحجب.

قال سهل: اليقين المكاشفة ....

يعرف بعلم اليقين أنه هناك شخص، فلو سمعه كلامًا منظومًا مفهوم المعنى يعرف بحق اليقين أنه إنسان، فلو رآه بالعين لعرف أنه زيد أو عمرو، فهو عين اليقين.

قال الكبار: علم اليقين في الدنيا لأنه مقام الاستدلال والامتحان، وحق اليقين الموت فإنهما مقدمتا العذاب والرحمة، وعين اليقين حال القيامة وقد جعل هذا القائل عين اليقين أعلى مرتبة من حق اليقين، وعند غيره حق اليقين أعلى من عين اليقين.

وقد فسره هذا القائل وهو أنه إذا استقرت المشاهدة وقويت ولم يتغير فهو حق اليقين وعين اليقين هو المشاهدة.

وقد ذكر القائل المذكور أن طائفة قالوا: علم اليقين للحواس الظاهرة، وحق اليقين للقلب، فإنه يتقلب.

وعين اليقين للسرّ فإنه لا يتقلب.

قوله: وقال غيره: اليقين عين القلب.

يحتمل أن يكون معناه اليقين معاينة القلب.

ويحتمل أن يكون معناه إدراك بعين القلب، فإن للقلب عينًا إذا انفتحت تلك العين فالإدراك الذي بها هو اليقين.

قوله: قال سهل اليقين المكاشفة[١].

---

(١) المكاشفة حضور القلب بنعت البيان، فيكشف له الله ﷻ ما يستتر علىٰ الفهم كأنه رآه رأي العين، ومكاشفات العيون بالأبصار، ومكاشفات القلوب بالاتصال.

المعجم الصوفي (ص٢٣٨)

كما قال: لو كشف الغطاء ما ازددت يقينًا[1].

كما قال: لو كشف الغطاء ما ازددت يقينًا.

معنى قوله: لو كشف الغطاء ما ازددت يقينًا، أنه لو كشف عن القيامة وأحوالها وغيرهما من المغيبات التي علمتها، فهو بحسب لو ارتفع غطاء الحواس وحجب الدنيا لما ازداد ما حصل لي من اليقين بما ذكر.

فالمكاشفة في هذه الصورة علىٰ التشبيه المذكور هو عين اليقين عند البعض وحق اليقين عند آخرين.

والمكاشفة عند الأكثرين هو عين اليقين، وهو دون حق اليقين.

* * *

(١) ذكره علي القاري في الأسرار المرفوعة (٢٩٣).

الباب السابع والأربعون
قولهم في الذكر

حقيقة الذكر أن تنسى ما سوى المذكور في الذكر لقوله تعالىٰ: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [الكهف: ٢٤] يعني إذا نسيت ما دون الله فقد ذكرت الله وقال النبي ﷺ: «**سبق المفردون**» قيل: ومن المفردون يا رسول الله.

فقال: «**الذاكرون كثيرًا والذاكرات**».

والمفرد الذي ليس معه غيره.

وقال بعض الكبار: الذكر طرد الغفلة، فإذا ارتفعت الغفلة فأنت ذاكر، وإن سكت.

أنشدونا للجنيد:

ذكرت لا أني نسيتك لمحة   وأيسر ما في الذكر ذكر لساني

قوله: في الذكر[1]

حقيقة الذكر أن تنسى ما سوى المذكور في الذكر أراد بهذا الذكر ذكر السر.

ولهذا قال أن تنسى، والنسيان ليس للسان.

قوله: الذكر طرد الغفلة، أي طرد غفلة القلب عن الحق قوله:

ذكرت لا أني نسيتك لمحة   وأيسر ما في الذكر ذكر لساني

الذكر والذكرى نقيض النسيان، يقال ذكرت الشيء بعد النسيان وذكرته بلساني

---

(١) الذكر هو الخروج من ميدان الغفلة إلىٰ فضاء المشاهدة علىٰ غلبة الخوف أو لكثرة الحب وهو بسط العارفين ونصاب المحبين وشراب العاشقين.

وحقيقته أن تنسى ما سوى المذكور، وأقسامه ذكر العوام وهو ذكر اللسان المستمد من القلب يردده المحب ويستعذب ترداده ويحب سماعه، وذكر الخواص وهو ذكر القلب ومعناه تصور حقيقة المحب في القلب والاستجماع له بالكلية وهذه هي المناجاة.

المعجم الصوفي (ص٩٨)

سمعت أبا القاسم البغدادي يقول: سألت بعض الكبار، فقلت: ما بال نفوس العارفين تتبرم بالأذكار وتستروح إلىٰ الأفكار وليس يفضي الفكر إلىٰ مقر ولأذكارها أعواض تسر.

فقال: استصغرت ثمرات الأذكار فلم تحملها عن مكابداتها، وبهرها شرف ما وراء الأفكار فغيبها عن ألم مجاهداتها.

معنى قوله: استصغرت ثمرات الأذكار لأنها كلها حظوظ النفس.

والعارفون قد أعرضوا عن النفوس وحظوظها وأما أفكارهم فإنها تكون في

وبقلبي يحتمل أن يكون المراد بالذكر في قوله: ذكرتك هو الذكر باللسان.

وقد نفى أن يكون هذا الذكر بعد النسيان بالقلب[1] بقوله: لا أني نسيتك لمحة، بل استمر ذكرك بالقلب، لأن ذكر اللسان أيسر من ذكر القلب فإذا لم أترك ما هو أدنى فكيف أترك ما هو أعلى وأشرف، ويحتمل أن يكون المراد بذكر القلب.

فالمعنى أني لا أغفل لمحة عن ذكرك بالقلب الذي هو أعلى وأشرف فلا أحتاج إلىٰ أن أذكرك باللسان الذي ذكره أدنى وأقل.

قوله: ما بال نفوس العارفين تبرم بالأذكار وتستروح بالأفكار، أي في الحق معناه أنهم في ابتداء الإرادة مولعون (أي حريصون) بالذكر، فإذا بلغوا النهاية سكت اللسان عن الذكر واشتغلوا بالذكر، لأن المريد طالب، والطالب ذاكر، فإذا بلغ نهاية المعرفة فالحال حال المشاهدة مع أن الفكر لا يفضي إلىٰ مقر ونهاية، وليس له ثواب ومكافأة بخلاف أذكار نفوس العارفين، فإن لها نهاية ولها ثوابًا ومكافأة.

والنفوس تسر بالأعواض[2]، فالقياس أن تستأنس النفوس بالأذكار أكثر مما تستأنس بالأفكار وحال العارف بالعكس من ذلك.

---

(١) قال القاضي عياض: اختلفوا هل تكتب الملائكة ذكر القلب، فقيل تكتبه ويجعل الله تعالىٰ لهم علامة يعرفونه بها، وقيل: لا يكتبونه لأنه لا يطلع عليه غير الله، قلت: الصحيح أنهم يكتبونه وأن ذكر اللسان مع حضور القلب أفضل من القلب وحده والله أعلم.
النووي في شرح مسلم (١٧/ ١٤) طبعة دار الكتب العلمية

(٢) العوض هو ما لله عليك في العمل في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ قيل ليعبدوه بالرق لا بالطمع وطلب العوض.
المعجم الصوفي (ص١٨١)

جلال الله وهيبته ومنته وإحسانه فهي تفكر فيما لله تعالىٰ عليها إجلالًا له، وتعرض ما لها عند الله حرمة له في قوله عليه الصلاة والسلام خبرًا عن الله عز وجل: «**من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين**».

وأجاب عن هذا السؤال بأن نفوس العارفين استصغرت ثمرات الأذكار[1] وأعواضها، فلم تحمل تلك الثمرات نفوسهم عن مقاساة شدة الأذكار، وغلب ثمرات الأذكار شرف ما وراء الأفكار من جلال الله وهيبته، فتغيب ما وراء الأفكار نفوسهم عن ألم مجاهدات الأفكار، لأن سرهم لما كان مستوفى لجلال الله وهيبته تصير مغلوبًا للحق، والنفس مغلوبة للسر، فكل ما ورد علىٰ النفس لا يكون لها خبر منه.

قوله: فهي تفكر فيما لله تعالى عليها.

أي فنفوسهم تفكر فيما يجب لله عليها إجلالًا لله وتعرض نفوسهم عمَّا لها عند الله حرمة لله تعالىٰ معناه أن ثمرة الذكر ثواب، والثواب نصيب العبد وثمرة الفكر جلال الله وهيبته ومنته وإحسانه وهذه نصيب الحق، فلو اشتغل العبد بذلك إجلالًا للحق، فإنه مهما يكن غلبة جلال علىٰ أحد أكثر يكون فناؤه عن نفسه وصفاتها أكثر يعرض عما هو نصيب العبد وإلَّا يكون المراد من المحبوب غيره، وهو نصيب المحب لا المحبوب نفسه، فهو هاتك لحرمته فلهذا المعنى تستروح نفوسهم إلىٰ الأفكار، وتبترم عن الأذكار، وأحسن منه إن يقال أن الذكر صفة الغائبين والفكر صفة الحاضرين، فإذا صارت الغيبة[2] حضورًا، والبعد قربًا فأي احتياج إلىٰ الذكر.

---

(١) قوله ﷺ: «**لا أحصي ثناء عليك**» أي لا أطيقه ولا آتي عليه وقيل: لا أحيط به، وقال مالك رحمه الله معناه لا أحصي نعمتك وإحسانك والثناء بها عليك وإن اجتهدت في الثناء بها عليك.

المعجم الصوفي (ص١٧١)

(٢) الغيبة غيبة القلب عن علم ما يجري من أحوال الخلق لاشتغال الحس بما ورد إليه، وقيل: أن يغيب عن حظوظ نفسه فلا يراها لأنه غائب عنها بشهود ما للحق، ويروى أن ابتداء حال أبي حفص الحداد في ترك حرفته أنه كان علىٰ حانوته فقرأ قارئ آية من القرآن فورد علىٰ قلب أبي حفص وارد تغافل عن إحساسه فأدخل يده في النار وأخرج الحديدة المحماة بيده فراى تلميذ منه ذلك فلم يزل به حتى نبهه فنظر أبو حفص إلىٰ ما ظهر عليه فترك الحرفة.

المعجم الصوفي (ص١٨٦)

معناه[١] من شغله مشاهدة عظمتي عن ذكر لسانه لأن ذكر اللسان كله مسألة، وأخرى أن مشاهدة العظمة تحيره فتقطعه عن الذكر له كما قال النبي ﷺ: «**لا أحصي ثناء عليك**»[٢].

أنشدونا للنوري:

أريد دوام الذكر من فرط حبه ... فيا عجبا من غيبة الذكر في الوجد
وأعجب منه غيبة الوجد تارة ... وغيبة عين الذكر في القرب والبعد

قال الجنيد: من قال الله عن غير مشاهدة فهو مفتري يدل علىٰ صحة قوله قول الله تعالىٰ: ﴿قَالُواْ نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ﴾ [المنَافِقون: ١].

ثم قال: ﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنَافِقون: ١].

قوله: لأن ذكر اللسان كله مسأله، لأن لذكره مكافأة، فذكره سؤال تعريضًا أو كناية.

قوله: وأعجب منه غيبة الوجد تارة.

وهي في حال غلبة المشاهدة.

وغيبته عن الذكر في القرب والبعد.

يعني إذا كنت قريبًا أخاف ذكره من هيبة جلاله وإذا كنت غائبًا عنه أخاف ذكره حياء للحجاب الذي بيني وبينه.

---

(١) أخرجه: الترمذي في سننه (٢٩٢٦)، وابن عبد البر في التمهيد (٦/ ٤٦)، والزبيدي في الإتحاف (٤/ ٣٧٥)، وذكره الحافظ ابن حجر في الفتح (١١/ ١٤٧).

(٢) أخرجه: مسلم في صحيحه كتاب الصلاة حديث رقم (٢٢٢) وأبو داود في سننه (١٤٣٣)، والترمذي في سننه (٣٥٦٦)، وابن ماجة في سننه (١١٧٩، ٣٨٤١)، وأحمد في مسنده (١/ ٩٦)، والنسائي (٢٤٩ ـ المجتبى) وابن حبان في صحيحه (٥٤١ ـ موارد)، وابن السني في عمل اليوم والليلة (١٢٤، ٥٠٩)، وقال النووي: قوله ﷺ: «**أنت كما أثنيت علىٰ نفسك**» اعتراف بالعجز عن تفصيل الثناء وأنه لا يقدر علىٰ بلوغ حقيقته ورد للثناء إلىٰ الجملة دون التفصيل والإحصار والتعيين فوكل ذلك إلىٰ الله سبحانه وتعالى المحيط بكل شيء جملة وتفصيلاً فكما لا نهاية لصفاته لا نهاية للثناء عليه.
شرح مسلم للنووي (٤/ ١٧١) طبعة دار الكتب العلمية

أكذبهم الله وإن كانت الكلمة صدق، لأنها لم تكن عن مشاهدة.

وقال غيره: القلب للمشاهدة واللسان للعبارة عن المشاهدة، فمن عبر عن غيره مشاهدة، فهو شاهد زور.

أنشدونا لبعض الكبار:

أنت المُوَله لي لا الذكر ولهني حاشا لقلبي أن يعلق به ذكري
الذكر واسطة يحجبك عن نظري إذا توشحه من خاطري فكري

ولهذا المعنى قال الكبار: ذكر الغائب غيبة، وذكر الحاضر ترك الرحمة.

قوله:

أنت المُوله لي لا الذكر ولهني حاشا لقلبي أن يعلق به ذكري

يعني أن ولهي وتحيري ليس لأجل ذكري إياك لأن الذكر إنما يكون للغائب ولكن ولهني وحيرني مشاهدة جلالك وعظمتك، ويبين أن قلبي بعيد أن يتعلق به غيرك من ذكري إياك، وكيف يظن ذلك بي لأن الذكر صفتي، فإذا علق بقلبي أكون مشتغلًا بصفتي لا بك، لكن الشغل بك صيرني بحيث نسيت نفسي وصفتي.

قوله:

الذكر واسطة يحجبك عن نظري إذا توشحه من خاطري فكري

يبين بعد علوق الذكر بالقلب بأن الذكر واسطة بين الذاكر والمذكور تحجب المذكور عن نظر الذاكر لأن الذكر استرواح في حالة الغيبة من ألم الفراق فإذا فقد أحد محبوبه يغلب عليه ألم الفراق فيستلي ويستروح بالذكر[1].

قوله: إذا توشحه من خاطري فكري.

يعني الذكر يحجبك عني إذا لبس فكري الذكر من خاطري، يعني إذا اشتغل

---

(١) في الذكر بلا إله إلّا الله روى مسلم في صحيحه كتاب الذكر والدعاء، حديث رقم (٢٨) عن أبي هريرة قال: إن رسول الله ﷺ قال: «من قال لا إله إلّا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو علىٰ كل شيء قدير في يوم مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب وكتبت له مائة حسنة ومحيت عنه مائة سيئة وكان له حرزًا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي ولم يأت أحد =

معناه الذكر صفة الذاكر، فإن غبت في ذكري كانت غيبتي فيَّ، وإنما يحجب العبد عن مشاهدة مولاه وأوصافه.

قال السري السقطي: صحبت زنجيًا في البرية فرأيته كلما ذكر الله تغير لونه وابيض.

فقلت: يا هذا أرى عجبًا إنك كلما ذكرت الله حالت لبستك وتغيرت صفتك.

فقال: يا أخي أما إنك لو ذكرت الله حق ذكره لحالت لبستك وتغيرت صفتك.

فكري بالذكر يصير قلبي ملتبسًا بلباس الذكر فيحجب القلب عن المشاهدة، فرفعت الواسطة، والحجاب لا أراك ولا أرى غيرك.

قوله: فإذا غبت في ذكري.

يريد بهذه الغيبة الوله والتحير، لأن الواله بالشيء يكون غائبًا عن غيره.

قوله: قال سري السقطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: صحبت زنجيًا في البرية إلىٰ آخره.

(فرأيته كل ما ذكر الله تغير لونه وابيض، فقلت له: يا هذا أرى عجبًا إنك كلما ذكرت الله حالت لبستك وتغيرت صفتك، فقال لي يا أخي أما إنك لو ذكرت الله حق ذكره لحالت لبستك وتغيرت صفتك)[1].

إنما ذكر هذه الحكاية للفرق بين الذكر الحقيقي والمجازي، فإن الذكر الحقيقي ذكر يوجب تغير الخلقة والصفة، والمجازي ذكر بخلافه.

= أفضل مما جاء به إلا أحد عمل أكثر من ذلك . . . الحديث».

قال النووي: ويؤيده ما جاء في الحديث بعد هذا إن أفضل الذكر التهليل مع الحديث الآخر أفضل ما قلته أنا والنبيون قبلي لا إله إلا الله وحده لا شريك له . . . الحديث».

شرح مسلم للنووي (١٦/١٧) طبعة دار الكتب العلمية

(١) وجدناه بالهامش.

ثم أنشأ يقول:

ذكرنا وما كنا لننسى فنذكر ولكن نسيم القرب يبدو فيبهر
فافنى به عني وأبقى به له إذ الحق عنه مخبر ومعبّر

قوله:

ذكرنا وما كنا لننسى فنذكر ولكن نسيم القرب يبدو فيبهر

المعنى ذكرناك باللسان وليس هذا الذكر بعد نسياننا إياك فنذكرك باللسان، ولكن لما يبدو نسيم القرب منك في سري فيغلب ذلك النسيم عليَّ ويجعل لساني ذاكرًا.

يريد أن قرب الحق الذي هو كرامة وبِرّ، يفعل بأوليائه، يظهره في سرّي كل ساعة جديدًا جديدًا ليبعدني عن غيره ويقربني منه، فيظهر نسيم ذلك القرب علىٰ ظاهري.

والنسيم رائحة تجيء من شيء يستريح الإنسان منها كريح الصبا[1]، فإن صلاح العالم وحياتهم يتعلق بها فيسمى رائحتها نسيم الصبا.

وشاهد الحال أنه إذا ظهر فرح وسرور عظيم في سرّ أحدٍ يتعدى منه إلىٰ جميع أعضائه حتى لو نظر إليه ناظر يعلم منه ذلك، وإن لم يعلم منه أنه من أي شيء، فيقول الزنجي كل لحظه يبدو نسيم القرب في سرّي ويتعدى إلىٰ ظاهري فيجعل لساني ذاكرًا وصفتي متغيرة.

قوله:

فأفنى به عني وأبقى به له إذ الحق عنه مخبر ومعبّر

يعني أصير ببدو نسيم القرب فانيًا عني وعن صفاتي[2] وأصير قائمًا بالحق للحق،

---

(١) الصبا هي النفحات الرحمانية الآتية من جهه مشرف الروحانيات والدواعي الباعثة علىٰ الخير، وقيل هي صولة الروح واستيلاؤها بطريقة تجعل الشخص يصدر عنه شيء موافق للشرع والعقل.
المعجم الصوفي (ص١٤٠)

(٢) علامة فنائك عنك وعن هواك ترك التكالب والتعلق بالسبب في جلب النفع ودفع الضر كما كنت مغيبًا في الرحم وكونك رضيعًا في المهد، وعلامة فناء إرادتك بفعل الله تعالىٰ أنك لا تريد ولا يكون لك غرض ولا تقف لك حاجة ومراد إلا ما أراده الله تعالىٰ فلا إرادة للمخلوق الفاني مع إرادة الله تعالىٰ الباقي.

المعجم الصوفي (ص١٩٦)

أنشدونا لابن عطاء:

أرى الذكر أصنافًا من الذكر حشوها وداد وشوق يبعثان علىٰ الذكر

يعني حين بدو نسيم القرب وضيائه وغلبته عليّ وسلب الاختيار مني وتركني حائرًا بائرًا (من البواري خراب)[١]، أصير شاهدًا له وفانيًا عن صفاتي وباقيًا به له لا لغيره، فبعد ذلك ما يبدو فيّ لا يكون إلَّا بإبدائه لا إنه صفتي.

وحاصل هذا الكلام أنك لا تنظر إليّ مني، بل أنظر إليَّ منه لئلا يتعجب من تغيري، والحق أجلّ من أن يخبر أحد عنه أو يعبر عن أوصافه بل الحق يجري علىٰ لساني إخباره، ويجعل لساني معبّرًا عن صفاته الضمير في عنه للحق.

قوله:

أرى الذكر أصنافًا من الذكر حشوها وداد وشوق يبعثان علىٰ الذكر

ذكر في هذا البيت وفي الأبيات التي تجيء مقام الذاكرين واختلاف أحوالهم في الذكر، وجعل الذكر أربعة أصناف: الصنف الأول ذكر حشوه وداد وشوق كلاهما يبعثان صاحبهما علىٰ الذكر، لأن من لم يكن له محبة وشوق إلىٰ شيء لا يريد أن يذكره، فصاحب الوداد والشوق إلىٰ شيء مولع بذكره ومكثر ذكره، وهذا الذكر تكلفي وفعلي.

وبين الفعلين يجوز الانقطاع والغفلة، فإذا أكثر بالتكلف يزداد شوقًا ووِدادًا[٢] (أي حريص)[٣] بحيث يصير التكليف طبيعيًا، ويصير صفة البقاء للنفس ممتزجًا بها، ويحل فيها محل الروح التي تسري في أطرافها بحيث لو فارقها الذكر يحصل موتها كحياتها لو فارقها يموت، وكما أن لذة الحياة تعمل في أطرافها، فكذا لذة الذكر تعمل في أطرافها.

والذكر في المقام الأول فعل، وفي هذا المقام صفة فيصير الذاكر مجبورًا لا يقدر أن لا يذكر.

---

(١) وجدناه بالهامش.

(٢) الود من مراتب المحبة وهو هيجان القلب والتصاقه بالهوى، والشوق هيجان القلب عن ذكر المحبوب وهو في قلب المحب كالفتيلة في المصباح.

انظر المعجم الصوفي (ص١٣٦، ٢٥٩)

(٣) وجدناه بالهامش.

فذكر أليف النفس ممتزج بها	**يحل محل الروح في طرفها يسري**
وذكر يعرِّي النفس عنها لأنه	**لها متلف من حيث تدري ولا تدري**
وذكر عَلَا مِني المفارق والذُّرى	**يجل عن الإدراك بالوهم والفكر**

والمقام الأول مقام الاختيار والإرادة، والمقام الثاني مقام الجبر والقهر، وعبّر عن هذا المقام بقوله:

وذكر أليف النفس ممتزج بها يحل محل الروح في طرفه يسري

ثم ينتقل عن هذا المقام إلىٰ مقام أعلى منه وهو أن يغلب عليه آثار أوصاف الحق فينفي نفسه وأوصافها ويعريها بحيث لا يكون له خبر عن نفسه وأوصافها، ويبقى أوصاف المذكور، كما أن في ذكر منة الحق ينسى الذاكر خدمته له وفي ذكر قدرة الحق ينسى الذاكر قدرته[1].

وفي ذكر جلال الحق وسلطانه ينسى الذاكر تدبيره وتصرفه، وعبّر عن هذا المقام بقوله: **وذكر يعرّي النفس عنها لأنه لها متلف من حيث يدري ولا يدري**

الضمير في عنها للنفس، وكذا في لها والضمير في تدري ولا تدري وفي لأنه للذكر، ثم ينتقل الذاكر عن هذا المقام إلىٰ مقام أعلى منه، وهو أن يغلب عليه مشاهدة الذات والحقيقة بحيث يغنيه عن أوصاف المذكور، فيتحير فكره ويبهت وهمه عن إدراك ذلك الذكر حتى يعبر عنه، وهذا هو مقام الحيرة وعبر عن هذا المقام بقوله:

وذكر عَلَا مِني المفارق والذرى يجل عن الإدراك بالوهم والفكر

المفارق جمع المفرق، وهو مفرق الرأس، والذرى جمع الذروة وهي أعلا

(١) في فضل مجالس الذكر روى مسلم في صحيحه كتاب الذكر والدعاء، حديث رقم (٢٥)، وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**إن لله تبارك وتعالى وملائكة سيارة فُضُلًا**، يتتبعون مجالس الذكر، فإذا وجدوا مجلسًا فيه ذكر قعدوا معهم وحفَّ بعضهم بعضًا بأجنحتهم... الحديث بطوله». قال النووي: في هذا الحديث فضيلة الذكر وفضيلة مجالسه والجلوس مع أهله وإن لم يشاركهم وفضل مجالسة الصالحين وبركتهم والله أعلم ومعنى سيارة أي سياحون في الأرض، ومعنى فضلًا أنهم ملائكة زائدون علىٰ الحفظة وغيرهم من المرتبين مع الخلائق فهؤلاء السيارة لا وظيفة لهم وإنما مقصودهم حلق الذكر.
شرح مسلم للنووي (١٧/ ١٣) طبعة دار الكتب العلمية

يراه لحاظ العين بالقلب رؤية　　فيجفو عليه أن يشاهد بالذكر

صنف الذكر أصنافًا، **فالأول**: ذكر القلب وهو أن يكون المذكور غير منسي فيذكر.

والثاني: ذكر أوصاف المذكور، **والثالث**: شهود المذكور فيفنى عن الذكر. لأن أوصاف المذكور تفنيك عن أوصافك فتفنى عن الذكر[1].

الشيء، وجلّ فلان يجلّ بالكسر جلالة إذا عظم قدره.

يعني من الذكر، ذكر علاني وتجاوز رأسي، أي رأس سرى وذروته، وبلغ من الجلالة إلىٰ حيث لا يدرك بالوهم أو لفكر ليعبر عنه بـ:

يراه لحاظ العين بالقلب رؤية　　فيجفو عليه أن يشاهد بالذكر

معناه أن ما ينظر إليه القلب، ويتعلق به، فصاحب القلب ذاكر له ونظر القلب إليه ذكر للقلب له وإذا كان كذلك فلا بدَّ وأن ينظر قلبي إلىٰ الذكر ليذكر وإلَّا لا يقدر علىٰ الذكر، وذكري صفتي والنظر إلىٰ صفة الشيء بدون النظر إليه ممتنع، لكن قد أخذتني مشاهدة الحق وجذبتني إليه بحيث نسيت كل شيء غيره.

قوله: فيجفو عليه، أي فيغلب ذلك للحاظ علىٰ القلب ويمنعه من أن يشاهد الحق بالذكر.

أي بالأذكار التي قبل الآخر، وجعل صاحب الكتاب أصناف الذكر المذكور ثلاثة فكأنه لم يعتبر المقام الأول من الذكر.

❊ ❊ ❊

---

(١) الذكر عند الصوفية من أركان الدين بل هو الركن الأساسي في العبادة، يقول القشيري: هو ركن قوي من طريق الحق سبحانه بل هو العمدة في هذا الطريق ولا يصل أحد إلىٰ الله تعالىٰ إلا بدوام الذكر، ومن خصائص الذكر أنه غير مؤقت، بل ما من الأوقات إلا والعبد مأمور بذكر الله إما فرضًا أو ندبًا، والصلاة وإن كانت أشرف العبادات فقد لا تجوز في بعض الأوقات والذكر في القلب مستدام في عموم الأحوال.

المعجم الصوفي (ص٩٩)

الباب الثامن والأربعون
قولهم في الأُنس

سئل الجنيد عن الأُنس ما هو؟ فقال: الأُنس ارتفاع الحشمة مع وجود الهيبة.

معنى ارتفاع الحشمة أن يكون الرجاء أغلب عليه من الخوف.

قوله: في الأُنس[1]

إنما ذكر الأُنس عقيب الذكر، لأن كثرة المشاهدة توجب كثرة الذكر والأُنس.

الأُنس ارتفاع الحشمة مع وجود الهيبة، فالأُنس علىٰ هذا يتفرع علىٰ شيئين علىٰ المحبة وعلى المعرفة لأن ارتفاع الحشمة إنما يحصل من المحبة، فمن هو أشد محبة يكون أكثر ارتفاعًا وحشمة.

والهيبة إنما تحصل من المعرفة، فمن هو أعرف بالحق يكون أشد خوفًا منه والمعنى أن من لم يكن له أدب بالكمال لا يكون جديرًا بصحبة قربة الملك، ومن لم يجد الصحبة والقربة لا يجد الأُنس، فإذا رفع الهيبة[2] وتركها يصير بلا أدب، وإذا صار بلا أدب يصير قربه بُعدًا، فارتفع الأُنس، فعلم أن الأُنس يستلزم الخوف والرجاء، لأن بارتفاع الحشمة يصير راجيًا، وبوجود الهيبة يكون خائفًا إلَّا أنه ينبغي أن يكون رجاؤه

---

(١) الأنس بالله هو لتلذذ الروح بكمال الجمال وهو من آثار مشاهدة الحضرة الإلهية في القلب وهو جمال الجلال وقيل الأنس ضد الهيبة.

وقال الجنيد: الأنس ارتفاع الحشمة مع وجود الهيبة، وقيل الأنس أن تستأنس بالأذكار فتغيب عن الأغيار وقيل إن لله تعالىٰ عبادًا استأنسوا بالله فكانوا في وحدتهم أشد استئناسًا من الناس في كثرتهم.

المعجم الصوفي (ص٣٥)

(٢) الهيبة: تعظيم في القلب يمنع من النظر إلىٰ غير المحبوب، وهذا المقام ذاتي للمحب لا يفارقه إلَّا أنه يشتد عند تجلي صفات الجلال، ولا ينقطع إلا مع عدم المشاهدة والرجوع إلىٰ الحس، والأنس والهيبة حالتان فوق القبض والبسط كما أن القبض والبسط فوق الخوف والرجاء فالهيبة مقتضاها الغيبة والأنس مقتضاه الصحو والإفاقة.

المعجم الصوفي (ص٢٥٤)

وسئل ذو النون عن الأنس فقال: هو انبساط المحب إلىٰ المحبوب، معناه ما قال الخليل عليه السلام: ﴿أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٠]، وما قال الكليم عليه السلام: ﴿أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣] وقوله: ﴿لَن تَرَانِي﴾ [الأعراف: ١٤٣]. شبه العذر أي لا تطيق.

وسئل إبراهيم المارستاني عن الأنس فقال: هو فرح القلب بالمحبوب.

وسئل الشبلي عن الأنس فقال: هو وحشتك منك وقال ذو النون: أدنى

أغلب من الخوف ليحصل الأُنس ومعنى غلبة الرجاء عليه أن الملك إن أوصله إلىٰ مقام أدخل جميع مملكته تحت تصرفه ويده، وعلم هو من حال الملك أنه لو جاد بجميع مملكته لا يمنعه الملك، ويكون رجاؤه بهذا المقام، ولكنه يحافظ علىٰ الهيبة علىٰ وجه لا يفعل فعلًا ما من حركة أو سكون إلَّا بأمر الملك، لأن الإهمال من غير عتاب قد يؤدي إلىٰ أن يكون سببًا للقطيعة.

قوله: وقوله ﴿لَن تَرَانِي﴾ [الأعراف: ١٤٣] شبه العذر، يريد أن قوله تعالىٰ: ﴿لَن تَرَانِي﴾ [الأعراف: ١٤٣] [1] في جواب سؤال موسى ﴿أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣] شبه العذر لمنع الرؤية.

يعني إنا منعنا الرؤية عنك ليس لعدم جواز الرؤية بالنسبة إلينا، ولا لأنه ليس لك محل رؤيتنا ولكن منعنا لأنك لا تطيق رؤيتنا في الصفة التي أنت فيها في الدنيا أو في هذا المكان، أو في هذا الزمان.

قوله: هو وحشتك منك.

معناه أنه متى حصل للعبد القربة مع الحق يستوحش عما سواه، ولكن أقرب شيء بالعبد هو، فإذا استوحش من أقرب شيء به يعلم منه أنه لا يكون له مع أحد أُنس.

---

(١) سأل موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ الله تعالىٰ أن ينظر إليه فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي﴾ وقد أشكل حرف لن هھنا علىٰ كثير من العلماء لأنها موضوعة لنفي التأبيد فاستدل به المعتزلة علىٰ نفي الرؤية في الدنيا والآخرة وهذا أضعف الأقوال لأنه قد تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ بأن المؤمنين يرون الله في الدار الآخرة، وقيل إنها لنفي التأبيد في الدنيا جمعًا بين هذه الآية وبين الدليل القاطع علىٰ صحة الرؤية في الدار الآخرة.

تفسير ابن كثير (٢/ ٢٤٩)

مقام الأُنس أن يلقى في النار فلا يغيبه ذلك عمن أنس به.

وقال بعضهم: الأُنس هو أن يستأنس بالأذكار فيغيب به عن رؤية الأغيار.

أنشدونا لرويم:

شغلت قلبي بما لديك فما ينفك طول الحياة من فكري
آنستني منك بالوداد وقد أوحشتني من جميع ذا البشر

ومعنى الوحشة منك أنه لم يبق لك انبساط مع الحق لأجلك لا لتقاضي النفع ولا لتقاضي الضر.

قوله: أن يلقى في النار فلا يغيبه ذلك عمن أنس به كما فعل بإبراهيم عليه السلام.

فإنه لم ينبسط مع جبريل، وكنسوة مصر فإنهن لا يغيبهن ألم القطع[1] عن الأُنس بيوسف عليه السلام وكالخبر الذي ورد في حكاية أهل النار فإنهم يقولون فيها: يا حنَّان يا منَّان، فإن العذاب لا يشغلهم عن الأُنس بالحق، كما شغل الكفار عنه.

قوله: أن يستأنس بالأذكار فيغيب به عن رؤية الأغيار.

وذلك عند غلبة الأذكار علىٰ سرّه بحيث يصير كأنه شاهد الحق، وعند المشاهدة يغيب عن الأغيار.

قوله: شغلت قلبي بما لديك.

من البرّ والإحسان والكرَامة.

---

(١) هذا لما فتن النساء بجماله لما خرج إليهم واعطت امرأة العزيز كل واحدة منهن سكينًا فلما رأينه أكبرنه» أي أعظمن شأنه وأجللن قدره وجعلن يقطعن أيديهن دهشًا برؤيته وهن يظنن أنهن يقطعن الأترج بالسكاكين والمراد أنهن حززن أيديهن بها قاله غير واحد، فقالت لهم امرأة العزيز: أنتن من نظرة واحدة فعلتن هذا فكيف ألام أنا، ثم قلن لها وما نرى عليك من يوم بعد هذا الذي رأينا لأنهن لم يرين في البشر شبيهه ولا قريبًا منه.
تفسير ابن كثير (٢/ ٤٨٨، ٤٨٩)

ذكرك لي مؤنس يعارضني يوعدني عنك منك بالظفر
وحيث ما كنت يا مدى هممي فأنت مني بموضع النظر

قوله: ذكرك لي مؤنس يعارضني.

أي يقابلني في كل شيء، يعني في كل شيء أنظر، رأيتك لا غير بسبب معارضة الأُنس بذكرك لي.

ويحتمل أن يكون معنى المعارضة المغالبة، أي يغالبني ذكرك فيغلب علي ويمنعني أن أذكر غيرك قوله: يوعدني عنك منك بالظفر، أي يعدني ذكرك عنك بظفري منك، يريد أن ذوق أُنسي بك آمنني من الفراق لأن ظفر المحب لا يكون إلا الأمن من الفراق.

قوله: يا مدى هممي.

أي يا غاية هممي، بمعنى أنه لا يكون لي وراءك همة، يعني كل ما أجد أتركه حتى أحبك، فإذا وجدتك لا أريد شيئًا آخر.

❊ ❊ ❊

الباب التاسع والأربعون
قولهم في القرب

سئل سري السقطي عن القرب فقال: هو الطاعة وقال غيره: القرب أن يتدلل عليه ويتذلل له لقوله عز وجل: ﴿وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب﴾ [العَلق: ١٩].

سئل رويم عن القرب، فقال: إزالة كل معترض وسئل غيره عن القرب، فقال: هو أن تشاهد أفعاله بك، معناه أن ترى صنائعه ومننه عليك وتغيب فيها عن رؤية أفعالك ومجاهداتك وأخرى أن لا تراك فاعلًا لقوله عز وجل للنبي ﷺ: ﴿وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰۚ﴾ [الأنفال: ١٧].

وقوله: ﴿فَلَمۡ تَقۡتُلُوهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمۡۚ﴾ [الأنفال: ١٧].

وأنشدونا للنوري:

أراني جمعي في فناني تقربا وهيهات إلَّا عنك منك التقرب

قوله: في القرب[1]

قوله: أن يتدلل عليه.

والتدليل عليه هو الافتخار به.

قوله: وهيهات إلَّا عنك منك التقرب.

أي بعد أن يكون التقرب بك في الجمع وفي الفناء ولأن جمع العبد بك صفة العبد وفناؤه عن غيرك صفته أيضًا، والعبد لا يجد التقرب إليك بصفته بل التقرب منك بك لا بغيرك، لأن القربة الأزلية للعبد بك ليست بغيرك، فلا علة إلَّا أنت.

---

(١) حال القرب يقتضي حال المحبة وحال الخوف، والقرب هو قرب العبد من الحق سبحانه بالمكاشفة والمشاهدة والانقطاع عما دون الله، وقيل القرب هو الدنو من المحبوب بالقلب، وهو على نوعين: قرب النوافل وقرب الفرائض والأول هو زوال الصفات البشرية وظهور صفاته تعالى عن البشر انظر حديث: «**وما زال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته صرت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به . . .**» الحديث.

فما عنك لي صبر ولا فيك حيلة ولا منك لي بدٌّ ولا عنك مهرب
تقرب قوم بالرجا فوصلتهم فما لي بعيدًا منك والكل يعطب

معناه أراني حالي أن جمعي بك وفنائي عما سواك تقرب إليك، والجمع[(١)] والفناء صفتان، ولا يكون القرب منك بصفتي، بل بك يكون القرب إليك منك ثم قال: تقرب إليك أقوام بأفعالهم وطاعتهم فوصلتهم تفضلًا منك.

وقوله: ولا فيك حيلة يعني ليست حيلة توجد أنت بتلك الحيلة إلأ يلزم أن يكون تلك الحيلة علة لوجود الحق.

قوله: تقرب قوم بالرجاء[(٢)].

أي بالرجاء منك من جهة الطاعات فوصلتهم تفضلًا منك.

قوله: فما لي، أي شيء لي أنا، **بعيدًا منك والكل يعطب** أي وكلي في محبتك والشوق إليك يهلك.

يريد أن قومًا تقربوا إليك بأفعالهم وطاعاتهم **فوصلتهم** بفضلك لا بعملهم.

لأن لك أن ترد عملهم، إما لتقصيرهم، وإما لاستغنائك عنه، فلما قبلته مع استغنائك عنه وتقصيرهم، علمت أنك تطولت[(٣)] معهم وأنا مفلس ليس لي عمل لائق بحضرتك أتقرب به إليك، وأهلك من الشوق إلىٰ القرب منك ولا سبيل لي إليك من حيث أنا فتحيرت في أمري.

---

(١) من الألفاظ كثيرة التداول عند الصوفية الجمع والتفرقة والجمع هو جمع متفرقات والتفرقة هي تفرقة مجموعات وإذا قلت الله ولا سواه فقد جمعت وإذا قلت الدنيا والآخرة والخلق فقد فرقت، وما يكون من قبل الحق من إبداء المعاني وإسراء اللطف والإحسان في جمع وما يكون كسبًا للعبد من إقامة العبودية ويليق بأحوال البشرية فهو فرق.
المعجم الصوفي (ص٦٨)

(٢) الرجاء ثلاثة رجل عمل حسنة فهو يرجو قبولها ورجل عمل سيئة ثم تاب فهو يرجو المغفرة والثالث الرجل الكاذب يتمادى في الذنوب ويقول أرجو المغفرة.
المعجم الصوفي (ص١٠٤)

(٣) بالهامش: أي تفضلت.

وليست لي أفعال أتقرب بها إليك وأنا أهلك شوقًا إلىٰ القرب منك، ولا سبيل لي إليه من حيث أنا، أنشدونا للنوري أيضًا:

يا من أشاهده عني فاحسبه مني قريبًا وقد عزت مطالبه
إذا سمت نفسي سلوة عنه ردني إليه شهود ليس تفنى عجائبه

معنى السلوة الإياس.

يقول: كلما آيست من حيث أنا ردني عن الإياس ما منه من الفضل الذي بدأ به.

وهذا كما قال الشبلي رحمه الله:

قد تحيرت[1] فيك خذ بيدي يا دليلا لمن تحير فيكا

قوله:

يا من أشاهده عني فأحسبه مني قريبًا وقد عزت مطالبه

ومثال ذلك في كتاب الله عز وجل: ﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾.

قوله:

إذا سمت نفسي سلوة عنه ردني إليه شهود وليس تفنى عجائبه

يقال سمته خسفًا إذا وليته إياه ورددته عليه والسلوة الفراغة.

قال الكتاب: معنى السلوة الإياس باعتبار أن الإياس يستلزم السلوة.

يعني إذا أعطيت نفسي سلوة عنه، ردني إليه شهوده.

قوله: ليس تفنى عجائبه.

صفة لشهود، والشهود يحتمل أن يكون الدليل علىٰ الحق يعني كيف أصبر عنك

(١) الحيرة بديهة علىٰ قلوب العارفين عند تأملهم وحضورهم وتفكرهم تحجبهم عن التأمل والفكرة، قال الواسطي: حيرة البديهة أجلّ من سكون التولي عند الحيرة.
المعجم الصوفي (ص٨٤)

....

وأسلو حيث انظر أرى الشاهد[1] عليك.

ويحتمل أن يكون أنواع البِرّ فمعناه كيف أسلو عنك فإني حيثما أنظر أراني في أنواع البِرّ غرقًا.

ويحتمل أن يكون الشهود بمعنى القهر والغلبة.

يعني أعلم أن لي قاهرًا وغالبًا أينما أنظر، فكيف أسلو عنه؟

ويحتمل أن يكون هذا الشهود مشاهدة السرّ.

يعني لا أفرغ عن عجائب المشاهدة لتجددها في سري كل لحظة، فكيف أتفرغ لأن أسلو عنه.

❊ ❊ ❊

---

(١) الشاهد هو التجلي وقيل هو الحاضر فكل ما هو حاضر في القلب وغلب عليه ذكره حتى كأنه يراه ويبصره وإن كان غائبًا عنه فهو شاهد، فإن كان الغالب عليه العلم فهو شاهد العلم، وإن كان الغالب عليه الوجد فهو شاهد الوجد، وإن كان الغالب عليه الحق فهو شاهد الحق.
المعجم الصوفي (ص١٣٢)

الباب الخمسون
قولهم في الاتصال

معنى الاتصال أن يفصل بسره عما سوى الله فلا يرى بسره بمعنى التعظيم غيره، ولا يسمع إلَّا منه.

قال النوري: الاتصال مكاشفات القلوب ومشاهدات الأسرار.

مكاشفات القلوب كقول حارثة: كأني أنظر إلىٰ عرش ربي بارزًا، ومشاهدات الأسرار كقوله عليه الصلاة والسلام: **«اعبد الله كأنك تراه»**[1].

وكقوله ابن عمر: كنا نتراءى الله في ذلك المكان.

قوله: في الاتصال[2]

قال سهل: حركوا بالبلاء فتحركوا، ولو سكنوا اتصلوا.

يعني الذين ادّعوا هذا المقام حركوا بالبلاء من نعمة أو نقمة. فتحركوا، أي انتقلوا ومالوا فانفصلوا وبانوا عن الحق، ولو سكنوا ولم تمل أسرارهم إليه اتصلوا بالحق.

قوله: مكاشفات القلوب كقول حارثة: كأني أنظر إلىٰ عرش ربي بارزًا.

ومشاهدات الأسرار كقوله عليه الصلاة والسلام: **«اعبد الله كأنك تراه»**.

وكقول ابن عمر: كنا نتراءى الله تعالىٰ في ذلك المكان فجعل مكاشفات القلوب بحارثة، ومشاهدات الأسرار للنبي عليه الصلاة والسلام.

---

(١) الحديث تقدم تخريجه وقال النووي: هذا من جوامع الكلم التي أوتيها ﷺ لأنا لو قدرنا أن أحدنا قام في عبادة وهو يعاين ربه سبحانه وتعالى لم يترك شيئًا بما يقدر عليه من الخضوع والخشوع وحسن السمت واجتماعه بظاهره وباطنه علىٰ الاعتناء بتتميمها علىٰ أحسن وجوهها إلَّا أتى به قال ﷺ: **«اعبد الله في جميع أحوالك كعبادتك في حال العيان»**.
النووي في شرح مسلم (١/ ١٤١) طبعة دار الكتب العلمية

(٢) الوصال مرادف للوصل والاتصال، قالوا: هو الانقطاع عما سوى الحق وليس المراد به اتصال الذات بالذات ولهذا قال النبي ﷺ: **«الاتصال بالحق علىٰ قد الانفصال عن الخلق»**.
المعجم الصوفي (ص٢٦٠)

وقال غيره: الاتصال وصول السر إلىٰ مقام الذهول معناه أن يشغله تعظيم الله عن تعظيم من سواه.

وقال بعض الكبار: الاتصال أن يشهد العبد غير خالقه، ولا يتصل بسره خاطر لغير صانعه.

قال سهل: حركوا بالبلاء فتحركوا ولو سكنوا اتصلوا.

اتصل حارثة بالعقبى بمقدار انفصاله عن الدنيا.

ولما انفصل سرّ رسول الله ﷺ عن غير الحق اتصل به.

والذي يدل عليه قوله عليه الصلاة والسلام: «**أعوذ بك منك**»[1]، ولم يقل: أعوذ بك من كذا، فعلم أن الانفصال عن الدنيا يوجب الاتصال بالعقبى وأن الانفصال عن غير الحق يوجب الاتصال به.

وأما قول ابن عمر رضي الله عنهما في الطواف: كنا نتراءى الله في هذا المكان، حين سُلِّم عليه ولم يشتغل بجوابه، فلأن جسده مشتغل بالشريعة وسرّه مشتغل بالحقيقة، فقد نسي في شغل الحقيقة شغل الشريعة بحيث لا يكون له شعور لا من البيت ولا من المسلم لتعظيم الله تعالىٰ عنده.

ولكن المُسلِّم لما لم يكن له خير من مقامه فاشتغل بالعتاب والشكاية.

❊ ❊ ❊

---

(١) أخرجه: أبو داود في سننه كتاب الصلاة، باب القنوت في الوتر حديث رقم (١٤٣٣)، والترمذي في سننه كتاب الدعوات باب في دعاء الوتر، حديث رقم (٣٥٦٦)، والنسائي (٣/ ٢٤٩ ـ المجتبى)، وابن ماجة في سننه (١١٧٩)، وأحمد في مسنده (١/ ٩٦) وابن حبان في صحيحه (٥٤١)، وابن السني في عمل اليوم والليلة (١٢٤، ٥٠٩)، والبخاري في التاريخ الكبير (٨/ ١٩٥).

الباب الحادي والخمسون
قولهم في المحبة

قال الجنيد: المحبة ميل القلوب . معناه أن يميل قلبه إلىٰ الله وإلى ما لله من غير تكلف.

وقال غيره: المحبة هي الموافقة، معناه الطاعة له فيما أمر، والانتهاء عما زجر، والرضا بما حكم وقدّر وقال محمد بن علي الكتاني: المحبة الإيثار للمحبوب. وقال غيره: المحبة إيثار ما تحب لمن تحب.

قال أبو عبد الله النباجي: المحبة لذة في المخلوق ....

قوله: في المحبة

قوله: من غير تكلف.

لأن التكلف في الخدمة علامة نقصان المحبة، بل كمال المحبة في ارتفاع الكلفة في الخدمة، فتصير الخدمة طبعًا تركها تكلفًا.

قوله: المحبة الإيثار للمحبوب[1].

يعني أن يؤثر المحبوب علىٰ نفسه في كل شيء حتى يجوز هلاكه في رضاء المحبوب ويقدم مراد المحبوب علىٰ مراده.

قوله: لذة في المخلوق.

واللذة صفة النفس ويجوز بقاء النفس في محبة المخلوق، فيجوز أن يكون هناك

---

(١) المحبوب هو قطب الوحدة وعند بعض الصوفية هو الحقيقة الروحية التي هي ذات الحق، والمحب والمحبوب شيء واحد وفي هذا المقام لا تكون المحبة حجابًا لقيامها بذاتها عند فناء جهتي المحبوبية والمحبيه فيها، وما قيل إن المحبة حجاب لاستلزامها الجهتين وإشعارها بالانفصال أريد به محبة غير محبوبية، وبداية المحبية والمحبوبية أمر مبهم، لأن المحب لا يكون إلا بعد سابقيه جذب المحبوب إياه، فكل محبوب محب وكل محب محبوب.
المعجم الصوفي (ص٢٢٣)

واستهلاك في الخالق.

معنى الاستهلاك أن لا يبقى لك حظ ولا يكون لمحبتك علة ولا تكون قائمًا بعلة.

تلذذ، وفي محبة الحق النفس مقهورة فمستهلكة وليس للمستهلك لذة كقصة صواحبات يوسف عليه السلام فإنهن مستهلكات من اللذة والألم أيضًا.

وقال الكبراء: إن للمؤمنين في القيامة رؤية لله تعالىٰ قبل أن يمروا علىٰ الصراط، ليكونوا مغلوبين في مشاهدة الحق حتى إذا دخلوا جهنم[1] ومروا عليها لم يكن لهم خبر من ألم الاحتراق.

قوله: أن لا يبقى لك حظ، أي يسقط مرادك.

قوله: ولا يكون لمحبتك علة.

يعني لا تجد الحق بالمحبة بل تجده من إرادة الحق.

وأيضًا لو كان للمحبة علة غير الحق لم يكن مستهلكًا في الحق، ولو كانت المحبة ناقصة.

قوله: ولا تكون قائمًا بعلة، أي غير الحق وإلَّا لم تكن مستهلكًا في الحق لقيامه بغيره.

---

(١) في صحيح مسلم من حديث أبي سعيد الخدري كتاب الإيمان رقم (٣٠٢): **«ثم يضرب الجسر علىٰ جهنم وتحل الشفاعة ويقولون اللهم سلم سلم»** قيل يا رسول الله وما الجسر قال: **«دحض مزلة فيه خطاطيف وكلاليب وحسك - تكون بنجد فيها شويكه يقال لها السعدان - فيمر المؤمنون كطرف العين وكالبرق وكالريح وكالطير وكأجاويد الخيل والركاب، فناج مسلم ومخدوش مرسل، ومكدوس في نار جهنم .... الحديث».**

وفي حديث أبي هريرة رقم (٢٩٩) **«ويضرب الصراط بين ظهري جهنم، فأكون أنا وأمتي أول من يجيز ... الحديث».**

قال النووي: وقد أجمع السلف علىٰ إثباته وهو جسر علىٰ متن جهنم يمر عليه الناس كلهم فالمؤمنون ينجون علىٰ حسب حالهم، أي منازلهم والآخرون يسقطون فيها أعاذنا الله الكريم منها.

شرح مسلم للنووي (٣/ ١٩) طبعة دار الكتب العلمية

قال سهل: من أحب الله فهو العيش، ومن أحب فلا عيش له . معنى هو العيش أنه يطيب عيشه لأن المحب يتلذذ بكل ما يرد عليه من المحبوب من مكروه أو محبوب.

ومعنى لا عيش له لأنه يطلب الوصول إليه ويخاف الانقطاع دونه فيذهب عيشه.

وقال بعض الكبار: المحبة لذة والحق لا يتلذذ به لأن مواضع الحقيقة دهش واستيفاء وحيرة فمحبة العبد لله تعظيم يحل الأسرار فلا يستجيز تعظيم سواه.

ومحبة الله للعبد هو أن يبليه به فلا يصلح لغيره وهو مني قوله تعالىٰ: ﴿وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي ۝٤١﴾ [طه: ٤١] ومعنى لا يصلح لغيره أن لا يكون فيه فضل لمراقبة الأغيار ومراعاة الأحوال.

قال بعضهم: المحبة علىٰ وجهين محبة الإقرار وهو للخاص والعام،

قوله: والحق لا يستلذ به.

لأن العبد إذا وصل إلىٰ مقام الحقيقة يقع دهش ولا يستوفى من صفاته حتى لا يبقى فيه منها شيء فيصير متحيرًا، ومع التحير لا يكون الالتذاذ.

قوله: هو أن يبليه به، أي يبلي الله العبد به من الابلاء وهو الاختبار بالخير والشر.

يقال: أبلاه الله تعالىٰ ابلاءً حسنًا وبلاه الله بلاء، وابتلاه أي اختبره يريد أن محبة الله للعبد هو أن يبلى به العبد إبلاء حسنًا، فلا يصلح لغيره بأن لا يستعمل الحواس لغير الله ولا يخدم غيره، ولا يشتغل سره بغيره وهو معنى قوله تعالىٰ لموسى عليه السلام: ﴿وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي ۝٤١﴾ [طه: ٤١] أي اخترتك "صالحا لي".

قوله: أن لا يكون فيه فضل لمراقبة الأغيار ومراعاة الأحوال.

يعني يمتلئ من الحق بحيث لا يبقى منه شيء يدخل فيه غيره فتصير مداخل الغير مسدودة.

قوله: محبة الإقرار.

وهو التوحيد والإيمان.

ومحبة الوجد من طريق الإصابة فلا يكون فيه رؤية النفس والخلق ولا رؤية الأسباب والأحوال بل يكون مستغرقًا في رؤية ما لله وما منه.

أنشدونا لبعضهم:

أحبك حبين حب الهوى ... وحبًا لأنك أهل لذاكا
فأما الذي هو حب الهوى ... فشغلي بذكرك عمن سواكا
وأما الذي أنت أهل له ... فلست أرى الكون حتى أراكا

قوله: ومحبة الوجد من طريق الإصابة.

أي لا من طريق العلم والقول، بل من طريق الحال، وعلامة ذلك أن لا يكون فيه رؤية النفس فسقط عنه العجب والمراد والشهوة والخصومة ولا رؤية الخلق فلا يبقى فيه رياء، والاعتماد عليهم والصحبة معهم، ولا رؤية الأسباب فلا يبقى له غنى وعز ووطن ودنيا، ولا رؤية الأحوال فلا يبقى له في الكونين شيء لا يرى الخدمة والطاعة ولا التوحيد والمعرفة فيتجرد عن غير الله ويكون مستغرقًا فيما لله وما من الله.

قوله:

أحبك حبين حب الهوى ... وحبًا لأنك أهل لذاكا[1]

وحب الهوى من الميل إليه لا إلىٰ غيره، والسقوط علىٰ بابه معتكفًا مقيمًا غير متحرق عنه.

قوله: وحبًا لأنك أهل لذاكا.

معناه أنك محسن إليّ مع استغنائك عني، وأحسنت إليَّ في الأزل من غير علة، فبداية المحبة منك، والبادئ بالود لا يكافىء، وأيضًا ليس لك بدل حتى يعدل عنك

(١) في هذه الأبيات تميز رابعة بين حبين هما حب الهوى والحب للحق تعالى، ومعنى حب الهوى أني رأيتك فأحببتك عن مشاهدة اليقين لا من خبر وسمع تصديق من طريق النعم والإحسان فتختلف محبتي إذا تغيرت الأفعال لاختلاف ذلك عليّ ومع ذلك فإني بمحبتك وهروبي إليك قد اشتغلت بك لما تفرغت لك، وأما الحب الثاني الذي هو أهل له تعني حب التعظيم والإجلال لوجه العظيم ذي الجلال.

المعجم الصوفي (ص٧٢)

فما الحمد في ذا ولا ذاك لي ولكن لك الحمد في ذا وذاكا

قال ابن عبد الصمد: المحبة هي التي تعمي وتصم، تعمي عما سوى المحبوب فلا يشهد سواه مطلوبًا.

قال النبي ﷺ: **«حبك الشيء يعمي ويصم»**[١].

وأنشد:

أصمني الحب إلَّا عن تسامره فمن رأى حُب حِبٍ يورث الصمما

وكف طرفي إلاَّ عن رعايته[٢] والحب يعمي وفيه القتل إن كتما

إليه، وأيضًا أنت تريد مراد المحب لا مراد نفسه.

وأيضًا محبتك توجب وجدان جميع المرادات فيكون لذلك أهلًا للمحبة.

قوله: فما الحمد في ذا ولا ذاك لي . . . إلىٰ آخره.

يشير بهذا البيت إلىٰ عدم رؤيته ورؤية أفعاله وبيْنك المحبتين (أي وعدم المحبتين)[٣]، ليس من نفسه بل ذلك من نعمك عليَّ، وأنا أفتخر بذلك بأني كيف جدير لمحبتك.

قوله: حُبُ حِبٍّ، الحب الأول بضم الحاء المحبة، والثاني بكسر الحاء المحبوب.

قوله: إلَّا عن رعايته[٤]، أي إلَّا عن رؤيته.

قوله: وفيه القتل إن كتما.

---

(١) أخرجه: أبو داود في سننه (٥١٣٠)، وأحمد في مسنده (٥/ ١٩٤، ٦/ ٤٥٠)، والتبريزي في مشكاة المصابيح (٤٩٠٨)، والخطيب في تاريخ بغداد (٣/ ١١٧).

(٢) الرعاية كل ما أمر الله ﷻ بالقيام به فقد أمر برعايته وفي الحديث: **«كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته»**، فعلى العباد أن يقوموا بما أوجب الله عليهم في أنفسهم وفيمن استرعوهم، فالإمام راع على الناس ويحب عليه حفظ ما استرعى من أمورهم وكذلك الخاصة والعامة وأول ما بدأ الله ﷻ به خلقه إيجاب الرعاية فيه لحقه.

المعجم الصوفي (ص١٠٩)

(٣) وجدناه بالهامش.

(٤) على العبد أن يبدأ برعاية حقوق الله في قلبه فيوقفه حيث أوقفه الله من الرعاية لحقوقه وهي =

وأنشد أيضًا:

فرط المحبة حال لا يقاومها رأي الأصيل إذا محذوره قهرا
يلذ إن عدلت منه قوارعه وإن تزيد في تعديله بهرا

أي في الحب قتل المحب إن كتمه المحب، لأن المحبة بذاتها بلاء عظيم لا يقاومه شيء.

والحكاية عن البلاء راحة وطلب المراد فيه راحة، والبكاء فيه راحة.

فإذا لم يكن شيء من ذلك يزداد البلاء علىٰ البلاء فيقتله آخرًا، ومقتول المحبة أجلّ الشهداء لأن المحبة صنع الحق، فمن قتله الحق فهو أجلّ ممن قتله الخلق، لأن قتل الحق هو أن يستوفيه من جميع ما هو غيره ويجعله خالصًا له.

قوله:

فرط المحبة حال لا يقاومها رأي الأصيل إذا محذوره قهرا

يعني غلبة المحبة وكثرتها حال لا يقاومه رأي من له أصل وغور في التدبير.

(إذا غلب علىٰ المحب محذور الحال المذكور، والمحذور ما يحذر عنه، يعني إذا غلب علىٰ المحب بلاء المحبة لا يقاومه رأي الأصيل في التدبير)[1]، فيصير بلا سمع وبصر، ويضل الطريق.

قوله:

يلذ إن عُدّلت منه قوارعه وإن تزيد في تعديله بهرا

القوارع جمع قارعة وهي الشديدة من شدائد الدهر وهي الداهية.

= ثلاث خلال اعتقاد الإيمان ومجانبة الكفر واعتقاد السنة ومجانبة البدعة واعتقاد الطاعة ومجانبة الإصرار علىٰ كل ما يكره الله من عمل قلب وبدن، وجملة حقوق الله في الجوارح التي علىٰ الطالب مراعاتها هي القيام بالحركات فيما أوجب الله وترك الحركات عما كره ثم رعاية حقوق الله عند خطرات القلوب الداعية إلىٰ كل خير وشر.
المعجم الصوفي (ص١٠٩)

(١) وجدناه بالهامش.

اعلم أن للقوم عبارات تفردوا بها واصطلاحات فيما بينهم لا يكاد يستعملها غيرهم، تخبر ببعض ما يحضر، ونكشف معانيها بقول وجيز.

وإنما نقصد في ذلك إلىٰ معنى العبارة دون ما تتضمنه العبارة، فإن مضمونها لا يدخل تحت الإشارة فضلًا عن الكشف، وأما كنه أحوالهم فإن العبارة عنها مقصورة وهي لأربابها مشهورة.

يريد أن المحبة تعطي المحب لذة إذا كانت قوارعها متوسطة تجري عليه مستوية.

أما لو زادت علىٰ التعديل والتوسط وغلب حبه فيصير مغلوبًا مقهورًا، وسقط عن محل التمييز فلا يكون خبر عن اللذة ولا عن الألم كصواحبات يوسف عليه السلام[1].

قوله: لا يدخل تحت الإشارة.

وهي إيماء إلىٰ معين حسًّا أو عقلًا.

قوله: وأما كُنه أحوالهم.

أي وأما كنه أحوال هذه الطائفة فإن العبارة عنها مقصورة وتلك الأحوال لأربابها مشهورة.

❊ ❊ ❊

---

(١) قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ﴾ [يوسف: ٣١] أي أعظمن شأنه وأجللن قدره وجعلن يقطعن أيديهن دهشًا برؤيته وهن يظنن أنهن يقطعن الأترج بالسكاكين، فقد أعطي عليه السلام شطر الحسن كما في الحديث الصحيح.

الباب الثاني والخمسون
قولهم في التجريد والتفريد

فمعنى التجريد[1] أن يتجرد بظاهره عن الأعراض وبباطنه عن الأعواض، وهو أن لا يأخذ من عرض الدنيا شيئًا ولا يطلب علىٰ ما ترك منها عوضًا من عاجل ولا آجل، بل يفعل ذلك لوجوب حق الله تعالىٰ لا لعلة غيره ولا لسبب سواه، ويتجرد بسره عن ملاحظة المقامات التي يحلها الأحوال التي ينازلها، بمعنى السكون إليها والاعتناق لها والتفريد[2]: أن يتفرد عن الأشكال وينفرد في

قوله: بل يفعل ذلك، أي التجرد المذكور لوجوب حق الله تعالى، وهو العبودية لا لعلة وجوب حق الله تعالى، ولا لسبب سواه، فيتحقق العبودية والربوبية جميعًا فلو فعل لغير ما ذكر لا يتحقق شيء منهما، بل يكون عبدًا لما فعل ذلك له فلا يتحقق ربوبية الله بالنسبة إليه علىٰ حسب اعتقاده وعلمه.

فمعنى التجريد أن يتجرد ظاهره عن الأغراض، وباطنه عن الأعواض ويتجرد بسره عن ملاحظة المقامات التي يحلها، والأحوال التي ينازلها، أي ويتجرد عن السكون إليهما والاستئناس بهما.

---

(١) التجريد خلو قلب العبد وسره عما سوى الله بمعنى أن يتجرد بظاهره عن الأعراض وبباطنه عن الأعواض وهو ألا يأخذ من عرض الدنيا شيئًا ولا يطلب عما ترك منها عوضًا من عاجلًا ولا آجلًا، بل يفعل ذلك لوجوب حق الله تعالىٰ لا لعلة غيره، ولا لسبب سواه ويتجرد بسره عن ملاحظة المقامات التي يدخلها والأحوال التي ينازلها بمعنى السكون إليها، والاعتناق لها.

المعجم الصوفي (ص٤٨)

(٢) التفريد أن ينفرد عن الأشكال وينفرد في الأحوال ويتوحد في الأفعال، بمعنى أن تكون أفعاله لله وحده فلا يكون فيها رؤية نفس ولا مراعاة خلق ولا مطالعة عوض، وينفرد في الأحوال عن الأحوال فلا يرى لنفسه حالاً، بل يغيب برؤية محولها عنها ويتفرد عن الأشكال فلا يأنس بها ولا يستوحش منها، وقال بعضهم: الموحدون لله من المؤمنين كثير والمفردون من الموحدين قليل.

المعجم الصوفي (ص٥٢)

الأحوال ويتوحد في الأفعال، وهو أن تكون أفعاله لله وحده فلا يكون فيها رؤية نفس ولا مراعاة خلق ولا مطالعة عوض، ويتفرد في الأحوال عن الأحوال فلا يرى لنفسه حالًا بل يغيب برؤية محولها عنها، ويتفرد عن الأشكال فلا يأنس بهم ولا يستوحش منهم.

وقيل التجريد: أن لا يَملك، والتفريد أن لا يُملك أنشدونا لعمرو بن عثمان المكي[١]:

تفرد بالله الفريد فريد فظل وحيدًا والمشوق وحيد
وذاك لأن المفردين رأيتهم على طبقات والدنو بعيد

قوله:

تفرد بالله الفريد فريد فظل وحيدًا والمشوق وحيد

أي تفرد العبد الفريد عن غير الله ظاهرًا وباطنًا سرًّا وعلنًا بالله الفريد الذات والصفات والأفعال لا يشبه في شيء من ذلك غيره، فظل المتفرد بالله وحيدًا، لأن له شوقًا، والمشوق إلىٰ الشيء وحيد عن غيره الشوق والاشتياق نزاع النفس إلىٰ الشيء.

يقال: شاقني الشيء يشوقني فهو شائق وأنا مشوق.

قوله: رأيتهم علىٰ طبقات.

أي رأيت المنفردين[٢] علىٰ طبقات شيء يجوز أن يكون الرؤية ههنا، هو العلم

---

(١) عمرو بن عثمان المكي، أبو عبد الله البغدادي، المتوفى سنة (٢٩٦) هـ، قال عثمان بن سهل دخلت علىٰ عمرو بن عثمان المكي في علته التي توفي فيها فقلت له: كيف تجدك؟ فقال: أجد سري واقفًا مثل الماء لا يختار النقلة ولا المقام ومن أقواله: العلم قائد والخوف سائق والنفس حرون بين ذلك، خداعة رواغة فاحذرها وراعها بسياسة العلم وسقها بتهديد الخوف يتم لك ما تريد.

انظر صفة الصفوة لابن الجوزي (٢/ ٢٤٣)

(٢) في حديث مسلم في الذكر والدعاء حديث رقم (٤) عن أبي هريرة وفيه: **«سبق المفرِّدون»** قالوا: وما المفردون يا رسول الله؟ قال: ﴿وَالذَّٰكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّٰكِرَٰتِ﴾.

قال النووي: هكذا الرواية بفتح الفاء وكسر الراء المشددة، هكذا نقله القاضي عن متقني شيوخهم، وذكر غيره أنه روى بتخفيفها قال ابن قتيبة وغيره: وأصل المفردين الذين هلك أقرانهم وانفردوا عنهم فبقوا يذكرون الله تعالى، وجاء في رواية: هم الذين اهتزوا في ذكر الله أي لهجوا به، وقال ابن الأعرابي: يقال فرد الرجل إذا تفقه واعتزل وخلا بمراعاة الأمر والنهي.

النووي في شرح مسلم (١٧/ ٤، ٥) طبعة دار الكتب العلمية

فمن مفرد يسمو بهمة قلبه عن الملك جمعًا فهو عنه يحيد

الذي حصل له من التجربة والامتحان.

ويجوز أن يكون هو الإشراف والاطلاع علىٰ أحوالهم ويجوز أن يكون هذه الرؤية بالنسبة إلىٰ نفسه بأن يراه في التفريد متقلبًا ومتحولًا من حال إلىٰ حال، فيعلم أن المفردين الآخرين أيضًا كذلك ولذلك المعنى قال: رأيتهم علىٰ طبقات ليكون ذاكر لأحواله لا أحوال غيره لئلا يغتاب ـ (من الغيبة)[١] ـ.

واعلم أن المنفردين علىٰ طبقات منهم من تفرد بسره عن الدنيا، ومنهم من تفرد عن العقبى بعدم الطمع لها، ومنهم من تفرد عن الشيطان بأن لا يكون له عليه سلطنة.

ومنهم من تفرد عن النفس بالمخالفة معها، ومنهم من تفرد عن الخلق بعدم السكون والطمأنينة معهم ومنهم من تفرد عن المعصية بأن لا يفعلها.

ومنهم من تفرد عن الطاعة بعدم رؤيتها، ومنهم من تفرد عن الله بأن لا يراه لائقًا لصحبته.

ومنهم من تفرد عن الكائنات وعن كل معنى بمعنى الفناء والحيرة.

قوله: والدنو بعيد.

يعني الدنو إلىٰ الحق بعيد فهيهات هيهات الدنو من ظن أنه يجد الحق بترك شيء فقد الحق، ومن ظن أنه يجد الحق بسبب أو بعلة فقد أشرك لا يوجد الحق إلَّا بالحق، ولا يدرك الحق إلَّا بالحق والخلق في غفلة، وهم معرضون.

قوله: فهو عنه يحيد.

أي فمن مفرد[٢] يميل عن الملك جميعًا إلىٰ الملك.

---

(١) وجدناه بالهامش.

(٢) يقال فرد الرجل وفرد بالتخفيف والتشديد وأفرد وقد فسرهم رسول الله ﷺ بالذاكرين الله كثيرًا والذاكرات.

وأدمن سيرًا في السمو توحدًا وكل وحيد بالبلاء فريد
وآخر يسمو في العلو تفردًا عن النفس وجدًا فهي منه تبيد

قوله:

وأدمن سيرًا في السمو توحدًا وكل وحيد بالبلاء فريد

يعني المفرد الذي صفته ما ذكر قبل هذا البيت يعلو في السر، ويزداد سيره في السمو متوحدًا عن الكون يعني يسير سره في السمو ولا يشتغل بما يعترضه خوف أن يشغله عن الحق فينقطع عن الحق فيسير عن الدوام ليصل إلىٰ الحق، فإن الحق نهاية العارف[1] كما قال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾ والحق لا نهاية له.

قوله: كل وحيد بالبلاء فريد.

أي وكل وحيد بالله فريد بالبلاء لأنه لا يستأنس مع غير الله ولا يصل إليه فلا يكون ذلك البلاء إلَّا له أو يكون معناه وكل وحيد بالبلاء الذي لا يكون لغيره فهو فريد بأن لا يكون له نظير في تفرده، ومن هو أكثر تفردًا فهو أقرب إلىٰ الحق، أو يكون معناه وكل وحيد بالله عن غيره متفرد بتحمل البلاء، أي لا يتحمل غيره مثل ما يتحمله.

قوله:

وآخر يسمو في العلو تفردًا عن النفس وجدًا فهي منه تبيد

يقال: باد يبيد إذا هلك.

وهذه الطائفة أعلى من الطائفة الأولى، لأن الأولى تفردوا عن الملك تعففًا وتعظمًا للهمة، ولكن فيهم بقية من بقايا النفس، فلما تجاوزوا عن هذه المرتبة وتفردوا عن النفس بمخالفتها وعدم إعطاء مرادها إياها واختيار مراد الحق علىٰ مرادها، فإذا صاروا كذلك فالنفس منهم تهلك بمعنى أنه يقطع مراد النفس وشهواتها فهو هلاكها.

---

(١) العارفون علىٰ ثلاثة أصناف: صنف منهم ليس لهم من الحق نفس وصنف منهم يحثهم الوجد إلىٰ الحال الذي يتولاهم الحق بالحفظ فيه، وصنف منهم غاب عنهم العرف والعادة، واستوى عندهم النطق والصمت وغير ذلك بعناية الحق لهم فإن سكتوا فلله وإن نطقوا فعن الله ينطقون.

المعجم الصوفي (ص١٦٥)

وآخر مفكوك من الأسر بالفنا فأصبح خلوًا واجتباه ودود

فالذي أدمن سيرًا في السمو متوحد بالبلاء لأنه لا سبيل له إلىٰ ما يطلب ولا يساكن شيئًا دونه والذي تفرد عن النفس وجدًا فلا يحس بالبلاء والذي فك من أسر النفس بالفناء عنها هو المجتبى المقرب المتفرد بالحقيقة.

قوله:

وآخر مفكوك من الأسر بالفنا فأصبح خلوًا واجتباه ودود

فأصبح خلوًا من كل المعاني واجتباه الحق بتحققه متفردًا بالحقيقة.

وهذه الطائفة أعلى من الثانية، لأن الثانية وإن تفردت عن النفس لكنّها لم تصل إلىٰ مقام المشاهدة الذي وصلت إليه الطائفة الأخيرة.

❊ ❊ ❊

الباب الثالث والخمسون
قولهم في الوجد

ومعنى الوجد هو ما صادف القلب من فزع أو غم أو رؤية معنى من أحوال الآخرة، أو كشف حالة بين العبد وبين الله عز وجل.

قالوا: وهو سمع القلوب وبصرها.

قوله: ومنها الوجد[1]

وهو ما أصاب القلب ويتنبه القلب منه من فزع أو غم أو رؤية معنى من أحوال الآخرة أو كشف حالة بينه وبين الله عز وجل، وهذا علىٰ أنواع إما من خوف العذاب أو من ألم الفراق، وإما من حرقة الشوق والمحبة.

وقيل: الوجد ما يرد علىٰ الباطن من الله ويكسبه فرحًا أو حزنًا، ويغيره عن هيئته ويتطلع إلىٰ الله، وهو فرحة يجدها المغلوب عليه بصفات نفسه ينظر منها إلىٰ الله.

وقالوا: الوجد سمع القلوب وبصرها[2]، لأن من لم يكن له وجد لا يكون له محبة، ومن لم يكن له محبة لم يكن له معرفة، ومن لم يكن له معرفة لم يكن له إيمان، ومن لم يكن له إيمان لا يكون له سمع ولا بصر، والذي يدل علىٰ أن للقلوب بصرًا،

(١) يقول أبو النصر السراج الطوسي في اللمع: إن الوجد مكاشفات من الحق ألا ترى أن أحدهم يكون ساكنًا فيتحرك ويظهر منه الزفير والشهيق، وقد يكون من هو أقوى منه ساكنًا في وجده لا يظهر منه شيء من ذلك قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾ [الأنفال: ٢]. وأول الوجد رفع الحجاب ومشاهدة الرقيب وحضور الفهم وملاحظة الغيب ومحادثة السر وإيناس المفقود.
انظر اللمع للطوسي (ص٣٧٦)

(٢) قال أبو سعيد الخراز: الوجد أول درجات الخصوص وهو ميراث التصديق بالغيب فلما ذاقوها وسطع في قلوبهم نورها زال عنهم كل شك وريب، ويقال إن أبا سعيد الخراز كان كثير التواجد عند ذكر الموت، وقال الجنيد لا يضر نقصان الوجد مع فضل العلم، وفضل العلم أتم من فضل الوجد.

انظر اللمع للسراج الطوسي (ص٣٧٦، ٣٨١)

قال الله تعالىٰ: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾.

وقال: ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]، فمن ضعف وجده تواجد، والتواجد ظهور ما يجد في باطنه علىٰ ظاهره، ومن قوي تمكن فسكن.

قال الله تعالىٰ: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزُّمَر: ٢٣].

قال النوري: الوجد لهيب ينشأ في الأسرار ....

قول الله تعالىٰ ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾، والذي يدل علىٰ أن للقلوب سمعًا، قول الله تعالىٰ: ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

قوله: ومن قوي تمكن وسكن.

أي ومن قوي وجده بأن استأنس مع البلاء وألفه فما سمع أو أبصر لا يحركه ولا يقلقه بل تمكن وسكن ومن ضعف وجده تواجد، وهو ظهور ما يجد في باطنه مما ذكر علىٰ ظاهره، وذلك حال المريد المبتدي.

قوله: قال الله تعالىٰ: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزُّمَر: ٢٣].

وجيء بهذه الآية لصحة، فإن القلب الذي فيه الوجد يخشى ربه، فخشيته ربه علامة الوجد[١]. واقشعرار الجلود علامة التواجد، وهو ظهور ما في الباطن علىٰ الظاهر.

قوله: الوجد لهيب.

شبه الوجد بلهب النار، وكأن قلب المحب معدن النار وبيتها، ولكنها غير ملهبة، والمحب استأنس معها، فإذا ورد وارد من الله عليه فكأنه ينفخ فيها، فتشتعل

---

(١) يقول القشيري: الوجد يصادف قلبك ويرد عليك بلا تعمد وتكلف لهذا قال المشايخ: الوجد المصادفة والمواجيد ثمرات الأوراد فكل من ازدادت وظائفه أي نوافله ـ ازدادت من الله تعالىٰ لطائفه، وينقل عن شيخه أبي علي الدقاق قوله: الواردات من حيث الأوراد فمن لا ورد له بظاهره لا وارد له في سرائره.

الرسالة القشيرية (ص٨٥)

ويسنح عن الشوق فتضطرب الجوارح طربًا أو حزنًا عند ذلك الوارد.

وقالوا: الوجد مقرون بالزوال والمعرفة ثابته لا تزول.

أنشدونا للجنيد:

الوجد يطرب من في الوجد راحته ... والوجد عند حضور الحق مفقود

قد كان يطربني وجدي فأشغلني ... عن رؤية الوجد ما في الوجد موجود

وتلهب، فإن ضعف تواجد وإلَّا سكن.

(قوله: ويسنح عن الشوق.

أي يظهر عن الشوق)[١].

قوله: الوجد مقرون بالزوال.

أي يزول عن قريب.

والمعرفة التي ينبعث ويظهر الوجد منها ثابتة في السر لا تزول عنه بزوال الوجد.

لأن الوجد من تأثيرها، ولا يلزم من زوال الأثر زوال المؤثر.

قوله: والوجد عند حضور الحق مفقود.

يعني عند مشاهدته للسر، لأن مع حضور المحبوب لا يكون الغير ملتفتًا إليه بل لا يكون للمحب خبر من الغير.

قوله: فأشغلني عن رؤية الوجد ما في الوجد موجود

يريد أن الوجد صفة الواجد[٢].

والصفة باقية ببقاء الموصوف، لكن إذا ظهر سلطان الحق علىٰ شيء وتجليه لم

---

(١) وجدناه بالهامش.

(٢) قالوا: المتواجدون ثلاثة أصناف: فصنف يتكلف الوجد ويتشبه، وصنف يستدعي الوجد فتواجدهم مطايبة وفرح سرور، وصنف هم أهل الضعف من أبناء الأحوال وأرباب القلوب يعجزون عن ضبط جوارحهم وكتمان أحوالهم، فينفضون عنهم ما لا طاقة لهم بحمله. المعجم الصوفي (ص٢٥٧)

وأنشدونا لبعض الكبار:

أبدى الحجاب فدلّ في سلطانه عزّ الرسوم وكل معنى يحضر
هيهات يدرك بالوجود وإنما لهب التواجد رمز عجز يقهر

يكن له بقاء ففنى، فإذا هي لم تبق صفته، فلم يبق الوجد، كما لم يبق الجبل بتجلي الحق عليه.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾، فدل عليه.

(النفخ نفخ الوارد من الله تعالىٰ في صور السر فصعق العقل والنفس وكل الجوارح والحواس عن غير الله ويتوجهين إليه عند ذلك)[١].

قوله:

أبدى الحجاب فدل في سلطانه عز الرسوم وكل معنى يحضر

روي فدلّ بالدال المهملة من الدَلّ الفنج[٢]، وبالذال المعجمة من الذل الهوان، فعلى الأول معنى البيت أظهر الحجاب بينه وبين العبد فدل في سلطانه، وغيّب العبد عن رؤية عزّ رسوم الخلق، وكل معنى يحضره، وعلى الثاني وهو الأصح معناه أظهر الحجاب فصار ذليلًا في سلطانه وقهره رسوم الخلق.

وكل معنى يحضر العبد إذ أراد المحبوب أن يحير المحب ويولهه في هواه فيوقع الحجاب بينه وبينه، فيصير المحب متحيرًا والهًا في هواه ومحبته، ويذل عنده كل ما هو غير المحبوب.

قوله:

هيهات يدرك بالوجود وإنما لهب التواجد رمز عجز يقهر

يعني من ظن أن الحق يدرك بالوجد، فهيهات هيهات ظنه، أي بعد ظنه، لأن التواجد علىٰ الظاهر أثر الوجد في الباطن ولهبه وهو إشارة إلىٰ أنه عاجز عن تحمل

---

(١) وجدناه بالهامش.
(٢) كذا بالأصل.

لا الوجد يدرك غير رسم داثر والوجد يدثر حين يبدو المنظر
قد كنت أطرب للوجود مروعًا طورًا يغيبني وطورًا أحضر

الوجد[١] ومن عجز عن تحمل شيء فكيف يكون له خير عنه وعن غيره.

وأيضًا الوجد قاهر، والواجد مقهور، والمقهور لا يبقى بصفته بل يبقى بصفة القاهر، ومن لم يكن قائمًا بصفته لا يكون له خبر عن غيره وحاصل هذا الكلام أن الخلق إما في مقام الحجاب وإما في مقام المشاهدة.

والمحجوب لا يكون له خبر مما وراء الحجاب، والذي له المشاهدة صار في غلبات المشاهدة متحيرًا وجوده معدوم وبقاؤه فإن لا يعلم ما يسمع ولا يبصر فهو بالحقيقة أغيب من المحجوب.

قوله:

لا الوجد يدرك غير رسم داثر والوجد يدثر حين يبدو المنظر

يقال: دثر الرسم، أي درس وعفا إذا كان للمحب مع المحبوب في المحبة رسم، واستأنس المحب مع ذلك الرسم واندرس ذلك الرسم يغلب عليه الشوق[٢]، فيبدو الوجد منه، فالوجد إنما يبدو إذا اندرس رسم الصحبة فإذا حصلت المشاهدة والصحبة، لم يبق الوجد واندرس.

قوله:

قد كنت أطرب للوجود مروعًا طورًا يغيبني وطورًا أحضر

الطرب خفة تصيب الإنسان لشدة حزن أو سرور، وقد طرب بالكسر يريد إذا بدا

---

(١) ليس من الصدق إظهار الوجد من غير وجد نازل وقد يزعق الواجد وقد يبلغ إلى حد لو ضرب وجهه بالسيف لا يشعر فيه بوجع، وقد يمزق ثيابه وقد يرمي الخرقة إلى الحادي وكل ذلك لا ينبغي إلا إذا حضرته نية يجتنب فيها التكلف والمراءاة يقول الجنيد:

الوجد يطرب من الوجد راحته والوجد عند شهود الحق مفقود

المعجم الصوفي (ص٢٥٧)

(٢) الفرق بين الشوق والاشتياق أن الشوق يسكن باللقاء، والاشتياق لا يزول باللقاء، بل يزيد ويتضاعف.

المعجم الصوفي (ص١٣٧)

أفنى الوجود بشاهد مشهوده أفنى الوجود[١] وكل معنى يذكر

في الوجد كنت أطرب ولكن ذلك الطرب ممزوج بالخوف، لأن الوجد إنما يبدو إذا ذكر في السر من معاني المحبوب فيطرب بلذة ذكر ذلك المعنى ويخاف من غيبته تارة يغيبني عني بالمشاهدة، وتارة أحضر معي بارتفاع المشاهدة.

فإنها إذا ارتفعت يكون العبد حاضرًا له، فيعلم أي شيء يفعله.

فبالمشاهدة بقاء المعرفة[٢]، وبارتفاعها إقامة الشريعة، لأن دوامها يوجب أن يكون العبد مغلوبًا فيقف عن أداء الشريعة ودوام ارتفاعها يوجب البعد والشقاوة، فالغيبة عن الحبيب حضرة عند غير الحبيب، والغيبة عن غير الحبيب حضرة عند الحبيب.

والحق حقيقة والخلق رسم، والحقيقة والرسم لا يجتمعان، فالحق والخلق لا يجتمعان.

قوله:

أفنى الوجود بشاهد مشهوده أفنى الوجود وكل معنى يذكر

الشاهد عند هذه الطائفة معنى من الحق ينظر إليه السر.

---

(١) الوجود فقدان العبد بمحاق أوصاف البشرية ووجود الحق لأنه لا بقاء للبشرية عند ظهور سلطان الحقيقة وهو يأتي بعد الارتقاء عند الوجود، وهو أخص من الوجد والوجدان، لدوامه بدوام الشهود واستهلاك الواجد فيه، وغيبته عن وجوده بالكلية، ووحده الوجود اصطلاح اطلقوه علىٰ معتقدات بعض الفرق الصوفية من أنّ الحقيقة الوجودية واحدة وأن الكثرة الظاهره مظاهر وتعينات فيها أي أن الخلق الظاهر هو الحق الباطن ويعرف أهل هذه الفكره بأصحاب وحدة الوجود.

المعجم الصوفي (ص٢٥٧)

(٢) ما يسميه الصوفية معرفة هي نوع من الذوق لا دخل للعقل فيه وهي شهود القلب الذي استضاء بنور الله للحق سبحانه، ثم إن المعرفة تتضمن فوق ذلك الفناء فناء إنّيه العبد بذهاب صفات البشرية عنه والبقاء بصفات الله، وينسب الصوفي كل معرفة بالله إلىٰ الله نفسه لأنه تعالىٰ هو الذي يرفع عن العارف حجاب الغيريّه والاثنينية بحيث يصبح العارف عين المعروف.

المعجم الصوفي (ص٢٣٥)

وقال بعضهم: الوجد بشارات الحق بالترقي إلىٰ مقامات مشاهداته.

وأنشدونا لبعضهم:

من جاد بالوجد أحرى أن يجود بما يفني الوجود من الأفضال والمنن

يريد أنه أفنى الحبيب وجودي، أي وجدي بشاهد أتاني منه مشهود ذلك الشاهد، وهو الحبيب أفنى وجودي وكل معنى يذكره الخلق من الشاهد وغيره فإذا فني وجودي ففناء وجودي الذي هو صفتي أولى، لأن الصفة من غير الموصوف محال.

قوله: الوجد بشارات الحق بالترقي[١] إلىٰ مقامات مشاهداته.

لأن من يخاف من شيء أو يطلب شيئًا إذا وجد منه أثرًا يبدو فيه وجد.

وعلامة صحة ذلك الوجد أنه لو كان من الخوف لكان الخائف أهرب، ولو كان في مقام الطلب لكان أحرص علىٰ الطلب كما قيل: كل خائف هارب، وكل راغب طالب، فهذا الوجد يصير بشارة له علىٰ زيادة الطلب ليجد المراد، وعلى زيادة الهرب لينجو من البلاء، فبهذا الاعتبار يسمى الوجد بشارات الحق، لأن الحق لو لم يرد أن ينجيه من ما يخاف منه، أو لم يرد أن يوصله إلىٰ ما يطلبه لما أبدى ذلك الوجد فيه، فيكون الوجد بشارة من الحق يترقى صاحبه إلىٰ مقام مشاهدة الحق.

قوله:

من جاد بالوجد أحرى أن يجود بما يفني الوجود من الأفضال والمنن

قوله من جاد بالوجد يدل علىٰ أنه رأى الوجد من الحق لا من نفسه.

لكن لما كان الوجد أثر الشوق، والشوق صفة الغائب عن الحبيب[٢]، فالواجد

---

(١) الترقي هو انتقال السالك صعدًا في سلم الأحوال والمقامات، وأول مقامات النفس هو مقام النفس الأمارة، فإذا تحقق الارتقاء فهو مقام النفس اللوامة ثم مقام النفس الملهمة فالنفس المطمئنة فالنفس الراضية فالمرضية وأخيرًا مقام النفس الكلية وهو غاية الوصول ومقام الصديقين والأولياء والصالحين ودرجتهم درجة المقربين.

المعجم الصوفي (ص٥٠)

(٢) الحب عند الصوفية هو حب الله ورسوله وبعضهم البعض والناس جميعًا وفي صفة الحب =

أيقنت حين بدا بالوجد يبعثني أن الجواد به يوفى علىٰ الحسن

وللشبلي:

الوجد عندي جحود ما لم يكن عن شهود

وشاهد الحق عندي ينفي شهود الوجود

يكون غائبًا عنه يستدعي من الحق أن يجود معه بشيء يفني ذلك الوجد حتى يحصل له المشاهدة ويرتفع عنه الغلق والإضراب الذي مع الوجد.

قوله:

أيقنت حين بدا بالوجد يبعثني أن الجواد به يوفى علىٰ الحسن

الباب في بالوجد للتعدية، يبعثني أي يرغبني فيه وهو حال من فاعل بدا، والضمير في به للوجد.

قوله: يوفى علىٰ الحسن، أي يريد زيادة الإحسان إليَّ، معنى البيت أنه أيقنت حين أبدى الوجد فيّ مرغبًا لي فيه ومصيرًا لي طالبًا له إن الجواد بذلك الوجد وهو الحق يريد زيادة الإحسان إليّ علىٰ الجود الأول، وهو إعطاؤه الوجد.

يعني أيقنت أنه لو لم يرد إيصال تام فرح الوصال إليَّ لما أبدى الوجد فيّ ليصيرني طالبًا راغبًا.

قوله:

الوجد عندي جحود ما لم يكن عن شهود

وشاهد الحق عندي ينفي شهود الوجود

يعني إذا لم يكن الوجد عن مشاهدة السرّ فذلك إنكار لا وجد حقيقة، لأن الوجد

= الإلهي في معنى قول رابعة في الحب الثاني الذي هو أهل له يقول معروف الكرخي: إنه منحه إلهية وليس اكتسابًا بالتعلم، ومعروف هذا هو الذي قال تلميذ له بعد وفاته إنه رآه في المنام تحت العرش والله تعالىٰ يسأل الملائكة من هذا؟ فيقولون: أنت أعلم يا رب فيقول: هذا معروف الكرخي سكر من حبي فلا يفيق إلا بلقائي.

المعجم الصوفي (ص٧٢)

....

أراه والمشاهدة رؤية، فمن أرى ما لم يره فهو كذاب.

والكذاب منكر لا مقر، دليله شهادة المنافقين لرسول الله ﷺ بأنه رسوله، وتكذيب الله إياهم فيها.

والظاهر أن المراد بهذا الوجه التواجد[1]، لأن المواجيد مواهب من الله تعالىٰ بلا اختيار للعبد فيها، أو المراد من هذا الوجد الاستمرار علىٰ ما يكسب الوجد العبد من الفرح أو الحزن، وهو بكسب العبد.

قوله: وشاهد الحق . . . إلىٰ آخره.

أي الشاهد الذي من الحق، يعني إذا شاهد الحق ورآه يصير العبد مغلوبًا في مشاهدته بحيث لا يبقى الوجد ولا رؤيته.

وهذا الكلام من الشبلي رحمه الله إنكار للوجد، لأنه إن لم يكن من مشاهدة، فهو جحود لا وجد وعند المشاهدة لا يبقى الوجد، لأن الوجد إما من النعمة أو من البلاء.

وهذا في وقت مشاهدة الحق محال.

❊ ❊ ❊

---

(١) التواجد استدعاء الوجد، وقيل إظهار حالة الوجد من غير وجد، والمتواجدون علىٰ ثلاثة أصناف: منهم المتكلفون وصنف يستدعي الأحوال الشريفة وصنف هم أهل الضعف فإن عجزوا عن ضبط جوارحهم تواجدوا.

المعجم الصوفي (ص٥٨)

باب الرابع والخمسون
قولهم في الغلبة

الغلبة حال تبدو للعبد لا يمكنه معها ملاحظة السبب ولا مراعاة الأدب ويكون مأخوذًا عن تمييز ما يستقبله، فربما خرج إلىٰ بعض ما ينكر عليه من لم يعرف حاله ....

قوله: ومنها الغلبة(1)

قيل هو الوجد المتلاحق، والوجد كالبرق يبدو، والغلبة كتلاحق البرّ وتواتره.

قال صاحب الكتاب: الغلبة حال تبدو للعبد لا يمكن معها ملاحظة السبب (كما لا يلاحظ جهنم فإنها سبب البلاء، ولا الجنة فإنها سبب النعمة ولا المعصية فإنها سبب الخوف، ولا الطاعة فإنها سبب الأمن)(2)، ولا مراعاة الأدب، لأن ملاحظة السبب ومراعاة الأدب شرعيًا كان أو غيره إنما يكون إذا كان العبد مميزًا.

والمغلوب مسلوب التمييز، فيجري عليه بسبب الغلبة من غير القصد ما لو جرى عليه من القصد لكان معاتبًا وملامًا، فإذا جرى عليه ذلك في حال الغلبة يكون معذورًا كما يعذر مغلوب العقل فيما جرى عليه، والذي غلب عليه إما خوف من العقوبة أو هيبة من الحرمة أو إجلال من المشاهدة، أو حياء من التقصير في أداء حقوق الله تعالى، أو ما شابه ذلك.

قوله: فربما خرج إلىٰ بعض ما ينكر عليه من لم يعرف حاله.

يعني إذا كان المغلوب مأخوذًا منه التمييز فيما يستقبله، ربما خرج المغلوب إلىٰ بعض ما ينكر عليه أي ربما يصدر عنه شيء بسبب الغلبة ينكره عليه من لم يعرف حاله،

---

(1) الغلبة كما عرفها في المتن، وقيل صاحب الغلبات له هجوم وذلك عند قوة رغبة الطالب إذ لا حد له إعلام المزيد في حالة طلبه المطلوب، فلو ظن أن مطلوبه وراء بحر سبحه، أو في تيه سلكه بالهجوم عند غلبات الإرادة وقوة سلطان المطالبة عليه.

المعجم الصوفي (ص185)

(2) وجدناه بالهامش.

ويرجع علىٰ نفسه صاحبه إذا سكنت غلبات ما يجده ويكون الذي غلب عليه خوف أو هيبة أو إجلال أو حياء أو بعض هذه الأحوال كما جاء في الحديث عن أبي لبابة بن عبد المنذر[١] حين استشاره بنو قريظة، لما استنزلهم النبي ﷺ علىٰ حكم سعد بن معاذ، فأشار بيده إلىٰ حلقه أنه الذبح، ثم ندم علىٰ ذلك.

وعلم أنه قد خان الله ورسوله، فانطلق علىٰ وجهه حتى ارتبط في المسجد إلىٰ عمود من عمده وقال: لا أبرح مكاني هذا حتى يتوب الله عليَّ مما صنعت فهذا لما أن غلب عليه الخوف من الله عز وجل حال بينه وبين أن يأتي رسول الله ﷺ

كما إذا رأى الغافل مجنونًا يفعل قبيحًا ولم يعلم جنونه ينكر عليه، وإن علم جنونه يعذره.

قوله: ويرجع علىٰ نفسه صاحبه إذا سكنت غلبات ما يجده.

أي صاحب الحال المذكور، وهو الغلبة.

يشير بهذا القول إلىٰ أن الغلبة مقام القصور لا مقام الكمال، لأن رجوعه علىٰ نفسه وخروجه عليها بالتقصير الذي صدر منه.

إما لترك مراعاة أدب الشريعة في تلك الحال، فإذا سكنت غلبة ما يجده يشتغل بالعذر.

وإما لإخباره في تلك الحال عن الأسرار واطلاع غير المحرم عليها، فإذا سكنت الغلبة يشتغل بالعذر من هتك الستر ورفعه، ولو كان هذا المقام مقام الكمال لأوجب الشكر له لعذر.

وعلامة صحة هذا المقام أن المغلوب إذا سكنت غلباته وصحا منها لا يكون له خبر عما جرى عليه، وإلَّا يكون متكلِّفًا لا مغلوبًا.

---

(١) أبو لبابة بن عبد المنذر رضي الله عنه الأنصاري المدني، عاش إلىٰ خلافة علي وقيل اسمه بشير وقيل رفاعة بن رافع بن عبد المنذر ووهم من سماه مروان صحابي مشهور وكان أحد النقباء، أخرج له البخاري ومسلم وأبو داود وابن ماجة.

انظر تقريب التهذيب (٢/ ٤٦٧)

وكان هو الواجب عليه لقول الله عز وجل ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ [النساء: ٦٤] الآية.

وليس في الشريعة ارتباط بالسواري والعمد[١] وقال النبي ﷺ لما أن استبطأه: «**أما لو جاءني لاستغفرت له، فأما إذا فعل ما فعل فما أنا بالذي أطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه**» فلما علم الله صدقه وأن ذلك صدر عنه لغلبة الخوف عليه غفر له، فأنزل الله توبته، فأطلقه النبي ﷺ، فأبو لبابة ﵁ لما أن غلب عليه الخوف لم يمكنه ملاحظة السبب وهو استغفار الرسول ﷺ لقوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ [النساء: ٦٤] الآية.

ولم يمكنه مراعاة الأدب والأدب أن يعتذر إلىٰ من أذنب إليه وهو الرسول ﷺ وكما غلب علىٰ عمر ﵁ حميّة الدين[٢] حين اعترض علىٰ رسول الله ﷺ لما أراد أن يصالح المشركين عام الحديبية، فوثب عمر حتى أتى أبا بكر ﵁ فقال: يا أبا بكر أليس هذا برسول الله.

قال: بلى، قال: ألسنا بالمسلمين؟ قال: بلى.

قال: أليسوا بالمشركين، قال: بلى، قال: فعلى ما نعطى الدنية في ديننا؟

والمتكلف معاقب والمغلوب معذور.

---

(١) كان أبو لبابة سار مع النبي ﷺ يريد بدر فرده النبي من الروحاء واستخلفه في المدينة وضرب له بسهمه وأجره فكان كمن شهدها، وشهد أحد مع النبي ﷺ وما بعدها من المشاهد، واختلف الرواه في الذنب الذي أذنبه أبو لبابة حتى استدعى منه ربط نفسه في إحدى أسطوانات المسجد النبوي الشريف فذكر ابن عبد البر في الاستيعاب أن أبا لبابة كان ممن تخلف عن النبي ﷺ في تبوك فلما أحس بذنبه ربط نفسه بأحد أعمدة المسجد.
انظر أسد الغابة لابن الأثير

(٢) قال عمر: والله ما شككت منذ أسلمت إلَّا يومئذ، فأتيت النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله ألست نبيَّ الله؟ قال: «**بلى**»، قلت: ألسنا علىٰ الحق وعدونا علىٰ الباطل؟ قال: «**بلى**»، قلت: فلم نعطي الدنية في ديننا إذًا؟ قال: «**إني رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري**» قلت: أولست كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف حقًا؟ قال: «**بلى أنا خبرتك أنك تأتيه العام**» قلت: لا، قال: «**فإنك آتيه ومطوف به**» قال: فأتيت أبا بكر فقلت ... الحديث.

فقال أبو بكر: يا عمر الزم غرزه، فإني أشهد أنه رسول الله، فقال عمر: وأنا أشهد أنه رسول الله.

ثم غلب عليه ما يجد حتى أتى رسول الله ﷺ، فقال له: مثل ما قال لأبي بكر.

وأجابه النبي ﷺ كما أجابه أبو بكر حتى قال: **«أنا عبد الله ورسوله، لن أخالف أمره ولن يضيعني»**(١).

فكان عمر يقول: فما زلت أصوم وأتصدق وأعتق وأصلي من الذي صنعت يومئذ مخافة كلامي الذي تكلمت به حتى رجوت أن يكون خيرًا.

قوله: الزم غرزه، الغرز ركاب الرحل من جلد.

فإذا كان من خشب أو حديد فهو ركاب، أي الزم ركاب رسول الله ﷺ.

يعني اذهب إلىٰ موضع العلامة وقف هناك، ولا تعترض، فإن الاعتراض ليس أمرنا، بل أمرنا الطاعة لما يأمرنا رسول الله ﷺ.

قوله: «أنا عبد الله ورسوله، لن أُخالف أمره».

يشير به إلىٰ أن الصلح الذي أفعل مع المشركين إنما أفعل بأمر الله، فإذًا لا اعتراض علىٰ قوله: **«ولن يضيعني»**، يشير به إلىٰ أن الله تعالىٰ غير متهم عندي فلا أعترض عليه إذ الاعتراض عليه يدل علىٰ أنه متهم عند المعترض.

قوله: حتى رجوت أن يكون خيرًا.

أي حتى رجوت أن يكون ما فعلت من الصوم والصدقة والإعتاق والصلاة خيرًا لي، بأن لم يرد من الله من عقوبتي ولا في معاتبتي شيء.

---

(١) أخرجه: البخاري في صحيحه (٣/ ٥٦)، ومسلم في صحيحه كتاب الجهاد والسير، حديث رقم (٩٢)، وأحمد في مسنده (٣/ ٤٨٦، ٤/ ٣٣٠)، والبيهقي في السنن الكبرى (٩/ ٢٢٠، ٢٢٢)، وابن كثير في تفسيره (٧/ ٣٣٥)، والألباني في إرواء الغليل (١/ ٥٨)، والسيوطي في الدر المنثور (٦/ ٧٧، ٩٧).

وكاعتراضه عليه ﷺ أيضًا حين صلى علىٰ عبد الله بن أُبيٍّ.

قال عمر فتحولت حتى قمت في صدره وقلت يا رسول الله أتصلي علىٰ هذا؟

قوله: وكاعتراضه عليه عليه الصلاة والسلام، أي وكاعتراض عمر رضي الله عنه علىٰ النبي عليه الصلاة والسلام حين صلى علىٰ عبد الله بن أبي[١]، وهو رأس المنافقين لما مات عبد الله بن أبي، له ابن موحد جاء إلىٰ رسول الله ﷺ (وسال عنه)[٢] قميصه ليكفن أباه، فأراد رسول الله ﷺ أن يعطي قميصه إكرامًا لابنه، لا لأبيه، فلما فتح زره الأعلى وأراد أن يفتح زره الأسفل لم ينفتح وانغلق.

وقيل: كان رسول الله ﷺ يفتحه سبع عشرة مرة، فانغلق عليه في كل مرة حتى جاء جبريل فقال: أنت تفتحه وإنّا نغلقه، وإن علم النبي عليه الصلاة والسلام أن انغلاقه فعل الحق وهو لا يقدر علىٰ مخالفته إلّا أن له عليه الصلاة والسلام في فتحه معنيين:

أحدهما: أنه لما استجاب لا يريد أن يخالفه.

وثانيهما: أن لا يحمل ابن عبد الله بن أبي على البخل فاشتغل رسول الله ﷺ بفتحه ليجيء أمر المنع ويصير معذورًا، ولا يظن به ظن سوء، فقال لابن عبد الله بن أبي: ليس لي أمر بإعطاء القميص فلما حمل عبد الله بن أبي جاء ابنه إلىٰ رسول الله ﷺ وطلب منه أن يصلي علىٰ أبيه، فأجابه النبي عليه الصلاة والسلام محافظة لجانب ابن عبد الله بن أبي[٣].

---

(١) روى البيهقي في دلائل النبوة (٥/ ٢٨٥) في موت عبد الله بن أبي سلول وكان رسول الله ﷺ يعوده وكان مرضه عشرين ليلة فلما كان اليوم الذي مات فيه دخل عليه رسول الله ﷺ وهو يجود بنفسه فقال: «**قد نهيتك عن حب يهود**» فقال: قد أبغضهم سعد فما نفعه؟ ثم قال يا رسول الله ليس هذا بحيث عتاب هو الموت، فإن مت فاحضر غسلي، وأعطني قميصك أكفن فيه، وصلِّ علي واستغفر لي» وهذا حديث واه معضل بلا إسناد، كذا قال الذهبي في تاريخ الإسلام في السيرة العطرية.

(٢) كذا بالأصل وأظنها "وسأله أن يعطيه".

(٣) وروى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن ابن عمر قال: لما توفى عبد الله ابن أبي أتى ابنه عبد الله بن عبد الله إلى رسول الله ﷺ فسأله أن يعطيه قميصه ليكفنه فيه فأعطاه، ثم سأله أن يصلي عليه، فقام عمر فأخذ ثوبه فقال: يا رسول الله أتصلي عليه وقد نهاك الله عنه، قال: إن ربي خيرني فقال: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ . . . الآية وسأزيد علىٰ السبعين، فقال: =

وقد قال يوم كذا كذا، وفعل يوم كذا كذا، يعدد أيامًا له حتى قال له: «**أخر عني يا عمر إني خيرت فاختر**»[١] وصلى عليه.

فقال عمر: فعجب لي ولجرأتي علىٰ رسول الله.

وأيضًا كان الأمر بالصلاة ثابتًا علىٰ كل من قال لا إله إلَّا الله.

كما قال عليه الصلاة والسلام: «**صلوا على كل من قال لا إله إلَّا الله**»[٢].

وهذا مراعاة حق الشريعة، لأن مبناها علىٰ الظاهر فجاء النبي عليه الصلاة والسلام ليصلي علىٰ عبد الله بن أبي، فإذا قام قبل الجنازة ليصلي عليه، فأخبر عمر ﷺ بذلك، فجاء وحال بين رسول الله ﷺ وبين الجنازة، ووضع يده علىٰ صدر رسول الله ﷺ وقال: يا رسول الله أتصلي على هذا، وهذا قال يوم كذا كذا، وفعل يوم كذا كذا، وعدد أيامه التي فعل فيها برسول الله ﷺ وأصحابه ما فعل من السوء حتى قال رسول الله ﷺ لعمر: «**أخر عني يا عمر إني خُيّرت في هذا واخترت أن أصلي عليه**». فصلى عليه.

وهذه الصلاة رعاية لجانب ابنه[٣] أو مراعاة لحق الشريعة، وعلى هذا يحمل قول

=

إنه منافق، قال: فصلى عليه رسول الله ﷺ فأنزل الله ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾ .... الآية.

(١) أخرجه: البخاري في صحيحه (٢/ ١٢١، ٦/ ٨٥)، والترمذي في سننه (٣٠٩٧)، والنسائي (٤/ ٦٤، ٦٨ - المجتبى)، وأحمد في مسنده (١/ ١٦)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (١/ ٤٤)، وابن جرير الطبري في تفسيره (١٠/ ١٤٢).

(٢) أخرجه: الهيثمي في مجمع الزوائد (٢/ ٦٧)، والطبراني في المعجم الكبير (١٢/ ٤٤٧)، والزبيدي في الإتحاف (٣/ ١٧٩).

(٣) قال النووي: قيل: إنما أعطاه قميصه وكفنه فيه تطييبًا لقلب ابنه فإن كان صحابيًا صالحًا، وقد سأل ذلك فأجابه إليه، وقيل: مكافأة لعبد الله المنافق الميت لأنه كان ألبس العباس حين أسر يوم بدر قميصًا.

وفي هذا الحديث بيان عظيم مكارم أخلاق النبي ﷺ، فقد علم ما كان من هذا المنافق من الإيذاء وقابله بالحسنى فألبسه قميصه كفنًا وصلى عليه واستغفر له، وقال الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾. وفيه تحريم الصلاة والدعاء له بالمغفرة والقيام علىٰ قبره للدعاء.

شرح مسلم للنووي (١٥/ ١٣٦) طبعة دار الكتب العلمية

ومن حديث أبي طيبة حين حجم النبي ﷺ فشرب دمه، وذلك محظور في الشريعة ولكن فعله في حال الغلبة.

فعذره النبي ﷺ وقال: **«لقد احتظرت بحظائر من النار»**[١].

الله عز وجل: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾ [التوبة: ٨٤]، على أن هذه الآية نزلت بعد أن صلى عليه، والذي صح أنه ما صلى عليه رسول الله ﷺ ولكن لما عاتبه عمر رضي الله عنه في ذلك نزلت الآية: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾ [التوبة: ٨٤]، فرجع النبي عليه الصلاة والسلام وقال: **«صلوا علىٰ صاحبكم»**.

ثم جاء ابنه إلىٰ رسول الله ﷺ وقال إن لم تصلِّ علىٰ أبي لأنه كافر فأت إلىٰ قبره ليبدو عز إسلامي من ذل كفره، فأراد رسول الله ﷺ أن يجيء إلىٰ قبره فأخبر عمر رضي الله عنهما بذلك فجاء إلىٰ رسول الله وقال: يا رسول الله أتقوم علىٰ رأس قبره وهو قال كذا وكذا، وفعل كذا وكذا، وعدد جناياته واحدة فواحدة حتى نزلت: ﴿وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٨٤]، ولو لم يكن لعمر رضي الله عنه شرف إلَّا هذا لكفاه[٢].

قوله: لقد احتظرت بحظائر من النار.

يعني لقد امتنعت بموانع من النار، يريد أن دمي صار حظيرة لك من النار لئلا تحرقك.

---

(١) أخرجه: الهيثمي في مجمع الزوائد (٣/ ٧)، (٨/ ٢٧٠).

وروى **«حجم رسول الله ﷺ أبو طيبة فأمر له بصاع من تمر وأمر أهله أن يخففوا عنه من خرجه»** انظر حديث ابن السماك والخلدي رقم (٤٨).

(٢) روى مسلم في صحيحه كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عمر رضي الله عنه، حديث رقم (٢٤) عن ابن عمر قال: قال عمر وافق ربي في ثلاث: في مقام إبراهيم، وفي الحجاب، وفي أسارى بدر».

قال النووي: وجاء في رواية أخرى في الصحيح: اجتمع نساء رسول الله ﷺ عليه في الغيرة، فقلت: عسى ربه إن طلقكن أن يبدله ازواجًا خيرًا منكن، فنزلت الآية بذلك، وجاء في الحديث الذي ذكره مسلم بعد هذا موافقته في منع الصلاة علىٰ المنافقين ونزول الآية بذلك وجاءت موافقته في تحريم الخمر، فهذه ست وليس في لفظه ما ينفي زيادة الموافقة والله أعلم.

شرح مسلم للنووي (١٥/ ١٣٦) طبعة دار الكتب العلمية

فهذه كلها وأمثالها كثيرة تدل علىٰ أن حالة الغلبة حالة صحيحة، ويجوز فيها ما لا يجوز في حال السكون ويكون الساكن فيها بما هو أرفع منه في الحال أمكن وأتم حالة كما كان أبو بكر رضي الله عنه.

قوله: ويكون السكون فيه بما هو أرفع منه من الحال أمكن وأتم حالة.

أي ويكون السكون في وقت الغلبة بشيء من الحال الذي هو أرفع من حال الغلبة أمكن وأتم حالة من حالة الغلبة.

يريد أنه إذا كان الحال واحدًا والوقت واحدًا والحادثة واحدة وشخصان يكون لكل منهما شرب من ذلك ويكون أحدهما مع السكون والآخر مع الغلبة، فمقام الساكن أعلى من مقام المغلوب، لأن المغلوب إنما صار مغلوبًا من ضعف وقته، ولهذا لو سكن يشتغل بعذر ذلك الوارد، وسكون الساكن من قوة وقته، ولهذا لا يحتاج إلىٰ العذر.

وهذا التفاضل إنما يكون حيث يكون وقتهما وحالهما واحد، أو أحدهما ساكن والآخر مغلوب، فأما لو كان لواحد حال حال يكون مغلوبًا فيها وليس لآخر خبر من ذلك الحال، فهذا المغلوب أفضل من هذا الساكن، لأن الغلبة إن كانت من الخوف أو من المحبة مثلًا، فالخائف أفضل من غير الخائف.

والمحب أفضل من غير المحب، وكذا سائر معاني الغلبة.

قوله: كما كان أبو بكر رضي الله عنه.

فإن له خبرًا من الوقت الذي قاله عمر، ولكن له مقام السكون، ولعمر مقام الغلبة، فسكونه انقياد للحكم واضطراب عمر اعتراض.

❊ ❊ ❊

الباب الخامس والخمسون
قولهم في السكر

وهو أن يغيب عن تمييز الأشياء ولا يغيب عن الأشياء وهو أن لا يميز بين مرافقه وملاذه، وبين أضدادها في مرافقة الحق، فإن غلبات وجود الحق تسقطه عن التمييز بين ما يؤلمه ويلذه.

كما روي في بعض الروايات في حديث حارثة أنه قال: استوى عندي حجرها ومدرها، وذهبها وفضتها وكما قال عبد الله بن مسعود ما أبالي علىٰ أيِّ الحالين وقعت علىٰ غنى أو فقر، فإن كان فقرًا فإن فيه الصبر، وإن كان غنى فإن فيه الشكر.

ذهب عنه التمييز بين الأرفق وضده، وغلب عليه رؤية ما للحق من الصبر

قوله: ومنها السكر[1]

قيل: هو غفلة أهل الوصل، أي عما سوى الله، فإذا غفل عنه لا يكون له شعور به فلا يميز بين الأشياء فلا يميز بين اللذة والألم والضر والنفع، وإن وصل إليه ذلك، لأن غلبات موافقة الحق يصيره بحيث لا يكون له خبر عن التمييز.

قوله: ذهب عنه التمييز بين الأرفق به وهو الغنى **وضده**، وهو الفقر فغيبته رؤية الصبر عن الفقر ورؤية الشكر عن الغنى.

لأن الله تعالىٰ أمر بالصبر حالة الفقر وبالشكر حالة الغنى وتعظيم أداء أمر الله تعالىٰ وموافقته غلب عليه بحيث شغله عن حالتي الفقر والغنى وإن كان حاصلًا كغيبة أهل

---

(١) إذا ازدادت غلبة الوجد علىٰ الصوفي وصل إلى حالة السكر، والسكر هو أن يغيب الصوفي عن تمييز الأشياء وقد أطلق القشيري علىٰ السكر غيبة حيث يقول: فالغيبة غيبة القلب عن علم ما يجري من أحوال الخلق لاشتغال الحس بما ورد عليه، ثم قد يغيب عن إحساسه بنفسه وغيره بوارد من تذكر ثواب أو تفكر عقاب".

الرسالة القشيرية (ص٦٣)

والشكر، والصحو[(١)] الذي هو عقيب السكر هو أن يميز فيعرف المؤلم من الملذّ فيختار المؤلم في موافقه الحق، ولا يشهد الألم بل يجد لذة في المؤلم.

القيامة من المؤمنين عن الألم كما قال الله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ [القَلَم: ٤٢] أي يرفع عنهم الشدة، فلا يبقى لهم مع لقاء الحبيب محنه وشدة فيكونون غائبين عن الألم.

وكقوله: وكغيبة أهل الجنة عن اللذة كما جاء في الحديث إذا نظروا إلىٰ الرب جل جلاله يتيهون[(٢)] عن الجنة ونعيمها وقصورها وثمارها وأشجارها وحورها ثمانمائة عام، وطوبى لمن كانت غيبته عن غير الحق بالحق والويل لمن كانت غيبته عن الحق بغير الحق.

قوله: ولا يشهد الألم[(٣)].

أي لا يراه، بل يجد لذة فيما هو مؤلم للخلق.

ومثل حكاية ذلك بحال بعض عبدة الوثن من الهند فإن طائفة منهم ادّعوا محبة الصنم ويخدمونه سنين حتى يكون لائقًا لأن يروه، فإذا وصلوا بالخدمة إلىٰ ذلك المقام يجعلون رأسهم حواليه بالعجين كقصعة ويريقون النفط فيها ويأخذون النار باليد ويرفعون الستر عن وجه الصنم وإذا وقع بصرهم علىٰ الصنم قعدوا تجاه الصنم ويضرمون النار في النفط ليحترق النفط ويحرق رؤوسهم بحيث يخرج المغز من آذانهم

---

(١) الصحو هو رجوع العارف إلى الإحساس بعد الغيبة وعكسه السكر وهو غيبة بوارد قوي، والمعنى قريب من معين الحضور والغيبة والفرق بين الحضور والصحو أن الصحو حادث والحضور علىٰ الدوام، والصحو والسكر أقوى وأتم وأقهر من الحضور والغيبة والسكر يعتور عليه صحو أن صحو قبل السكر وهو تفرقه محضه ليس من الأحوال في شيء وصحو بعد السكر وهو الرجوع بعد الغيبة.
المعجم الصوفي (ص١٤٣)

(٢) بالهامش: أي يتحيرون.

(٣) من أخلاق الصوفية الصبر علىٰ الألم ويروون أن رابعة العدوية سألت مره جماعة منهم عن معنى الصدق فقال أحدهم ليس بصادق في دعواه من لم يصبر علىٰ الوجيعة ينزلها به مولاه، وقال آخر ليس بصادق في دعواه من لم يشكر علىٰ الوجيعة ينزلها به مولاه، وقال آخر ليس بصادق في دعواه من لم يتلذذ بالوجيعة ينزلها به مولاه، فصاحت رابعة بل ثمت ما هو أفضل من ذلك كله فليس بصادق في دعواه من لم ينس الوجيعة في مشاهدة مولاه مثل نسوة مصر اللائي نسين آلام أيديهن لما رأين وجه يوسف.

المعجم الصوفي (ص٢٩، ٣٠)

كما جاء عن بعض الكبار أنه قال: لو قطعني بالبلاء إربًا إربًا ما ازددت لك إلَّا حُبًّا حُبًّا.

وعن أبي الدرداء أنه قال: أحب الموت اشتياقًا إلىٰ ربي، وأحب المرض تكفيرًا لخطيئتي، وأحب الفقر تواضعًا لربي.

وعن بعض الصحابة أنه قال: يا حبذا المكروهان الموت والفقر.

وهذه الحالة أتم، لأن صاحب السكر يقع علىٰ المكروه من حيث لا يدري ويغيب عن وجود التكرّه. وهذا يختار الآلام علىٰ الملاذ، ثم يجد اللذة فيما

ومناخرهم ولا يتأوّهون ولو تأوّهوا أو تحركوا يعلم أنهم كذّابُون في دعوى المحبة[١].

وإذا لم يتأوّهوا ولم يتحركوا صدقًا لدعوى المحبة فأخذوا رمادهم وأرسلوه بالهدية والتحفة لأجل شفاء المرضى، وإذا كان دعوى محبة الصنم هكذا فكيف دعوى محبة الله تعالى، ومن احترق في محبة الصنم يكون رماده شفاء للمرضى، فكيف من احترق في محبته تعالىٰ فإن نفسه وخاطره شفاء للكون.

قوله: إربًا إربًا.

الأرب العضو.

قوله: وهذه الحالة أتم.

أي حالة الصحو التي عقيب السكر أتم من السكر.

قوله: ويغيب عن وجود التكرّه.

أي عن وجود كراهية الألم[٢].

---

(١) كتب يحيى بن معاذ إلىٰ أبي اليزيد يقول: سكرت من كثرة ما شربت من كأس محبته، فكتب أبو اليزيد في جوابه سكرت وما شربت من الدرر وغيري قد شرب بحور السموات والأرض وما روي بعد ولسانه مطروح من العطش ويقول: هل من مزيد.
انظر حلية الأولياء لأبي نعيم الأصبهاني (١٠/ ٤٠)

(٢) يقال إن رابعة العدوية أول من ذهبت إلىٰ تمجيد الألم والدعوة لما يمكن أن يسمى بعبادة الألم، مما أنشأ في الحياة الروحية للصوفية وترًا جديدًا ظل الصوفية وعلى رأسهم الحلاج يعزفون عليه من بعدها وكانت رابعة ترى في الألم نعمة يختص بها الله عباده المخلصين.
المعجم الصوفي (ص٣٠)

يؤلمه لغلبة شهود فاعله.

والصاحي الذي نعته قبل نعت السكر ربما يختار الآلام علىٰ الملاذ لرؤية ثواب أو مطالعة عوض وهو متألم في الآلام، ومتلذذ في الملاذ، فهو نعت الصحو والسكر.

وأنشدونا لبعض الكبار:

كفاك بأن الصحو أوجد كآبتي فكيف بحال السكر والسكر أجدر

فحالاك لي حالان صحو وسكرة فلا زلت في حالي أصحو وأسكر

معناه أن حالة التمييز إذا أسقط عني ما لي وأوجد ما لك، فكيف يكون حالة السكر، وهو سقوط التمييز عني ويكون الله هو الذي يصرفني في وظائفي ويراعيني في أحوالي.

وهاتان حالتان تجريان عليّ وهما لله تعالىٰ لا لي فلا زلت في هاتين الحالتين أبدًا.

قوله:

كفاك بأن الصحو أوجد كآبتي فكيف بحال السكر والسكر أجدر

قيل في هذا البيت فضل السكر علىٰ الصحو، لأن السكران ليس له خبر عن نفسه فيأمن عن رؤية النفس بخلاف الصاحي، فإن له خبرًا عن نفسه وتمييزًا، وأن يختار مراد الحق علىٰ مراد نفسه لكن لا يأمن أن يرى نفسه.

❊ ❊ ❊

الباب السادس والخمسون
قولهم في الغيبة والشهود

فمعنى الغيبة أن يغيب عن حظوظ نفسه فلا يراها وهي أعني الحظوظ قائمة معه موجودة فيه غير أنه غائب عنها بشهود ما للحق، كما قال أبو سليمان الداراني وبلغه أنه قيل للأوزاعي رأينا جاريتك الزرقاء في السوق، فقال: أوزرقاء هي؟ فقال سليمان: انفتحت عيون قلوبهم وانطبقت عيون رؤوسهم.

أخبر أن غيبته عن زرقتها كانت مع بقاء لذة الحور فيه بقوله: أوزرقاء هي.

والشهود أن يرى حظوظ نفسه بالله لا بنفسه ومعنى ذلك أن يأخذ ما يأخذ

قوله: ومنها الغيبة والشهود

فمعنى الغيبة أن يغيب عن حظوظ النفس فلا يراها، وهذه هي الغيبة[1]، وعدم الرؤية هو أن لا يرى في الدنيا والعقبى لنفسه واجبًا علىٰ الحق، وينسى حظوظ نفسه في شغل ما للحق.

قوله: أخبر أن غيبته عن زرقتها كانت مع بقاء لذة الحور.

يعني إذا قيل للأوزاعي جاريتك الزرقاء، فأجاب بأنها أوزرقاء هي، فلو لم يكن فيه فرق بين الأزرق والأسود لما أجاب هذا الجواب.

ولكن مع أن فيه قدرًا من حظوظ النفس، وهو أن الحوراء تفضل علىٰ الزرقاء اشتغل سره بالحق بحيث غاب عن أن يكون له خبر عن الأسود والأزرق فيكون له حظ النفس فيه قائمًا، ولكنه غائب عنه **قوله: والشهود أن يراها بالله لا بنفسه.**

(١) الغيبة كل ما ستره الحق منك لا منه، والحق تعالىٰ له عوالم كثيرة وكل عالم ينظر الله إليه بواسطة الإنسان يسمى شهادة وجودية وكل عالم ينظر من غير واسطة الإنسان يسمى غيبًا، وقد جعله الله نوعين: فغيب جعله مفصلاً في علم الإنسان وغيب جعله مجملاً في قابلية الإنسان والأول يسمى غيبًا وجوديًا وهو كعالم الملكوت والثاني يسمى غيبًا عدميًا وهو كالعوالم التي يعلمها الله تعالىٰ ولا نعلمها فهي عندنا بمثابة العدم فذلك معنى الغيب العدمي.
المعجم الصوفي (ص١٨٦)

بحال العبودية وخضوع البشرية لا للَّذة والشهوة.

وغيبة أخرى وراء هذه وهي أن يغيب عن الفناء والفاني بشهود البقاء[١] والباقي لا غيره.

يعني إذا غاب عن حظوظه علىٰ المعنى المذكور لا يرى من نفسه أنه أعرض عنها، ولكن يرى المنة للمولى أن يمنعه عنها ليصير مشغولًا بالحق لا بغيره.

قوله: وغيبة أخرى وراء هذه، أي فوق الغيبة المذكورة مرتبة هي أن يغيب عن الفناء[٢] والفاني برؤية البقاء والباقي لا بغيره كما أخبر حارثة عن هذه الحال وهو أنه ادعى غيبته عن الدنيا وهو فيها، وأخبر عن حضوره في العقبى وليس فيها صورة.

والشهود المذكور أعني شهود الباقي شهود غلبة وهو أن يغلب عليه شيء بحيث لا يرى حيث لا ينظر إلَا إياه ولا يسمع إلَّا منه ولا ينطق إلَّا معه ووصف صاحب الكتاب الغيبة التي تكون بعد هذا الشهود بأن تكون غيبته عما غاب غيبة شهود النفع والضر لا غيبة استتار واحتجاب، بمعنى أنه لا يرى النفع والضر إلَّا من الله كما أن الخليل عليه السلام حين أُلقي إلىٰ النار لم يخف من مضرة النار ولم يعتمد علىٰ منفعة إعانة جبريل عليه السلام إياه لغلبة مشاهدة الحق عليه بحيث غيبته عنهما.

---

(١) يعرف الصوفية الفناء بقولهم: الفناء تبديل الصفات البشرية بالصفات الإلهية دون الذات، فكلما ارتفعت صفة بشريه قامت صفة إلهية مقامها، فيكون الحق سمعه وبصره كما نطق به الحديث، وقالوا: الفناء من استولى عليه سلطان الحقيقة حتى لم يشهد من الأغيار لا عينًا ولا أثرًا ولا رسمًا ولا طللًا.

انظر كفاية المعتقد ونكاية المنتقد لليافعي (ص٢٠٩)

(٢) يقول السهروردي: أقاويل الشيوخ في الفناء والبقاء كثيرة فبعضها إشارة إلىٰ فناء المخالفات وبقاء الموافقات وهذا تقتضيه التوبة النصوح وبعضها إشارة إلىٰ زوال الرغبة والحرص والأمل وهذا تقتضيه تزكية النفس وبعضها إشارة إلىٰ حقيقة الفناء المطلق، وكل هذه الإشارات فيها معنى الفناء من وجه ولكن الفناء المطلق هو ما يستولى من أمر الحق ﷻ علىٰ العبد فيغلب كون الحق سبحانه علىٰ كون العبد.

انظر كفاية المعتقد ونكاية المنتقد لليافعي (ص٢٠٩)

كما أخبر حارثة عن نفسه، ويكون الشهود شهود غلبة لا شهود عيان.

ويكون غيبته عما غاب غيبة شهود الضر والنفع لا غيبة استتار واحتجاب.

أنشدونا للنوري:

شهدت ولم أشهد لحاظًا لحظته وحسب لحاظ شاهد غير مشهد

وغبت مغيبًا غاب للغيب غيبه فلاح ظهور غيبه غير مفقد

وعبر عن الشهود بعض مشايخنا فقال: الشهود[1] أن تشهد ما تشهد مستصغرًا له معدوم الصفة لما غلب عليك من شاهد الحق كما جاء:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل

قوله:

شهدت ولم أشهد لحاظًا لحظته[2] وحسب لحاظ شاهد غير مشهد

يقول: رأيت الحبيب لا برؤية العين وكفى للحاظ أن يكون شاهدًا بالسر غير شاهد بالعين، ويجوز أن يكون المراد بهذه المشاهدة رؤية السر ويجوز أن يكون حضور السر شيء مع غيبة النفس عنه.

قوله:

وغبت مغيبًا غاب للغيب غيبه فلاح ظهور غيبه غير مفقد

وهو ظهور الحق مع غيبه السر عن هذا الظهور لتحيره في هيبة المشاهدة وعظمتها بحيث يغيب عنه ما حضره.

قوله:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

---

(١) الشهود هو رؤية الحق بالحق، وقيل الشهود أن يرى العبد حظوظ نفسه وتقابله الغيبة وهي أن يغيب عن حظوظ نفسه فلا يراها وشهود المجمل في المفصل هو رؤية الأحدية في الكثرة وشهود المفصل في المجمل هو رؤية الكثرة في الذات الأحدية.

المعجم الصوفي (ص١٣٧، ١٣٨)

(٢) اللحظ هو إشارة إلى ملاحظة أبصار القلوب لما يلوح لها من زوائد اليقين بما آمنت به من الغيوب.

المعجم الصوفي (ص٢١٢)

وكما قال موسى عليه السلام: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ رأى السامري معدوم الصفة في شهود الحق.

تتمه:

وكـل نـعـيـم لا مـحـالـة زائـل

أي من نعمة الدنيا، وهذا البيت للبيد وهو كان كافرًا من شعراء الجاهلية.

وقال النبي عليه الصلاة والسلام: «**إن أصدق ما قالته العرب قول لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل**»(١)، بمعنى أن كل شيء غير الله تحققه بالله، فهو في نفسه وبالنظر إلىٰ نفسه معدوم غير ثابت.

والباطل خلاف الثابت الذي هو الحق، بخلاف الحق فإن تحققه بذاته لا شيء آخر، فالحقيقة هي تحقق الحق وتحقق غيره مجاز.

وإما بأن ما هو غيره يفنى ويبقى وجهه أبدًا.

وإما بأن اللذة والذوق المستفادين من غيره يشوبهما ما ينافيهما، بخلاف ما استفيد منه فإنه في غاية الكمال والتمام بحيث لا يشوبه ما ينغصه وينافيه.

وكما رأى موسى عليه السلام السامري معدوم صفة إضلال قومه بناء علىٰ أن موسى عليه السلام رأى الكل مسخرًا لقدرة الحق ومقهور سلطانه فأضاف الفتنة إلىٰ الله تعالىٰ فقال: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ﴾ [الأعراف: ١٥٥].

---

(١) أخرجه: البخاري في صحيحه حديث رقم (٦٤٨٩) ومسلم في صحيحه كتاب الشعر في المقدمة حديث رقم (٣)، وابن ماجة في سننه (٣٧٥٧)، وأحمد في مسنده (٢/ ٣٣٩)، (٢/ ٤٥٨)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٨/ ٢١٧)، وفي الشمائل للترمذي (١٢٣، ١٢٥)، والتبريزي في مشكاة المصابيح (٤٧٨٦).

قال النووي في حديث مسلم رقم (١) في كتاب الشعر وطلبه سماع النبيّ ﷺ شعر أميه بن أبي الصلت قال النووي: إن المذموم من الشعر الذي لا فحش فيه إنما هو الإكثار منه وكونه غالبًا علىٰ الإنسان، فأما يسيره فلا بأس بإنشاده وسماعه وحفظه، وقال: إن النبي ﷺ استحسن شعر أميه واستزاد من إنشاده لما فيه من الإقرار بالوحدانية والبعث ففيه جواز إنشاد الشعر الذي لا فحش فيه.

شرح مسلم للنووي (١٥/ ١٠) طبعة دار الكتب العلمية

وأنشدونا للنوري:

تسترت عن دهري بستر همومه محيرة في قدر من جل عن قدري
فلا الدهر يدري أنني عنه غائب ولا أنا أدري بالخطوب إذا تجري
إذا كان كلي قائمًا بوفائه فلست أبالي ما حييت يد الدهر

فأوحى الله تعالىٰ إلىٰ موسى عليه السلام أن سبب هذه الفتنة أنت يا موسى بأن قلت لأخيك حين مشيت إلىٰ الطور لمناجاتي: ﴿ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي﴾ [الأعراف: ١٤٢] جعلت أخاك حافظًا لقومك وفوضت أمرهم إليه.

قوله:

تسترت عن دهري بستر همومه محيرة في قدر من جل عن قدري

يقول: أنا تحت سر هموم المحبوب والشغل به حيرت بحيث لا يكون لي خبر عن الكون، وصيرتني تلك الهموم محيرّة في قدر من جل قدره عن أن يدركه قدري أو بعظمة، وهو موافق لقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ﴾ [الأنعام: ٩١] أي ما عرفوا الله حق معرفته، أو ما عظموا الله حق تعظيمه.

قال: **تسترت عن دهري بستر**، يريد أنه لا يكون له خبر عن الدهر[1]، لأن الستر عن شيء يكون حجابًا عنه.

قوله:

فلا الدهر يدري أنني عنه غائب ولا أنا أدري بالخطوب إذا تجري

فجعل السر والنفس كُلًّا منهما شاهدًا وغائبًا، فجعل السر شاهدًا، بمعنى أنه مع الحق وغائبًا عما يجري في الدهر. وعن عدم خبر عن الدهر وجعل نفسه شاهدًا بمعنى وجوده في الدهر وغائبًا يجري في الدهر.

❊ ❊ ❊

(١) الدهر هو الآن الدائم الذي هو امتداد الحضرة الإلهية وهو باطن الزمان وبه يتحد الأزل والأبد، والدهرية فرقة زعمت أن الدهر قديم فعبدوه من حيث الهوية.
المعجم الصوفي (ص٩٦)

الباب السابع والخمسون
قولهم في الجمع والتفرقة

أول الجمع جمع الهمة وهو أن تكون الهموم كلها همًّا واحدًا وفي الحديث: **«من جعل الهموم همًّا واحدًا هَمَّ المعاد كفاه الله سائر همومه، ومن تشعبت به الهموم لم يبال الله في أي أوديتها هلك»**.

وهذه حال المجاهدة والرياضة، والجمع الذي يعنيه أهله هو أن يصير ذلك حالًا له وهو أن لا تتفرق همومه فيجمعها تكلف العبد، بل تجتمع الهموم فتصير

قوله: ومنها الجمع والتفرقة[1]

أول الجمع جمع الهمة، يعني المقام الأول في الجمع لهذه الطائفة جمع الهمة.

قوله: وهذه حال المجاهدة والرياضة.

يعني جعل الهموم همًّا واحدًا حال المجاهدة والرياضة فأولهما كما ترى من المشقة والعناء، فإن جعل الهموم همًّا واحدًا مشقة عظيمة وعناء شديد فكيف يكون بالأوسط والآخر، وإذا كان وجدان طريق الحق في الصعوبة والشدة بهذه المثابة فكيف طلب الحق ووجدانه.

قوله: وهو أن لا يتفرق همومه.

أي صيرورة الجمع[2] المذكور حالًا للعبد، وهو أن لا تتفرق همومه ليجمعها

---

(١) إذا قلت الله ولا سواه فقد جمعت، وإذا قلت الدنيا والآخرة والخلق فقد فرقت، ولا بد للعبد من الجمع والتفرقة لا يستغنى بأحدهما عن الآخر فمن أشار إلىٰ جمع بلا تفرقه فقد أنكر قدرة القادر وهذا إلحاد وزندقه ومن أشار إلىٰ تفرقة بلا جمع فقد جحد الباري وهذا تعطيل، والعبد الذي يجمع بين الحالين إنما هو موحد.

المعجم الصوفي (٦٨)

(٢) الجمع والفرق هو تصريف الحق لجميع الخلق فجمع الكل في التصريف من حيث إنه خالقهم ومنشئ صفاتهم ثم فرقهم في التنوع، ففريقًا قربهم وأسعدهم وفريقًا أبعدهم وأشقاهم، وفريقًا هداهم، وفريقًا أضلهم وهكذا، وجمع الجمع هو إذا اختطف العبد عن =

بشهود الجامع لها همًّا واحدًا ويحصل الجمع إذ كان بالله وحده دون غيره.

والتفرقة التي هي عقيب الجمع هو أن يفرق بين العبد وبين همومه في حظوظه، وبين طلب مرافقه وملاذّه، فيكون مفرقًا بينه وبين نفسه فلا تكون حركاته لها.

العبد بالتكليف، بل تجمّع الهموم هو الجمع.

الجمع الأول وهو الجمع بالتكلف إنما يكون للمريد المبتدئ في ابتداء أمره، فيتكلف بالارتياض والمجاهدة في جمع الهموم لينقطع عن شغل غير شغل الحق.

ويجتمع بشغل الحق بحيث يصير التكلف طبعًا، فيصير ذلك الجمع حالًا له، فيتنفر شره من جميع ما كان مألوفًا له ولا يبقى له أُلف مع غير الحق.

وليست الرياضة علة لجمع الهموم، بل الرياضة عبودية والجامع هو الله تعالىٰ كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ﴾ [الأنفال: ٢٤].

يعني بين العبد وهمته فيقطعه عما يريد أن يصحبه لئلا يستأنس به ويجمعه به[١]، فتصير الهموم همًّا واحدًا بشهود العبد الجامع لها وهو الله تعالىٰ.

وصحة هذا الجمع أن يكون بالله دون غيره، لأن الغير يفرقه.

قوله: فيكون مفرقًا بينه وبين نفسه.

أي فيكون هذا العبد عبدًا مفرقًا بينه وبين نفسه فلا تكون حركاته للنفس بل للحق.

=

شهود الخلق ونسى نفسه وأخذ بالكلية عن الإحساس بما حوله واستولى عليه سلطان الحقيقة فإن ذلك يسمى جمع الجمع.

المعجم الصوفي (ص٦٨)

(١) يراد بالجمع الجمع بين الإرادة والطلب علىٰ المراد المطلوب وحده، وبالتفرقه تفرقه الهمة والإرادة وهذا هو الجمع الصحيح والتفرقة المذمومة، فحد الجمع الصحيح ما أزال هذه التفرقه وأما جمع يزيل التفرقة بين الرب والعبد والخالق والمخلوق والقديم والمحدث فأبطل الباطل، وتلك التفرقة هي الحق وأهل هذه التفرقة هم أهل الإسلام والإيمان والإحسان كما أن أهل ذلك الجمع هم أهل الإلحاد والكفر والوثنية.

انظر مدارج السالكين (ص٣٩٦)

وقد يكون المجموع ناظرًا إلىٰ حظوظه في بعض الأحوال غير أنه ممنوع منها، قد حيل بينه وبينها، لا يتأتى له منها شيء وهو غير كاره لذلك، بل مريد له لعلمه بأنه فعل الحق به واختصاصه له وجذبه إياه مما دونه.

سئل بعض الكبار عن الجمع ما هو؟ فقال: جمع الأسرار بما ليس منه بد، وقهرها فيه، إذ لا شبه له ولا ضد.

وقال غيره: جمعهم به حين وصلهم بالقصور عنه وفرقهم عنه حين طلبوه بما منهم، فسنح التشتيت لارتياده بالأسباب، وحصل الجمع حين شاهدوه في كل باب، فالتفرقة التي عبر عنها هي التي قبل الجمع.

معناه أن التقرب إليه بالأعمال تفرقة.

قوله: وهو غير كاره لذلك.

أي لحصول الحيلولة التي بينه وبين حظوظه، بل مريد له لعلمه بأن المذكور فعل الحق به، واختصاصه للحق وجذب الحق إياه مما دون الحق.

سئل بعض الكبار عن الجمع فقال: جمع الأسرار بما ليس منه بُدّ، وهو الحق، وقهر الأسرار فيما ليس منه بُدّ إذ لا شبه له ولا ضد، فيصير مجموعًا بالحق، لأن ما له شبه يقوم الشبه مقامه فيستغنى عنه وما له ضد يكون ضده دافعًا لما أراده، وإذا لم يكن لله شبه فلا يستغنى عنه ولا يقوم غيره مقامه، وإذا لم يكن له ضد فلا يكون له دافع لما فعله وقيل معنى الجمع[1] هو أن يجمعهم الله به حين أوصلهم الله بقصورهم وعجزهم عن إدراكه.

ومعنى التفرقة هو أن فرقهم الله عنه حين طلبوه بما هو منهم، مثل الطاعة والتفكر، أو بمعنى من المعاني التي هي من العبد.

---

(١) قال في مدارج السالكين: الجمع ما أسقط التفرقة هذا حد غير محصل للفرق بين ما يحمد وما يذم من الجمع والتفرقة فإن الجمع ينقسم إلىٰ صحيح وباطل والتفرقة تنقسم إلىٰ محمود ومذموم وكل منهما لا يحمد مطلقًا ولا يذم مطلقًا فيراد بالجمع جمع الوجود وهو جمع الملاحدة القائلين بوحدة الوجود، ويريدون بالتفرقة الفرق بين القديم والمحدث وبين الخالق والمخلوق.
مدارج السالكين (ص٣٩٦)

وإذا شاهدوه مقربًا لهم فهو الجمع[١].

أنشدونا لبعض الكبار:

الجمع أفقدهم من حيث هم قدما والفرق أوجدهم حينًا بلا أثرِ
فاتت نفوسهم والفوت فقدهم في شاهد جمعوا فيه عن البشر

وفسر هذا المعنى بقوله: فسنح التشتيت لارتياده بالأسباب، أي فظهر التفرقة بسبب طلب الحق بالأسباب وحصل الجمع حين رؤيته الله في كل باب، يعني أن الأسباب ليست علة لحصول الحق، بل هي أبواب يرى الحق منها التفرقة التي عبر عنها القائل المذكور.

هي التي قبل الجمع، قال صاحب الكتاب: معنى كلام القائل المذكور أن التقرب إلىٰ الله بالأعمال يفرق العبد وإذا شاهد أن المقرب هو الله لا غيره فهو الجمع.

قوله:

الجمع أفقدهم من حيث هم قدما والفرق أوجدهم حينًا بلا أثر

. . . إلىٰ آخر الأبيات الستة يقول هم في القدم مجموعون، والجمع أفقدهم من حيث هم.

وهذه الحيثية هو الحين الذي صاروا موجودين لهم فيه، وافتراقهم بالأفعال والصفات الخارجية أوجدهم حينًا[٢]، أي مليًّا.

وليس للفرق أثر في اختلافهم بالسعادة والشقاوة بل المؤثر هو القضاء الأزلي السابق أو الإرادة القديمة أو العلم الأزلي.

---

(١) يرى ابن عربي: الجمع إشاره إلىٰ حق بلا خلق، والجمع في الأحوال جمع السير في الحب والذوق وفي الولايات جمع الروح في المشاهدة، وفي الحقائق جمع الروح في مقام الخفى في المعاينة والسكر والاتصال وفي النهاية جمع العين الأحدية يعني تلاشى كما ما تحمله الإشارة في عين الأحدية بالحقيقة.
ويرى ابن عربي: أن جمع الجمع الاستهلاك بالكلية في الله.

(٢) بالهامش: أي بعضًا من الزمان.

وجمعهم عن نعوت الرسم محوهم	عما يؤثره التلوين بالغير
والحين حال تلاشت في قديمهم	عن شاهد الجمع إضمار بلا صور

وقد فسر صاحب الكتاب الأبيات الستة، أما الأول فبقوله: أي أعلمهم بوجودهم للحق في علمه بهم، أفقدهم في الحين الذي صاروا موجودين لهم.

قوله:

والحين حال تلاشت في قديمهم   عن شاهد الجمع[1] إضمار بلا صور

يقول: وحين التفرق الذي بدا بيّن من الأحوال والأوصاف المختلفة فيه، كلها أحوال تلاشت في قديم العلم من حيث إنهم حاضرون في جميع العلم الأزلي وهم أسرار في العلم بلا صور لهم.

يريد أن التفرق للصور، وما لم يبد الصور لم تبدُ المخالفة والموافقة، وحين يكونون معلومين في العلم القديم لم يكونوا صورًا فلم يكن حينئذ مخالفة.

والعداوة معلومة، ولا موافقة، والمحبة معلومة.

وفي وقت التفرق، وهو أن يكونوا موجودين، وإن بدت الموافقة فيه لكن في جمع العلم إذا كانت عداوة تكون تلك الموافقة متلاشية فيها، وكذا إن بدت المخالفة في الوقت، ولكن كان في جمع العلم محبة، فهذه المخالفة متلاشية في تلك المحبة، فعلم أن ما يكون في حال الوجود من الموافقة والمخالفة متلاشية في جمع علم الحق[2]، فلو اجتمع الخلق علىٰ صفة ومعلوم الحق في الأزل غيرها فيرجع الأمر، واجتمع

(١) لعدم استقرار حال الجمع في البداية يتناوب في العبد الجمع والتفرقة فلا يزال يلوح له لائح الجمع ويغيب إلىٰ أن يستقر فيه بحيث لا يفارقه أبدًا، فلو نظر بعين التفرقة لا يزول عنه نظر الجمع ولو نظر بعين الجمع لا يفقد نظر التفرقة بل يجتمع له عينان ينظر باليمنى إلىٰ الحق نظر الجمع، وباليسرى إلىٰ الخلق نظر التفرقة وتسمى هذه الحالة الصحو الثاني والفرق الثاني وصحو الجمع وجمع الجمع وهي أعلى رتبه من الجمع الصرف.
انظر موسوعة كشف اصطلاحات الفنون والعلوم (١/ ٥٧٤)

(٢) قال أبو عبد الله الروزباري: الجمع اتصال لا يشاهد صاحبه إلا الحق فمتى شاهد غيره فما وصل ولا جمع والتفرقة شهود الأشياء بالمباينه، وقال يوسف بن الحسين الجمع فناؤك عن شهودك والتفرقة رجوعك إلىٰ شخوصك وقال ممشاد الدينوري: جمعهم في حقيقة التوحيد وفرقهم في احكام الشريعة، وقال أبو عثمان الحيري الجمع أن يجمع الله للعبد همه ولا =

حتى توافي لهم في الفرق ما عطفت عليهم منه حين الوقت في الحضر
فالجمع غيبتهم والفرق حضرتهم والوجد والفقد في هذين بالنظر

معنى قوله الجمع أفقدهم من حيث هم، أي أعلمهم بوجودهم للحق في علمه بهم، أفقدهم من الحين الذي صاروا موجودين له فجعل الجمع حالة العدم حيث لم يكن إلَّا علم الحق بهم. والفرق حالة ما أخرجهم من العدم إلىٰ الوجود.

قوله: فاتت نفوسهم، أي رأوها حين الوجود كما كانوا إذ هم فقود، لا يملكون لأنفسهم ضرًا ولا نفعًا، ولا يتغير علم الله فيهم.

وجمعهم هو أن يمحوهم[1] عن نعوت الرسم وهي أفعالهم وأوصافهم في الخلق آخرًا إلىٰ معلوم الحق ذلك المعلوم لا إلىٰ ما اجتمعوا عليه.

قوله:

حتى توافي لهم في الفرق ما عطفت عليهم منه حين الوقت في الحضر

أي أوجدوا حتى يأتي بهم في وقت الفرق الأشياء التي رجعت عليهم، أو مالت من الحق في وقت حضورهم الجمع في العلم الأزلي يريد أنه أوجدهم ليبدي عليهم في الفرق ما علمه في الأزل منهم من العداوة والمحبة والمخالفة والموافقة إظهارًا للعلم الأزلي[2]، ثم إذا أوفاهم ما علمه في الأزل منهم فيرفع صفات الفرق من البين، ويفعل بهم بالجمع الأزلي.

قوله: حتى توافي.

يجوز أن يكون توافي فعلًا ماضيًا من توافى القوم، أي جاؤوا كلهم، ويجوز أن

= يشتت عليه وقته فيكون مجموع السر واقفًا مع الحق علىٰ حد الاتفاق والتفرقه أن يرده إلىٰ حوله ويكله إلىٰ قوته ويكون متفرق الهمة متشتت السر.

كتاب البياض والسواد من خصائص حكم العباد (ص٣٧١)

(١) الجمع الصحيح ما أسقط التفرقة الطبيعية النفسية وهي التفرقة المذمومة وأما التفرقة الأمرية الشرعية بين المأمور والمحظور والمحبوب والمكروه فلا يحمد جمع أسقطها بل يذم كل الذم وبمثل هذه المجملات دخل علىٰ أصحاب السلوك والإرادة ما دخل.

انظر مدارج السالكين (ص٣٩٦)

(٢) قال أبو بكر الواسطي: جمعهم في علمه وفرقهم في قسمه فاستعملهم في حكمه فلا العلم =

أنها لا تؤثر أثر تلوين وتغيير بل تكون علىٰ ما علم الله جل وعز وقدّر وحكم، فتلاشت حالهم حين وجودهم في قديم العلم إذا كانوا معدومين لا موجودين مصورين، وإذا أوجدهم أجرى عليهم ما سبق لهم منه.

فالجمع أن يغيبوا عن حضورهم وشهودهم إياهم متصرفين.

والفرق أن يشهدوا أحوالهم وأفعالهم.

والوجد والفقد حالتان متغايرتان لهم لا للحق تعالىٰ قال أبو سعيد الخراز: معنى الجمع إنه أوجدهم نفسه في أنفسهم بل أعدمهم وجودهم لأنفسهم عند وجودهم له. معناه قوله: «**كنت له سمعًا وبصرًا ويدًا، فبي يسمع وبي يبصر**» الخبر، وذلك أنهم كانوا يتصرفون بأنفسهم لا لأنفسهم فصاروا متصرفين للحق بالحق.

يكون فعلاً مضارعًا من وافى أي أتى، وهذا البيت هو الخامس من الأبيات.

قوله: وشهودهم إياهم متصرفين.

أي أن يغيبوا عن رؤيتهم أنفسهم متصرفين، بل المتصرف هو الحق لا غير.

قوله: والفرق أن يشهدوا.

أي أن يروا أفعالهم وأحوالهم.

قوله: والوجد والفقد في هذين بالنظر.

يعني أن الوجد أي الوجود في الفرق والفقد، أي العدم في الجمع في هذين، أي في الحالين المذكورين، وهما الجمع والفرق بالنظر يريد أن الغيبة والحضور في الحالين المذكورين ليسا بيِّنين، بل بالنظر، فإذا رأوا وجدهم وما يفعلون فهم حاضرون لهم وغائبون عن الحق، فهو الفرق، وإذا رأوا أنهم ليسوا بموجودين حقيقة وما حصل منهم شيء، فهم غائبون عنهم ومجموعون بالحق، فهو الجمع.

❊ ❊ ❊

= يزيد علىٰ الفعل ولا الفعل يزيد علىٰ العلم لأن العلم إذا زاد علىٰ الفعل كان عجزًا وإن زاد الفعل علىٰ العلم كان جهلاً.

انظر كتاب البياض والسواد (ص٣٧٠)

الباب الثامن والخمسون
قولهم في التجلي والاستتار

قال سهل: التجلي علىٰ ثلاثة أحوال، تجلي ذات وهي المكاشفة، وتجلي صفات الذات وهي موضع النور وتجلي حكم الذات وهي الآخرة وما فيها.

معنى قوله: تجلي ذات وهي المكاشفة كشوف الغلبة في الدنيا، كقول عبد الله بن عمر: كنا نتراءى الله في ذلك المكان يعني في الطواف.

وقال النبي ﷺ: «**اعبد الله كأنك تراه**» وكشوف العيان في الآخرة.

ومعنى قوله: تجلي صفات الذات وهي موضع النور هو أن تتجلى له قدرته عليه فلا يخاف غيره، وكفايته له فلا يرجو سواه، وكذلك جميع الصفات كما قال حارثة: كأني أنظر إلىٰ عرش ربي بارزًا، كأنه تجلى له كلامه في إخباره،

قوله: ومنها التجلي والاستتار

وهي موضع النور، أي صفات الذات موضع النور(1)، فإذا تجلت للعبد فلا يعمل إلاّ بمقتضاه، فلو تجلى له قدرته عليه فلا يخاف غيره.

ولو تجلت له كفايته له فلا يرجو سواه، وكذا سائر الصفات.

قوله: تجلى له كلامه في إخباره.

أي تجلى لحارثه كلام ربه في إخباره عن القيامة، فصار ذلك الخبر كالعيان له.

---

(1) قيل التجلي إشراق أنوار إقبال الحق علىٰ قلوب المقبلين عليه، وقيل: ما ينكشف للقلوب من أنوار الغيوب، وهو علىٰ ثلاثة أحوال: تجلي الذات وتجلي صفات الذات، وتجلي حكم الذات، والأول هو المكاشفة أو كشوف القلب في الدنيا، والثاني هو موضع النور وهو أن تتجلى له قدرته عليه فلا يخاف غيره وكفايته له فلا يرجو سواه والثالث: يكون في الآخرة فريق في الجنة وفريق في السعير.

المعجم الصوفي (ص٤٨)

فصار الخبر له كالمعاينة.

وتجلي حكم الذات يكون في الآخرة فريق في الجنة وفريق في السعير.

قال بعض الكبار: علامة تجلي الحق للأسرار[١] هو أن لا يشهد السر ما يتسلط عليه التعبير أو يحويه الفهم، فمن عبر أو فهم فهو خاطر استدلال لا ناظر إجلال معناه أن يشهد ما لا يمكنه العبارة، لأنه لا يشهد إلَّا تعظيمًا وهيبة، فيسقطه ذلك عن تحصيل ما شاهد من الحال.

وأنشدونا لبعضهم:

إذا ما بدت لي تعاظمتها فأصدر في حال من لم يرد

قوله: **أو يحويه الفهم**، أي لا يدركه الفهم، بمعنى أنه لا بمنزلة عن غيره، ولا يدري أنه أي شيء يراه.

قوله: **فيسقطه ذلك**، أي فيسقط شهود التعظيم والهيبة العبد عن تحصيل ما شاهده في هذه الحالة.

يريد أن مشاهدة تعظيم الحق وهيبته تكون غالبة علىٰ سره وتفنيه عن صفاته، بحيث لا يقدر أن يعبّر عما رآه.

قوله:

إذا ما بدت لي تعاظمتها فأصدر في حال من لم يرد

الضمير في بدت وفي تعاظمتها للحقيقة.

يريد أن المراد من الرؤية أنك تعلم أي شيء رأيته وذلك العلم إنما يحصل إذا لم

---

(١) علاقة التجلي بالأسرار هو أن لا يظهر سر التجلي في عبارة تدل علىٰ الفهم، لأن من يعبر أو يفهم فذلك هو خاطر الاستدلال وليس نظر بلا جلال، وقبل إن الحق عندما يتجلى للعبد فإن ذلك بالنسبة إلىٰ الحق يسمى شأنًا إلهيًا، وبالنسبة إلى العبد يسمى حالاً ولا يخلو هذا التجلي من أن يكون الحاكم عليه اسمًا من أسماء الله تعالىٰ أو وصفًا من أوصافه فذلك الحاكم هو المتجلي، وإن لم يكن له وصف أو اسم مما بأيدينا من الأسماء والصفات الإلهية فحال اسم ذلك الولي المتجلى عليه هو عين الاسم الذي تجلى به الحق عليه.

المعجم الصوفي (ص٤٨)

أجـده إذا غـبـت عـنـي بـه   وأشهد وجدي له قد فقد
فلا الـوجـد يـشـهـدني غـيـره   ولا أنـا أشـهـده مـنـفـرد
جـمـعـت وفـرقـت عـنـي بـه   ففرد التواصل مثنى العدد

تكن مغلوبًا في حال الرؤية وإلّا لا تعلم ما رأيته فتقول: إذا رأيت الحبيب أصير مغلوبًا في مشاهدة جلاله وعظمته بحيث لا أدري ما رأيته فأصدر عنه كمن لم يره[1].

قوله:

أجـده إذا غـبـت عـنـي بـه   وأشهد وجدي له قد فقد

يقول: إذا غبت عني بمشاهدة الحبيب أجده يعني إذ رأيته أصير غائبًا عن غيره، فلا يبقى لي شعور بغيره فأجده في هذه الحالة، فإذا أجده فيها يصير وجداني له مفقودًا بسبب غلبة جلاله وعظمته، فلا الوصل يشهدني غيره، أن لا يريني وصله غيره.

وأنا غيره، فإذا لم يكن لي خبر عني فكيف لي خبر عنه وعن رؤيته.

وأنا منفرد عنه، فلا أشهده، وإذا كان لي خبر عني فلا أراه يريد أنه لا يعلم ما يراه في الحالتين.

قوله:

جـمـعـت وفـرقـت عـنـي بـه   ففرد التواصل مثنى العدد

يقول: جمعي به فرقني عني، يعني إذا كنت معه لا يكون لي خبر عني، وإذا كنت معي لا يكون لي خبر عنه.

قوله: ففرد التواصل مثنى العدد.

يريد به أن الاتحاد الذي حصل من الوصل يستلزم الاثنين عددًا، لأنه ما لم يكن اثنان لم يكن وصل، وما لم يكن وصل لا يكون متحدًا مع المحبوب بالوصل، بمعنى أنه لا يكون لي خبر عنه في تلك، فحالة الوصل لي كحالة عدم الوصل، وهي حالة كوننا اثنين يشير

---

(١) يقول ابن القيم الجزيه رحمه الله في الجواب الكافي: وكل حركه في العالم العلوي أو السفلي فأصلها المحبة فلولا الحب ما دارت الأفلاك وتحركت الكواكب النيرات ولا هبت الرياح المسخرات ولا مرت السحب الحاملات ولا تحركت الأجنة في بطون الأمهات . . . انظر الجواب الكافي لابن القيم.

معناه إذا بدت الحقيقة غلب علي التعظيم فأغيب في شاهد التعظيم عن شهود التحصيل[١]، فأكون كمن لم يبد له، وإنما يكون وجودي له إذا غبت عني، وإذا غبت فقد وجودي، فحالة الوصل الذي هو فنائي عني لا يشهدني غيره وحالة الانفراد وقيامي بصفتي يغيبني عن شهوده فكأن جمعي به فرّقني عني فيكون حالة الوصل هو أن يكون الله عز وجل مصرفي، فلا أكون أنا في أفعالي، فهو الله تعالىٰ لا أنا كما قال لنبيه ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧].

بهذا الكلام إلىٰ أن المحب لو كان له خبر عن الوصل والاجتماع لما وصل إلىٰ مقام[٢] الحقيقة، لأنه لو وصل إلىٰ مقام الحقيقة[٣] يصير بحيث لا يكون له خبر لا عن الوصل ولا عن القطع ولا عن الجمع ولا عن التفرقة بل القرب والبعد والحضور والغيبة والوجود والعدم عنده سواء. وقد فسر صاحب الكتاب هذه الأبيات في المتن.

قوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾.

بل أنت سبب وأنا مسبب، والفاعل بالحقيقة هو المسبب لا السبب.

---

(١) تعددت مصطلحات الصوفية بتعدد جوانب الحياة العرفانية التي تتمثل في الطريق والارتحال والممارسة الوجدانية والمذهب والمقامات والأحوال من المصطلحات التي تنتمي إلىٰ الطريق السفر والرحلة والحج والسلوك والسالك والمقامات والأحوال والمجاهدة والوصول والواصل والمعراج وغيرها والمصطلحات التي تنتمي إلىٰ التجربة: الرؤيا والغلبة والخواطر والوارد والهواجيس وغيرها والتي تنتمي إلىٰ المذهب: الإحسان والإرادة والحضرة والقبض والجزيه وغيرها والتي تنتمي إلىٰ الاحوال: والتوبة والورع والزهد والفقر والصبر والرضا وغيرها.

(٢) يسمى مقام لإقامة السالك فيه والمقامات مثل التوبة والورع والزهد والفقر والصبر والرضا والتوكل وغير ذلك من المقامات والمقام في التصوف معناه مقام العبد بين يدي الله ﷻ بما يقوم به مجاهدات ورياضات وعبادات.

المعجم الصوفي (ص٢٣٧)

(٣) الحقيقية هي إقامة العبد في محل الوصال إلىٰ الله، ووقوف سره علىٰ محل التنزيه وقيل الحقيقة سلب آثار أوصافك عنك بأوصافه بأنه الفاعل بك فيك منك لا أنت والحقائق ثلاث: حقيقة مع العلم وحقيقة معها العلم وحقيقة تشطح عن العلم، وأصح الحقائق واتمها ما قارن العلم والعلم كله حقيقة والحقيقة كلها علم وعلم الحقيقة لا يخالف علم الشريعة.

المعجم الصوفي (ص٧٨)

وهذا لسان الحال، ولسان العلم.

إن الله مصرّفي وأنا به متصرّف، فيكون المعبود والعبد وقال بعضهم: التجلي رفع حجبة البشرية لا أن تتلون ذات الحق جل وعز.

والاستتار أن تكون البشرية حائلة بينك وبين شهود الغيب، ومعنى رفع حجبة البشرية، أن يكون الله تعالىٰ يقيمك تحت موارد ما يبدو لك من الغيب لأن البشرية لا تقاوم أحوال الغيب[(١)].

والاستتار الذي يعقب التجلي هو أن تستتر الأشياء عنك فلا تشاهدها.

كقول عبد الله بن عمر للذي سلَّم عليه وهو في الطواف فلم يرد عليه فشكاه، فقال: إنَّا كنا نتراءى الله في ذلك المكان.

قوله: ومن جهة العلم الله مصرفي وأنا به متصرّف.

يريد أن معنى الكلام المذكور لا من جهة العلم ما ذكر وهو **قوله: فلا أكون أنا في أفعالي، فهو الله تعالىٰ لا أنا**، وأما من جهة العلم فرؤيته أني متصرّف به هو العبودية فأنصرف لأكون عبدًا، ولكن لا أرى تصرفي لأكون عبدًا خالصًا.

ورؤيته أن الله تعالىٰ مصرفي هو رؤية الربوبية فعلى هذا يكون المعبود والعبد.

قوله: هو أن تستتر الأشياء عنك.

يعني تجلي الحق يصير سترًا بينه وبين غيره فلا يرى غيره، فيبقى التجلي والاستتار قائمين بحالهما، أي يبقى التجلي حالة الاستتار، والاستتار حالة التجلي.

---

(١) كل ما ستره الحق منك لا منه، والحق تعالىٰ له عوالم كثيره وكل عالم ينظر الله إليه بواسطة الإنسان يسمى شهادة وجودية، وكل عالم ينظر إليه من غير واسطة الإنسان يسمى غيبًا وقد جعله الله نوعين، فغيب جعله مفصلاً في علم الإنسان وغيب جعله مجملاً في قابليه الإنسان والأول يسمى غيبًا وجوديًا وهو كعالم الملكوت والثاني يسمى غيبًا عدميًا وهو كالعوالم التي يعلمها الله تعالىٰ ولا نعلمها فهي عندنا بمثابة العدم.

المعجم الصوفي (ص١٨٥، ١٨٦)



أخبر عن تجلي الحق له بقوله: كنا نتراءى الله.

وأخبر عن الاستتار بغيبته عن التسليم عليه وأنشدونا لبعض الكبار:

سرائر الحق لا تبدو لمحتجب أخفاه عنك فلا تعرض لمخفيه

لا تعن نفسك فيما لست تدركه حاشا الحقيقة أن تبدو فتؤويه

قوله:

سرائر الحق لا تبدو لمحتجب أخفاه عنك فلا تعرض لمخفيه

أي لمحتجب بالخلق عن الحق، فإذا احتجب بالخلق فالحق أخفى السر عنه.

فلا يتعرض لمخفي السر عنك بسبب رفعك الحجب لأن رفع الحجب ليس علة لرؤية الحق[1]، بل هو معدّلها، بل العلة لها هو الحق.

قوله:

لا تُعن نفسك فيما لست تدركه حاشا الحقيقة أن تبدو فتؤويه

يقال: عنى بالكسر عناء، أي تعب ونصب، وآوبته إذا أنزلته بك فتؤويه. أي تنزله بك.

يعني بعدت الحقيقة من أن تبدو لك فنزلها بك، أي تدركها.

❊ ❊ ❊

---

(١) مذهب أهل الحق أن الرؤية قوة يجعلها الله تعالىٰ في خلقه لا يشترط فيها اتصال الأشعة ولا مقابلة المرئي ولا غير ذلك لكن جرت العادة في رؤية بعضنا بعضًا بوجود ذلك علىٰ جهة الاتفاق لا علىٰ سبيل الاشتراط.

شرح مسلم للنووي (٣/ ١٥) طبعة دار الكتب العلمية

الباب التاسع والخمسون
قولهم في الفناء والبقاء

فالفناء هو أن يفنى عنه الحظوظ فلا يكون له في شيء من ذلك حظ ويسقط عنه التمييز فناء عن الأشياء كلها شغلًا بما فني به، كما قال عامر بن عبد الله: ما أبالي امرأة رأيت أم حائطًا والحق يتولى تصريفه فيصرفه في وظائفه وموافقاته فيكون محفوظًا فيما لله عليه مأخوذًا عما له وعن جميع المخالفات فلا يكون له إليها سبيل، وهو العصمة وذلك معنى قوله ﷺ: «كنت له سمعًا وبصرًا». الخبر.

والبقاء الذي يعقبه هو أن يفنى عما له، ويبقى بما لله قال بعض الكبار: البقاء مقام النبيين ألبسوا السكينة لا يمنعهم ما حل بهم عن فرضه ولا عن فضله.

﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ [المَائدة: ٥٤].

والباقي هو أن تصير الأشياء كلها له شيئًا واحدًا فتكون كل حركاته في موافقات الحق دون مخالفاته فيكون فانيًا عن المخالفات باقيًا في الموافقات وليس معنى أن تصير الأشياء كلها شيئًا واحدًا أن تصير المخالفات له موافقات، فيكون ما نهي عنه كما أمر به، ولكن علىٰ معنى أن لا يجري عليه إلَّا ما أمر به وما يرضاه الله تعالىٰ دون ما يكرهه، ويفعل ما يفعل لله لا لحظ له فيه في عاجل أو آجل.

قوله: ومنها الفناء والبقاء(١)

....

---

(١) البقاء هو رؤية العبد قيام الله علىٰ كل شيء، وقيل بقاء رؤية العبد بقيام الله له في قيامه لله بالله، وقيل هو أن يفنى عما له ويبقى بما لله وهو مقام النبيين، والباقي هو العبد تصير الأشياء كلها له شيئًا واحدًا، وتكون حركاته في موافقات الحق دون مخالفاته، فيكون فانيًا عن المخالفات وباقيًا في الموافقات وليس معنى ذلك أن يستوي المنهي عنه مع المأمور به، ولكن معناه أن لا يجري عليه إلا ما أمره الله به وما يرضاه الله دون ما يكرهه.

المعجم الصوفي (ص٤٥)

وهذا معنى قولهم يكون فانيًا عن أوصافه باقيًا بأوصاف الحق، لأن الله تعالىٰ إنما يفعل الأشياء لغيره لا له لأنه لا يجرّ به نفعًا ولا يرفع به ضرًا، تعالىٰ الله عن ذلك وإنما يفعل الأشياء لينفع الأغيار أو يضرهم.

فالباقي بالحق الفاني عن نفسه يفعل الأشياء لا لجر منفعه إلىٰ نفسه، ولا لدفع مضرة عنها، بل علىٰ معنى أنه لا يقصد في فعله جر المنفعة ودفع المضرة.

قد سقطت عنه حظوظ نفسه ومطالبة منافعها بمعنى القصد والنية، ولا بمعنى أنه لا يجد حظًّا فيما يعمل مما لله عليه يفعله لله لا لطمع ثواب ولا لخوف عقاب.

وهما أعني الخوف والطمع باقيان معه قائمان فيه غير أنه يرغب في ثواب الله لموافقه الله تعالىٰ لأنه رغب فيه وأمر أن يسأل ذلك منه، ولا يفعله للذة نفسه، ويخاف عقابه إجلالًا له وموافقة له لأنه خوّف عباده.

ويفعل سائر الحركات لحظ الغير لا لحظ نفسه، كما قيل المؤمن يأكل بشهوة عالية.

أنشدونا لبعضهم:

أفناه عن حظه فيما ألمَّ به … فظل يبقيه في رسم ليبديه
ليأخذ الرسم عن رسم يكاشفه … والسر يطفح عن حق يراعيه

قوله: أفناه عن حظه فيما ألمّ به.

أي نزل به يقول أفناه الله عن حظه فيما نزل به من جلال الله ومنّه بحيث لا يخطر به حظ نفسه فظل يبقيه الله في وجوده الذي يكون به الحق ليريه الحق نفسه.

يعني أفناه عن حظه لأجل إبقائهما به بالحق ليريه الحق نفسه.

قوله:

ليأخذ الرسم عن رسم يكاشفه … والسر يطفح عن حق يراعيه

يقال طفح الإناء طفوحًا إذا امتلأ حتى يفيض عنه يقول أفناه الحق عن حظه ليأخذه رسم الحق وهو وجوده الذي بالحق عن رسم الخلق الذي هو يكاشفه وهو

فجملة الفناء والبقاء أن يفنى عن حظوظه ويبقى بحظوظ غيره، فمن الفناء فناء عن شهود المخالفات والحركات بها قصدًا وعزمًا، وبقاء في شهود الموافقات والحركات بها قصدًا وفعلًا وفناء عن تعظيم ما سوى الله وبقاء في تعظيم الله تعالىٰ.

ومن فناء تعظيم ما سوى الله حديث أبي حازم حيث قال: ما الدنيا؟ أما ما مضى فأحلام، وأما ما بقي فأماني وغرور، وما الشيطان حتى يهاب منه.

ولقد أطيع فما نفع وعصى فما ضر، فكان كأنه لا دنيا عنده ولا شيطان.

صفاتهم وأفعالهم فيفنيه عن رسم الخلق ليرتفع الحجاب[1] بينه وبين الله.

والسر يمتلئ عن حق يراعيه العبد، يعني لا يقدر العبد أن يقوم بمراعاة الحق كما هو حق المراعاة لو اشتغل بالكلية بها، فكيف إذا اشتغل بمراعاة الخلق.

قوله: قصدًا وعزمًا.

يحترز به عن الحركة بالمخالفة سهوًا ونسيانًا وتأويلًا، كما ذكر قبل في حق الأنبياء عليهم السلام.

قوله: ولقد أطيع، أي الشيطان فما نفع الشيطان من أطاعه، ومن عصى في الشيطان[2] فما ضره الشيطان ومن عظم شيئًا، فإما لطمع المنفعة منه وإما لخوف المضرة وليس كلاهما ولا واحد منهما بالشيطان. وقال صاحب الكتاب يفهم من كلام أبي حازم: كان أبو حازم كأنه لا دنيا عنده ولا شيطان.

---

(١) حجاب النفس الشهوات، وحجاب القلب الملاحظة في غير الحق، وحجاب العقل وقوفه مع المعاني المعقولة، وحجاب السر هو الوقوف مع الأسرار فإذا انكشفت للسالك بعض أسرار الخلق واكتفى بها فإن الحجاب يقطع طريقه، فيجب أن يخطو خطوة للأمام.
المعجم الصوفي (ص٧٤)

(٢) حديث: «إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم» قال النووي: قال القاضي وغيره: قيل هو علىٰ ظاهره وأن الله جعل له قوة وقدرة علىٰ الجري في باطن الإنسان مجاري دمه وقيل هو علىٰ الاستعارة لكثرة إغوائه ووسوسته فكأنه لا يفارق الإنسان كما لا يفارقه دمه، وقيل: يلقي وسوسته في مسام لطيفة من البدن فتصل الوسوسة إلىٰ القلب. والله أعلم.
شرح مسلم للنووي (١٤/ ١٣١) طبعة دار الكتب العلمية

ومن فناء الحظوظ حديث عبد الله بن مسعود حيث قال: ما علمت أن في أصحاب محمد من يريد الدنيا حتى قال الله: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ [آل عِمرَان: ١٥٢] (١) . الآية.

فكان فانيًا عن إرادة الدنيا.

ومن ذلك حديث حارثة قال: عزفت نفسي عن الدنيا فكأني أنظر إلىٰ عرش ربي بارزًا فنى عن العاجلة بالآجلة، وعن الأغيار بالجبار وحديث عبد الله بن عمر سلم عليه إنسان وهو في الطواف فلم يرد عليه، وشكاه إلىٰ بعض أصحابه فقال عبد الله: إنا كنا نتراءى الله في ذلك المكان ومنها حديث عامر بن عبد القيس قال: لأن تختلف فيّ الأسنّة أحب إليَّ من أن أجد ما تذكرون.

يعني في الصلاة حتى قال الحسن: ما اصطنع الله ذلك عندنا.

قوله: فكان فانيًا عن إرادة الدنيا.

أي فكان عبد الله بن مسعود فانيًا عنها، وظن ذلك بأصحاب رسول الله ﷺ ظنًّا حسنًا حتى نزلت الآية، فعلم خلاف ذلك.

قوله: لأن تختلف فيَّ الأسنة.

أي لأن تدخل في الأسنة أحب إلي من أن أجد ما تذكرون، أي من الخواطر(٢) التي خالجتكم في الصلاة فشكوا منها إلىٰ عامر فأجابهم بقوله: لا يختلف.

---

(١) إنما عني بهذا الرماة وذلك أن النبي ﷺ أقامهم في موضع وقال: «**احموا ظهورنا، فإن رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا، وإن رأيتمونا نغنم فلا تشركونا**» فلما غنم النبي ﷺ وأناخوا عسكر المشركين أكب الرماة جميعًا في العسكر ينهبون . . . إلىٰ أن قال فلما أخل الرماة تلك الخلة التي كانوا فيها دخلت الخيل من ذلك الموضع علىٰ أصحاب رسول الله ﷺ . . . الحديث».
انظر أحمد في مسنده (١/ ٢٨٧)، والطبراني في المعجم الكبير (١٠/ ٣٦٦)

(٢) الخطرة ما يطرأ علىٰ القلب ويذهب فورًا، والحظور أن تطرأ الفكرة علىٰ القلب وجعلوا خطرة الواجب للحق والخطرة الحرام للشيطان، والخطرة المندوبة التي تستحث علىٰ الطاعات وترغب في الخيرات للملك، وخطره الشهوات والملذات للنفس والخطرات جمع خطرة وهي كل ما يمر في القلب من أحكام الطريقة.

المعجم الصوفي (ص٩٠)

وفناء هو الغيبة عن الأشياء رأسًا كما كان فناء موسى عليه السلام حين تجلى ربه للجبل فخر موسى صعقًا فلم يخبر في الثاني من حاله عن حاله، ولا أخبر عنه مغيبة به عنها.

وقال أبو سعيد الخراز[1] علامة الفاني ذهاب حظه من الدنيا والآخرة، إلّا من الله تعالى، ثم يبدو له باد من قدرة الله تعالىٰ فيريه ذهاب حظه من الله تعالىٰ إجلالًا لله، ثم يبدو له باد من الله تعالىٰ فيريه ذهاب حظه من رؤية ذهاب حظه ويبقى رؤية ما كان من الله لله.

ويتفرد الواحد الصمد في أحديته فلا يكون لغير الله مع الله فناء ولا بقاء.

قال الحسن البصري ما اصطنع الله ذلك عندنا ذلك إشارة إلىٰ محبّته اختلاف الأسنة فيه من وجدان ما تذكرون يعني يعجب الحسن من قول عامر ذلك القول، فاعترف بتقصيره ولم يجعل عامرًا متهمًا بما قاله، بل صدقه.

قوله: فلم يخبر في الثاني من حاله عن حاله التي حالة التجلي ولا أخبر عن ذلك الحال مغيبة وهو الحق به أي بالحق وهو يتعلق بمغيبة عنها.

أي عن الأشياء وهو أيضًا يتعلق بمغيبه.

قوله: ويتفرد الواحد[2] الصمد.

في تولي تصريفه في وظائفه في أبديته كما كان متفردًا فيما فعله إليه في أزليته فلا

---

(١) ويعرف الخراز أول حال الفناء فيقول في معنى قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣] فيقول: أخلاهم في أفعالهم من أفعالهم وهو أول حال الفناء ويقول محمود المراكبي في عقائد الصوفية (ص٣٠): وتعليقًا علىٰ قول الخراز إن التوحيد في الفهم الصوفي أصبح لغزًا لا يعرفه عامة المسلمين لأنهم لم يفنوا عن أنفسهم أما أهل الخصوص الواصلون إلىٰ مقام الفناء حسب زعمهم فهم الموحدون الذين انفردوا بالله وحده.
انظر أوله في تهذيب الأسرار لعبد الملك النيسابوري الخركوشي (ص٣٨٥)

(٢) الواحد هو المنفرد في ذاته وصفاته وأفعاله فهو واحد في ذاته لا ينقسم ولا يتجزأ أو لا يحل في محل، واحد في صفاته لا يشبه شيئًا ولا يشبهه شيء واحد في أفعاله لا شريك له ولا نظير، قال بعض المشايخ الواحد من الوحدة وهي النهاية التامة البريئة بكثرة ما دونها فيما هي نهايته.
شرح أسماء الله الحسنى لزروق (ص١٣٥) من تحقيقنا ـ طبعة دار الكتب العلمية

معنى ذهاب حظه من الدنيا مطالبة الأعراض ومن الآخرة مطالبة الأعواض، فيبقى حظه من الله وهو رضاه عنه وقربه منه.

ثم يرد عليه حالة من إجلال الله تعالىٰ أن يقرب مثله أو يرضى عن مثله استحقارًا لنفسه وإجلالًا لربه، ثم ترد عليه حالة فيستوفيه حق الله تعالىٰ فيغيبه عن رؤية صفته التي هي رؤية ذهاب حظه فلا يبقى فيه إلّا ما من الله إليه، ويفنى عنه ما منه إلىٰ الله، فيكون كما كان إذ كان في علم الله تعالىٰ قبل أن يوجده وسبق له منه ما سبق من غير فعل كان منه.

وعبارة أخرى عن الفناء أن الفناء هو الغيبة عن صفات البشرية بالحمل الموله من نعوت الإلهية وهو أن يفنى عنه أوصاف البشرية التي هي الجهل والظلم لقوله تعالىٰ: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢] ومن أوصافه الكنود(١) والكفور.

اختيار للعبد ولا إرادة له، بل ما بدا فيه إنما يكون باختيار الحق وإرادته، فلا يكون لغير الله مع الله فناء ولا بقاء، أي لا يشهد فناءه ولا بقاءه مع الله لكونه موجودًا بالحق فلا يكون له فناء معه ولا بقاء لكونه غير موجود باعتبار نفسه.

قوله: من إجلال الله أن يقرب مثله أو يرضى عن مثله.

أي من أن يقرب الله مثله المحدث الفاني الفقير أو يرضى عن مثله استحقارًا لنفسه وإجلالًا لربه. **قوله: ويفنى عنه ما منه** وهو فعله، بل يرى فعل الحق لا غير.

قوله: سبق له منه.

أي من الحق ما سبق في الأزل من غير فعل كان من العد فيما سبق.

قوله: أن الفناء هو الغيبة عن صفات البشرية بالحمل المؤله من نعوت الإلهية.

أي بسبب الحمل المحير له في مشاهدة الحق الذي ذلك الحمل من نعوت الإلهية.

---

(١) كند النعمة كنودًا كفرها وجحدها فهو وهي كنود وفي القرآن: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦﴾ [العَاديَات: ٦]. والكنود من يجحد نعم الله.

وكل صفة ذميمة تفنى عنه بمعنى أن يغلب علمه جهله وعدله ظلمه وشكره كفرانه وأمثالها.

قال أبو القاسم فارس: الفناء حال من لا يشهد صفته، بل يشهدها مغمورة بمغيبها.

وقال: فناء البشرية ليس علىٰ معنى عدمها بل علىٰ معنى أن تغمر بلذة توفى علىٰ رؤية الألم واللذة الجارية علىٰ العبد في الحال كصواحبات يوسف عليه السلام(١): ﴿قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ [يوسف: ٥٠]، لفناء أوصافهن، ولما ورد علىٰ أسرارهن من لذة النظر إلىٰ يوسف مما غيبهن عن ألم ما دخل عليهن من قطع أيديهن.

ولبعض أهل العصر:

غابت صفات القاطعات أكفها — في شاهد هو في البرية أبدع
ففنيين عن أوصافهن فلم يكن — من نعتهن تلذذ وتوجع

قوله: الفناء حال من لا يشهد صفته، يعني لا يرى صفات الخلق من الخلق، بل يراها مغمورة بمغيبها وهو الحق قوله: بل علىٰ أن يغمر بلذة توفى علىٰ رؤية الألم واللذة الجارية علىٰ العبد في الحال، أي علىٰ أن تغمر بلذة تزيد وتغلب من الفرح المفرط مثلاً علىٰ رؤية الألم واللذة الجارية علىٰ العبد في الحال أو علىٰ أن تغمر بخوف مفرط مثلاً يزيد ويغلب علىٰ ألم العز أو لذة أخرى ويغيبه عنهما قوله: لفناء أوصافهن، لأن من أوصاف البشرية أن يجدن الألم من المؤلم فلما لم يجدن الألم من القطع علم فناؤها فيهن.

قوله: من لذة النظر، بيان لما في ما غيبهن.

---

(١) فيما روى مسلم في صحيحه كتاب الفضائل من فضائل يوسف عليه السلام عن أبي هريرة قال: قيل يا رسول الله من أكرم الناس؟ قال: «أتقاهم» قالوا ليس عن هذا نسألك، قال: «فيوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله بن خليل الله» . . . الحديث قال النووي: وقد جمع يوسف عليه السلام مكارم الأخلاق مع شرف النبوة مع شرف النسب وكونه نبيًا ابن ثلاثة أنبياء متناسلين أحدهم خليل الله عليه السلام.
شرح مسلم للنووي (١٥/ ١١٠) طبعة دار الكتب العلمية

وقيام امرأة العزيز بيوسف يد نفسه ما كان يوسف يقطع

وأنشدونا في الفناء:

ذكرنا وما كنا لننسى فنذكر ولكن نسيم القرب يبدو فيبهر

فأفنى به عني وأبقى به له إذا الحق عنه مخبر ومعبّر

قوله: وقيام امرأة العزيز بيوسف عليه السلام **يد نفسه ما كان يوسف يقطع** فرق في هذا البيت بين زليخا[(١)] وبين صواحبات يوسف فإنهن قطعن أيديهن مع أنهن رأين يوسف ساعة وصحبة زليخا صحبة طويله فلم تقطع يدها وذلك لأنهن ما أحببن يوسف فلم يكن قائمات بيوسف فقطعن أيديهن بخلاف زليخا فإنها محبة يوسف وقائمة به، ويوسف لا يقطع يد نفسه، وأيضًا هن غير محبات ليوسف فيكن مالكات لأنفسهن بخلاف زليخا فإنها محبة له فيكون حكمها حكم المماليك، فلو قطعت لقطعت يد يوسف، والمحب[(٢)] مملوك والمملوك لا حكم له علىٰ المالك وايضًا كان لهن تجلي الجلال، وكان لزليخا تجلي الجمال والجلال يقتضي الفناء فجاء القطع والجمال يقتضي البقاء فجاءت السلامة.

وأيضًا هن رأين بلاء فجأة لم يصبحن معه ففنين.

وزليخا صحبت البلاء وصار غداء لها فلم تفن فلم تقطع.

قوله: ذكرنا وما كنا لننسى فنذكره.

قد مرّ البيتان في الذكر مع شرحهما.

---

(١) هي امرأة العزيز وهو الوزير واسمه قطفير بن روحيب وكان علىٰ خزائن مصر وكان الملك يومئذ الريان بن الوليد رجل من العماليق وقال: واسم امرأته راعيل بنت رعابيل وقال غيره اسمها زليخا وعن ابن مسعود قال: أفرس الناس ثلاثة عزيز مصر حين قال لامرأته: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَىٰهُ﴾ [يُوسُف: ٢١]، والمرأة التي قالت لأبيها ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾ [القَصَص: ٢٦]، وأبو بكر الصديق حين استخلف عمر بن الخطاب ﷺ.

تفسير ابن كثير (٢/ ٤٨٥)

(٢) المحبة الأصلية هي محبة الذات عينها لذاتها لأنها أصل جميع أنواع المحبات والمحبة بين كل اثنين إما لمناسبة في ذاتيهما أو لاتحاد في وصف أو مرتبة أو حال أو فعل وحقيقة المحبة أن تهب كلك لمن أحببت فلا يبقى لك منك شيء.

المعجم الصوفي (ص٢٢٢)

ومهم من جعل هذه الأحوال كلها حالًا واحدة وإن اختلفت عباراتها، فجعل الفناء بقاء والجمع تفرقة، وكذا الغيبة والشهود والسكر والصحو، وذلك أن الفاني عمَّا له باق بما للحق، والباقي بما للحق فإن عمَّا له، والفاني مجموع لأنه لا يشهد إلَّا الحق والمجموع مفارق لأنه لا يشهد إياه ولا الخلق، وهو باق لدوامه مع الحق، وهو جامعه به، وهو فان عما سواه مفارق لهم، وهو غائب سكران لزوال التميز عنه.

ومعنى زوال التميز عنه هو ما قلناه بين الآلام والملاذ وبمعنى أن الأشياء تتوحد له فلا يشهد مخالفة إذ لا يصرفه الحق إلَّا في موافقاته، وإنما تميز بين الشيء وغيره، فإذا صارت الأشياء شيئًا واحدًا سقط التمييز وعبر جماعة عن الفناء بأن قالوا: يؤخذ العبد من كل رسم كان له وعن كل مرسوم فيبقى في وقته بلا بقاء يعلمه ولا فناء يشعر به ولا وقت يقف عليه، بل يكون خالقه عالمًا ببقائه وفنائه ووقته وهو حافظ له عن كل مذموم، واختلفوا في الفاني هل يرد إلىٰ بقاء[(١)] الأوصاف أم لا؟ قال بعضهم: يرد الفاني إلىٰ بقاء الأوصاف وحالة الفناء لا تكون علىٰ الدوام، لأن دوامها يوجب تعطيل الجوارح عن أداء المفروضات وحركاتها في أمور معاشها ومعادها، ولأبي العباس بن عطاء في ذلك كتاب سماه كتاب عود الصفات وبدئها.

وأما الكبار منهم والمحققون فلم يروا رد الفاني إلىٰ بقاء الأوصاف منهم الجنيد والخراز والنوري وغيرهم فالفناء فضل من الله عز وجل وموهبة للعبد

قوله: وإنما تميز بين الشيء وغيره.

أي إنما يميز بين الشيئين، فإذا صارت الأشياء شيئًا واحدًا سقط التميز.

---

(١) جمع الله تبارك وتعالى بين لفظي الفناء والبقاء في الآية الكريمة من سورة الرحمن ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ ودلالة الآية محكمة واضحة ولا يختلف الناس حول معناها فالفناء فناء الخلق والبقاء بقاء الحق تعالىٰ.

انظر عقائد الصوفية (ص٢٩)

وإكرام منه له واختصاص له به وليس هو من الأفعال المكتسبة، وإنما هو شيء يفعله الله عز وجل بمن اختصه لنفسه واصطنعه له، فلو ردَّه إلىٰ صفته كان في ذلك سلب ما أعطى واسترجاع ما وهب، وهذا غير لائق بالله عز وجل أو يكون من جهة البداء، والبداء صفة من استفاد العلم.

وهذا من الله عز وجل منفي أو يكون ذلك غرورًا وخداعًا والله تعالىٰ لا يوصف بالغرور ولا يخادع المؤمنين وإنما يخادع المنافقين والكافرين.

وليس مقام الفناء يدرك بالاكتساب فيجوز أن يكتسب ضده، فإن عورض بالإيمان والرجوع عنه وهو أفضل المراتب وبه يدرك جميع المقامات. أجيب عنه أن الإيمان الذي يجوز الرجوع عنه هو الذي اكتسبه العبد من إقرار لسانه والعمل بأركانه، ولم يخامر الإيمان حقيقة سره لا من قبل الشهود ولا من صحة العقود، لكنه أقر بشيء وهو لا يدري حقيقة ما أقر به كما جاء في الحديث: «**إن الملك يأتي العبد إذا وضع في لحده فيقول ما قولك في هذا الرجل؟**

فيقول: سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته، فهذا شاك غير متيقن، أو يكون أقر بلسانه وانطوى علىٰ تكذيبه كالمنافق الذي أقر بلسانه وكذبه بقلبه وأضمر خلافه ولكنه أقر بلسانه ولم يكذبه بقلبه ولا أضمر خلافه، ولكن لم يقع له صحة

قوله: من قبل الشهود ولا من صحة العقود.

أي من قبل المشاهدة التي أزالت عنه الشكوك ولا من قبل صحة العقود[١] اكتسابًا أو تقليدًا يجزم به.

قوله: ولكنه أقر بلسانه ولم يكذبه بقلبه.

والظاهر أن هذا قسم آخر، ولو قال أو يكون مقام قوله: ولكنه لكان أصوب.

---

(١) عقد السر هو ما يعتقد العبد بقلبه بينه وبين الله تعالىٰ أن يفعل كذا أو لا يفعل كذا ويقول الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾، وقيل لأحدهم: بما عرفت الله؟ فقال: بحل العقود، يقصد العقود بينه وبين الخلق بأنها كل العلائق بينه وبين ما سوى الله تعالىٰ.
المعجم الصوفي (ص١٧٦)

ما أقرَّ به اكتسابًا ولا مشاهدة لم يكتسب تحقيقه من جهة العلم فيقول له الدلائل علىٰ صحته ولا شاهد بقلبه حالًا أزال عنه الشكوك.

وقد سبق له من الله الشقاء فاعترضت له شبهة من خاطر أو ناظر فصرفته، فانتقل عنه إلىٰ ضده فأما من سبق له من الله الحسنى فإن الشبهات لا تقع له والعوارض تزول عنه إما اكتسابًا من علم الكتاب والسُّنّة ودلائل العقل، فيزيل خواطر السوء عنه ويرد شبهات الناظر له إذ لا يجوز أن يكون لما خالف الحق دلائل الحق، فهذا لا تعترضه الشكوك أو يكون ممن قد وقع له صحة الإيمان ويرد الله عنه خواطر السوء باعتصامه بالجملة، ويرد عنه الله الناظر المشكك له لطفًا به فلا يقابله فيسلم له صحة إيمانه وإن لم يكن عنده من البيان ما يحتاج مناظرة ناظره ولا ما يزيل خاطره أو يكون ممن وقع له صحة ما أقرّ به شهودًا أو كشوفًا كما أخبر حارثة عن نفسه من شهوده ما أقرّ به حتى حل ما غاب عنه من ذلك محل ما حضر وأكثر لأنه أخبر أنه عزف عن الشاهد فصار الغيب له شهودًا، والشاهد غائبًا.

قوله: اكتسابًا ولا مشاهدة.

فسّره بما ذكره بعده وهو قوله لم يكتسب إلىٰ قوله وانتقل إلىٰ ضده.

قوله: إذ لا يجوز لما خالف الحق دلائل الحق.

يريد أن خواطر السوء وشبهه الناظر مخالف للحق، وما هو مخالف للحق لا يجوز دلائل الحق عليه.

قوله: أو يكون ممن وقعت له صحة الإيمان.

عطف علىٰ مقدور في قوله إما إكتسابًا أي إما أن يكون ممن اكتسب الإيمان مما لا ذكر أو يكون ممن وقعت له صحة الإيمان ويرد الله عنه خواطر السوء باعتصامه بحمله الإيمان ويرد الله عنه ناظر المشكك أي ينظره لطفًا بذلك الشخص الذي وقعت له صحة الإيمان فلا يقابله شيء مما ذكر من خواطر السوء وشبهه الناظر المشكك.

قوله: حتى حل ما غاب عنه بذلك.

أي مما أقرّ به لسانًا واعتقادًا محل الحاضر له وأكثر من الحاضر لأنه غاب عنه من

كما قال الداراني: انفتحت عيون قلوبهم فانطبقت عيون رؤوسهم، فمن وقع له صحة ما أقرّ به من هذه الجهة لم يرجع عن الآخرة إلىٰ الدنيا ولا ترك الأولى للأدنى.

وهذا كله أسباب العصمة من الله له وتصديق ما وعد بقوله تعالىٰ: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

فقد صح أن المؤمن الحقيقي لا ينتقل عن الإيمان لأنه موهبة له من الله جل وعز، وعطاء وفضل واختصاص وحاشا الحق عز وجل أن يرجع فيما وهب أو يسترد ما أعطى.

وصورة الإيمان الحقيقي والرسمي في الظاهر صورة واحدة وحقائقها مختلفة

الدنيا الحاضرة له قوله لأنه أخبر أنه عرف عن الشاهد، أي عن الدنيا الشاهدة له علة لقوله وأكثر.

قوله: وصورة الإيمان الحقيقي والرسمي صورة واحدة وحقائقها مختلفة.

ووجه الاتحاد بينهما في الصورة هو أن يكونا متحدين في الإقرار اللساني والتصديق القلبي ووجه اختلافهما بالحقائق نبينه بمثال فيستدل به علىٰ غيره مثل أن يكون الإيمان الرسمي لشخص بمثابة أنّه يخاف من ذرة، والإيمان[(١)] الحقيقي لشخص بمثابة لو ألقي إلىٰ النار يقول إني ذاهب إلىٰ ربي، ويقول لجبريل أما إليك فلا، وكذا الإيمان الرسمي لشخص بمثابة يمر من البحر يقول اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة، والإيمان الحقيقي لشخص بمثابة يقول: أرني أنظر إليك، فإنه ما بقي له صبر من غلبة المشاهدة، فأراد أن يشاهده ظاهرًا كما شاهده باطنًا، وكحقيقة نبينا عليه الصلاة والسلام فإنه كان بمثابة لو عرض عليه الكون ما التفت إليه، فيكون الإيمان الحقيقي والرسمي في الظاهر سواء، ولكن تفاوت حقائقهما ففي الباطن ليس له حد.

---

(١) الإيمان هو أن يكون الكل منك مستجيبًا في الدعوة مع حذف خواطر الانصراف عن الله بسرك فتكون شاهدًا لما له، غائبًا عما ليس له، وقيل الإيمان بالله مشاهدة ألوهيته، وقيل: الإسلام ظاهر والإيمان باطن، والإيمان تحقيق واعتقاد والإسلام خضوع وانقياد.
المعجم الصوفي (ص٣٨)

فأما الفناء وغيره من مقامات الاختصاص فإن صورها مختلفة وحقائقها واحدة لأنها ليست من جهة الاكتساب، لكن من جهة الفضل.

قوله: فأما الفناء وغيره من مقامات الاختصاص فإن صورها مختلفة وحقائقها واحدة، مثلاً لو بدا للعبد مقام الفناء، فإنما يبدو من المعاني المختلفة يجوز أن يكون من الخوف أو من المنة أو من الجلال أو من الهيبة أو من المحبة لكل منها علامة، فالذي من الخوف علامته اتصافه بالوحشة والنفرة والذي من المنة علامته اتصافه بالحياء[١] والتواضع والذي من الإجلال والهيبة علامته اتصافه بالخضوع والخشوع، والذي من المحبة علامته اتصافه بالذل والانقياد، فهذا هو اختلاف الصور، وأما اتحاد حقائقها فلأن مقصود كل منهم من مقامه هو الحق، وهو واحد، وإن كان الطرق إليه مختلفة.

قوله: لأنها ليست من جهة الاكتساب، لكن من جهة الفضل.

علة لاختلاف المقامات صورًا واتحادها حقيقة، يقول إن المقامات ليست من جهة اكتساب العبد إياها، بل وجودها من جهة فضل الله تعالىٰ يعطي من يشاء، يريد أن العبودية ليست علة لوجود المقام، بل المقام يحصل بالقرب من الله تعالىٰ وعلة القرب بقربية العبد لا فعله، لأن القرب كرامة، والكرامة توجد بالإكرام، فلما كان معطي هذه المقامات متفاوتة بتفاوت صفاتهم كانت المقامات مختلفة صورًا.

واعلم أن الشيوخ أطلقوا القول وتداولت ألسنتهم بأن المقامات مكاسب والأحوال مواهب فعلى هذا قوله لأنها ليست من جهة الاكتساب[٢] لكن من جهة

---

(١) قال الواحدي: قال أهل اللغة الاستحياء من الحياة واستحيا الرجل من قوة الحياة فيه لشدة علمه بمواقع الغيب، قال: فالحياء من قوة الحس ولطفه وقرة الحياة، قال أبو القاسم القشيري عن السيد الجليل أبي القاسم الجنيد قال: الحياء رؤية الآلاء أي النعم، ورؤية التقصير، فيتولد بينهما حالة تسمى الحياء، وقال القاضي عياض، وغيره من الشراح: إنما جعل الحياء من الإيمان وإن كان غريزة لأنه قد يكون تخلقًا واكتسابًا كسائر أعمال البر. شرح مسلم للنووي (٢/٦) طبعة دار الكتب العلمية

(٢) الاكتساب هو أن يفعل المرء لجر منفعه أو دفع مضره لقوله تعالىٰ: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البَقَرَة: ٢٨٦] ومعنى ذلك أن للعباد أفعالاً واكتسابًا علىٰ الحقيقة هم بها مثابون وعليها معاقبون وأنهم مختارون لاكتسابهم مريدون له، وليسوا بمحمولين عليه ولا مجبرين فيه ولا مستكرهين له، ومن طعن علىٰ الاكتساب كمن طعن علىٰ السنة وكذلك من طعن علىٰ =

وقول من قال يرد الفاني إلىٰ أوصافه محال، لأن القائل إذا أقرّ بأن الله تعالىٰ اختص عبدًا واصطنعه لنفسه ثم قال إنه يرده فكأنه قال يختص ما لا يختص ويصطنع ما لا يصطنع، وهذا محال وجوازه من جهة التربية والحفظ عن الفتنة لا يصح أيضًا، لأن الله تعالىٰ لا يحفظ علىٰ العبد ما آثاره من جهة السلب ولا بأن يرده إلىٰ الأوضع عن الأرفع، ولو جاز هذا جاز أن لا يحفظ مواضع الفتن من الأنبياء بأن يردهم من رتبة النبوة[1] إلىٰ رتبة الولاية أو ما دونها، وهذا غير جائز.

ولطائف الله تعالىٰ في عصمة أنبيائه وحفظ أوليائه من الفتنة أكثر من أن تقع تحت الإحصاء والعدّ وقدرته أتم من أن تحصر علىٰ فعل دون غيره فإن عورض بالذي آتاه آياته فانسلخ منها لم يعترض، لأن الذي انسلخ لم يكن قط شاهد حالًا

الفضل ليس علىٰ ظاهره تصحيح، بل ينبغي أن يحمل المقامات التي ذكرها ههنا علىٰ الأحوال، والذي يدل عليه أنه قال: فأما الفناء وهو جملة الأحوال بالاتفاق.

وأطلق المقام علىٰ الحال لأن الشيء قد يكون بعينه حالًا ثم يصير مقامًا بأن لا يستقر، ثم يستقر.

وأيضًا في المقام بطنت الموهبة التي هي الحال، فلأجل هذا صح الإطلاق.

وقوله: وجوازه من جهة التربية والحفظ عن الفتنة لا يصح، أي وجواز رد الفاني إلىٰ أوصافه من جهة تربية الله للفاني وحفظه عن الفتنة في حال رده إلىٰ الأوصاف لا يصح ذلك أيضًا لأن الله تعالىٰ لا يحفظ علىٰ العبد ما أتاه من جهة السلب وهو أوصافه التي سلبها عنه، ولا بأن يرد الله العبد عن الأرفع وهو الفناء إلىٰ الأوضع وهو اتصافه بأوصافه.

قوله: لم يعترض، أي لم يرد اعتراضًا.

= التوكل فقد طعن علىٰ الإيمان.

المعجم الصوفي (ص٢٦)

(١) النبوة هي الإخبار عن الحقائق الإلهية أي عن معرفة ذات الحق وأسمائه وصفاته وأحكامه وهي علىٰ قسمين: نبوة التعريف وهي الأنباء عن معرفة الذات والصفات والأسماء ونبوة التشريع هي جميع ذلك مع تبليغ الأحكام والتأدب بالأخلاق.

المعجم الصوفي (ص٢٤٣)

ولا وجد مقامًا ولا كان مختصًّا قط ولا مصطنعًا بل كان مستدرجًا مخدوعًا ممكورًا به، وإنما أجرى علىٰ ظاهره من أعلام المختصين وهو في الحقيقة من المردودين، إنما حلى ظاهره بالوظائف الحسنة والأوراد الزكية وهو أعمى القلب محجوب السر لم يجد قط طعم الخصوص ولا ذاق لذة الإيمان، ولا عرف الله قط من جهة الشهود كما أخبر الله تعالىٰ عنه بقوله: ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٥]، وكما أخبر عن إبليس بقوله: ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البَقَرَة: ٣٤].

قال الجنيد: إن إبليس لم ينل مشاهدته في طاعته وآدم لم يفقد مشاهدته في معصيته.

وقال أبو سليمان: والله ما رجع من رجع إلَّا من الطريق ولو وصلوا إليه ما رجعوا عنه، والفاني يكون محفوظًا في وظائف الحق، كما قال الجنيد وقيل له إن أبا الحسين النوري قائم في مسجد الشونيزي[1] منذ أيام لا يأكل ولا يشرب ولا ينام وهو يقول الله الله، يصلي الصلوات لأوقاتها، فقال بعض من حضره إنه صاح.

فقال الجنيد: لا ولكن أرباب المواجيد محفوظون بين يدي الله في مواجيدهم، فإن رد الفاني إلىٰ الأوصاف لم يرد إلىٰ أوصاف نفسه ولكن يقام مقام البقاء بأوصاف الحق.

قوله: والفاني يكون محفوظًا في وظائف الحق كما قال الجنيد.

وقيل: هذا جواب لما قاله القائل بالرد في أول المسألة من قوله لأن دوامها أو دوام حال الفناء يوجب تعطيل الجوارح عن أداء المفترضات وعن حركاتها في أمر معاشها ومعادها.

فأجاب عن ذلك بأن الفاني يكون محفوظًا في وظائف الحق بحيث لا يكون له تعطيل الجوارح ويقوم الحق بأمر معاشها ومعادها.

---

(١) هو مسجد في بغداد كما أوضحه الشارح من قبل.

وليس الفاني بالصعق[(١)] ولا المعتوه ولا الزائل عنه أوصاف البشرية فيصير ملكًا أو روحانيًا، ولكنه من فنى عن شهود حظوظه كما أخبرنا قبل.

والفاني أحد عينين إما عين لم ينصب إمامًا ولا قدوة فيجوز أن يكون فناؤه غيبة عن أوصافه فيرى بعين العتاهة وزوال العقل لزوال تمييزه في مرافق نفسه وطلب حظوظه وهو علىٰ ذلك محفوظ في وظائف للحق عليه، وقد كان في الأمة منهم كثير منهم هلال الحبشي عبد كان للمغيرة بن شعبة في حياة النبي ﷺ نبه عنه النبي ﷺ. وأويس القرني في أيام عمر بن الخطاب نبه عليه عمر وعلي رضي الله عنهما.

وخلق كثير إلىٰ أن كان عليان المجنون، وسعدون وغيرهما أو يكون إمامًا يقتدى به ويربط به غيره ممن يسوسه فأقيم مقام السياسة والتأديب، فهذا ينقل إلىٰ حالة البقاء فيكون تصرفه بأوصاف الحق لا بأوصاف نفسه والمتصرف بأوصاف الحق هو ما ذكرناه من قبل.

قوله: والفاني أحد عينين[(٢)].

أي أحد شخصين إما شخص لم ينصب إمامًا ولا قدوة، وإما شخص يكون إمامًا ويقتدي به وربط به غيره.

فالأول مع الفناء محفوظ في وظائف الحق عليه والثاني ينقل إلىٰ حال البقاء فيكون تصرفه بأوصاف الحق لا بأوصاف نفسه والمتصرف بأوصاف الحق ليس أن يصير أوصاف الحق أوصافه لأنه لا يجوز اتصاف الذاتين بوصف واحد، بل معناه أن يفعل ما يفعل من الحركات والسكنات والأقوال والأفعال بأمر الحق لا بهوى نفسه كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾.

---

(١) الصعق عند الصوفية هو الفناء في الحق عند التجلي الذاتي.

(٢) العين عند الصوفية إشارة إلىٰ ذات الشيء الذي تبدو منه الأشياء قال الواسطي: وقوم علموا مصادر الكلام من أين فوقعوا علىٰ العين فأغناهم عن البحث والطلب، أي أن مقصدهم كان الله تعالىٰ وليس سواه.

المعجم الصوفي (ص١٨٢)

وسئل الجنيد عن الفراسة فقال: هي مصادفة الإصابة فقيل له: هي للمتفرّس في وقت المصادفة أو علىٰ الأوقات، قال: لا بل علىٰ الأوقات لأنها موهبة فهي معه كائنة دائمة.

فأخبر أن المواهب تكون دائمة ومن يتتبع كتب القوم وفهم إشاراتهم علم أن قولهم ما حكيناه عنهم فإن هذه المسألة وأمثالها ليست بمنصوصات لهم ولا مفردات، بل يعرف ذلك من قولهم بفهم رموزهم ودرك إشاراتهم والله أعلم.

قوله: فهي للمتفرس في وقت المصادفة أو علىٰ الأوقات.

أي الفراسة في وقت دون وقت أو علىٰ الدوام.

❊ ❊ ❊

الباب الستون
قولهم في حقائق المعرفة

قال بعض الشيوخ: المعرفة معرفتان معرفة حق ومعرفة حقيقة، فمعرفة الحق إثبات وحدانية الله تعالىٰ علىٰ ما أبرز من الصفات والحقيقة علىٰ أن لا سبيل إليها لامتناع الصمدية وتحقق الربوبية عن الإحاطة.

قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠] . لأن الصمد هو الذي لا تدرك حقائق نعوته وصفاته.

وقال بعض الكبراء: المعرفة إحضار السر بصنوف الفكر مع مراعاة مواجيد الأذكار ....

قوله: في حقائق المعرفة[١]

قال بعض الشيوخ المعرفة معرفتان معرفة حق ومعرفة حقيقة، يريد أن العارف في المعرفة علىٰ هذين المقامين.

قوله: والحقيقة علىٰ أن لا سبيل إليها لامتناع الصمدية وتحقق الربوبية.

أي معرفة الحقيقة ما لا سبيل للعارف إليه لاتصافها بالصمدية والربوبية والصمد هو الذي لا طريق إليه إلَّا من جهة الإثبات والرب هو الذي له سبيل إلىٰ كل شيء ولا شيء سبيل لشيء إليه إلَّا من جهة الإثبات فجعل معرفة الحق الإثبات ومعرفة الحقيقة النفي يعني ما أدركوه وأثبتوه من الحق فهو معرفة الحق وما لا يدركونه منه فهو معرفة الحقيقة وهو معنى قوله: والعجز عن درك الإدراك إدراك[٢].

قال بعض الكبراء: المعرفة إحضار السرّ بصنوف الفكر في مراعاة مواجيد الأذكار

---

(١) قيل المعرفة معرفتان: معرفة حق ومعرفة حقيقة فمعرفة الحق هي إثبات وحدانيته علىٰ ما أبرز من الصفات ومعرفة الحقيقة لا سبيل إليها لامتناع الصمدية واستحالة الإحاطة بالربوبية قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠] .

المعجم الصوفي (ص٢٣٥)

(٢) العجز عن درك الإدراك إدراك: والبحث عن ذاته كفر وإشراك المعنى أن الإنسان إذا عرف الله =

على حسب توالي أعلام الكشوف، ومعناه أن يشاهد السر من عظمة الله وتعظيم حقه وإجلال قدره ما تعجز عنه العبارة سئل الجنيد عن المعرفة فقال: هي تردد السر بين تعظيم الحق عن الإحاطة وإجلاله عن الدرك وقد سئل عن المعرفة فقال: أن تعلم أن ما تصور في قلبك فالحق بخلافه.

فيا لها حيرة لا له حظ من أحد ولا لأحد منه حظ ....

على حسب توالي أعلام الكشوف معناه إنه ما لم يبدُ في سر العبد الكشف لم ير شيئًا لأن للقلب عينا ما لم يرتفع الحجب التي هي مانعة عن معرفة الحق من عند القلب لا يصير القلب بصيرًا بالمعرفة، فإذا انكشف وأبصر القلب، فيذكر المعاني التي شاهدته ويوقع فكره فيها وأحضر سره، بمعنى أنه لا يتفكر سره في غير الحق[1].

قوله: بين تعظيم الحق عن الإحاطة وإجلاله عن الدرك.

يريد تعظيم الحق بمعنى احترامه وإجلاله بمعنى الهيبة، يعني كون السر بين تعظيم الحق وبين إجلاله عن الإدراك، لأن المدرك متصور، والحق غير متصور، وهو معنى قول علي كرم الله وجهه حين سئل عن المعرفة فقال: أن تعلم أن ما تصور في قلبك فالحق بخلافه.

قوله: فيا لها حيرة.

كلمة تعجب بمعنى التعظيم والضمير في لها للحقيقة وحيرة منصوب على التمييز، أي يا الله لنا من الحيرة العظيمة ما لا له حظ من أحد بمعنى عدم احتياجه إلى شيء ما أو بمعنى أن وجود الخلق لا يزيد فيه شيئًا ولا عدمه ينقص منه شيئًا ولا لأحد منه حظ بمعنى أن طالبه لا يدرك حقيقة ولا شيئًا من حقائق صفاته ولا يرضى بما أدركه منه وهو إثباته وإثبات صفاته، بل يطلب الترقي إلى ما فوق ولا يرضى بذلك أيضًا، بل لا

= تعالى بأنه موجود لا كموجودات موجود بلا مكان ولا كيفية واقتصر على هذا ولم يبحث عن ذات الله تعالى للوصول إلى حقيقة الله فهذا إيمان ورشد وصواب، موجود بلا كيفية ولا مكان وقنع بذلك يقال عرف الله.

(١) من تصور ولم يكتف بما ذكر قبل هذا وتصوره كإنسان أو كتلة نورانية أو نحو ذلك أو يتصوره جسمًا قاعدًا فوق العرش فهذا كفر بالله تبارك وتعالى هذا معنى البحث عن ذاته كفر وإشراك.

وإنما هو وجود يتردد في العدم لا تتهيأ العبارة عنه لأن المخلوق مسبوق والمسبوق غير محيط بالسابق معنى هو وجود يتردد في العدم، يعني صاحب الحال يقول هو موجود عيانًا وشخصًا وكأنه معدوم صفة ونعتًا وعن الجنيد أيضًا قال: المعرفة هي شهود الخاطر بعواقب المصير، وأن لا يتصرف العارف بسرف ولا تقصير، ومعناه أن لا يشهد حاله وأن يشهد سابق علم الحق فيه وأن مصيره إلىٰ ما سبق له منه ويكون تصرّفًا ....

يرضى بشيء مما أدركه منه فيطلب ما فوقه إلىٰ ما لا نهاية له فلا يكون له منه حظ.

قوله: فإذًا هو وجود يتردد في العدم، أي في عدم العباره عنه وتردده فيه هو إقدام العبارة عنه وإحجامها عنه أخرى، لأن العبارة مخلوقة والمخلوق مسبوق، والمسبوق غير محيط بالسابق حتى يعبر عنه قوله: لا تتهيأ العبارة عنه، تفسير لقوله: فإذًا هو موجود يتردد في العدم.

قال صاحب الكتاب معنى هو وجود يتردد في العدم، يعني صاحب الحال[1]، أي يعني حينئذ بذلك الوجود صاحب الحال يقول: أي يقول حينئذ صاحب الحال موجود عينًا وشخصًا، وكأنه معدوم صفة ونعتًا، أي بالنسبة إلىٰ الخلق، لأن سرّه مع الحق وبالشخص مع الخلق فلا يعلم الخلق منه إلَّا الشخص فكأنه معدوم الصفة بالنسبة إلىٰ الخلق.

وأيضًا صفته تتزايد لحظة فلحظة، فلا يتعين بصفة يعبر عنه بتلك الصفة وكأنه لا صفة له يعبر عنه بها.

قوله: وأن لا يتصرف العارف بسرف ولا تقصير.

بأن لا يتجاوز حد الأمر والنهي، فإن التجاوز عن حد النهي سرف وعن حد الأمر تقصير.

---

(١) سميت الأحوال أحوالاً لحول العبد بها من الرسوم الخلقية ودركات البعد إلىٰ الصفات الحقية ودرجات القرب وذلك هو معنى الترقي، وقيل معنى الأحوال هو ما يحل بالقلوب، أو تحل به القلوب من صفاء الأذكار وقيل الحال هو الذكر الخفي.

المعجم الصوفي (ص٧١)

في الخدمة والتقصير.

وقال بعضهم: المعرفة[١] إذا وردت علىٰ السر ضاق السر عن حملها كالشمس يمنع شعاعها عن إدراك نهايتها وجوهرها.

قال ابن الفرغاني: من عرف الرسم تجبر، ومن عرف الوسم تحير، ومن عرف السبق تعطل، ومن عرف الحق تمكن ومن عرف المتولى تذلل.

معناه من شاهد نفسه قائمًا بوظائف الحق أعجب ومن شاهد ما سبق له من الله تحير لأنه لا يدري ما علم الحق فيه وبماذا جرى القلم به ومن عرف أن ما سبق له من القسمة لا يتقدم ولا يتأخر تعطل عن الطلب، ومن عرف الله بالقدرة عليه والكفاية له تمكن فلا يضطرب عند المخوفات ولا عند الحاجات ومن عرف أن الله متولي أموره تذلل له في أحكامه وأقضيته.

قوله: في الخدمة والتقصير، أي وفي رؤية التقصير في الخدمة.

قوله: المعرفة إذا أوردت علىٰ السر ضاق السر عن حملها كالشمس يمنع شعاعها عن إدراك نهايتها وجوهرها.

والمراد بالضيق ههنا العجز، قد شبه نور المعرفة بنور الشمس وشعاعها وشبه عجز الخلق عن إدراك الحق بالسر بعجزهم عن إدراك جوهر[٢] الشمس بالبصر، وكما

---

(١) قيل المعرفة علىٰ ثلاثة أوجه: معرفة إقرار، ومعرفة حقيقة ومعرفة مشاهدة، ويفرق الصوفية بين معرفة الصوفي بالله وبين علم الفلاسفة والعلماء بالله عن طريق العقل والبرهان، والمعرفة بالله ليست العلم بواحدانيته التي يؤمن بها المؤمنون جميعًا ولكنها معرفة صفات الوحدانية التي تتحصل لأولياء الله خاصة لأنهم هم الذين يشاهدون الله بقلوبهم فيكشف لهم ما لا يكشفه لغيرهم من عباده.
المعجم الصوفي (ص٢٣٦)

(٢) الجوهر ماهية إذا وجدت في الأعيان كانت لا في موضع وينحصر الجوهر في خمسة: هيولى وصدرة جسم ونفس وعقل، لأنه إما أن يكون مجردًا أو غير مجرد فالأول إما أن يتعلق بالبدن تعلق التدبير والتصرف وهو العقل أو لا يتعلق وهو النفس، والثاني: وهو غير المجرد، فإما أن يكون مركبًا وهو الجسم أو لا فيكون حالاً وهو الصورة أو محلاً وهو الهيولي وتسمى أيضًا بالنفس الرحماني والهيولي الكلية.

المعجم الصوفي (ص٦٩)

وقال بعض الكبار: إذا عرفه الحق إياه أوقف المعرفة حيث لا يشهد محبة ولا خوفًا ولا رجاء ولا فقرًا ولا غنى لأنهما دون الغايات والحق وراء النهايات معناه أنه لا يشهد هذه الأحوال لأنها أوصافه وأوصافه أقصر من أن تبلغ ما يستحقه الحق من ذلك.

أنشدونا البعض الكبار:

راعيتني بالحفاظ حتى حميت عن مرتع وبيِّ
فأنت عند الخصام عذري وفي ظمائي فأنت ريِّي

أن نور الشمس يستر سائر الأنوار ولا يرى معه، فكذلك نور حقيقة الحق يغلب كل الأنوار بل يفنى عند ظهوره.

قوله: وأوصافه أقصر من أن تبلغ ما يستحقه الحق من ذلك.

أي من أن تبلغ أوصافه مقدارًا منها يستحقه الحق لأن العبد إنما يقوم بهذه الأوصاف وعلى مقدار طاقته لا علىٰ مقدار يستحقه الحق ويليق به، لأن المحبة أو الخوف مثلًا لو زاد علىٰ مقدار طاقة العبد لنفي العبد، فإذا قصر صفته في أداء حق مولاه فيعلم أن محبته وخوفه وغير ذلك من أوصافه لا يفيد.

قوله:

راعيتني بالحفاظ حتى حميت عن مرتع وبيّ

قيل: من وبئت الأرض توبأ وباءة إذا كثر مرضها فهي وبئه ووبئة علىٰ فعله وفعيله يريد به ههنا عن مرتع مهلك كثير الإهلاك يعني الكفر وغيره من المعاصي.

قوله:

فأنت عند الخصام غدري وفي ظمائي فأنت ربي

الخصام مصدر خاصمت، يعني لو عرض لي خصومة في أداء حقك بأنك تخاطبني لم قصرت فيه، فاعتمادي في تلك الحال علىٰ فضلك وأنت عذري حينئذ وأنت ربي في ظمائي يعني أنت حافظي وعاصمي إذا اشتد بي الأمر ونزلت بي نازلة.

إذا امتطى العارف المعلّي سرًا إلىٰ منظر عليّ
وغاص في أبحر غزار تفيض بالخاطر الوحيّ
فضّ ختام الغيوب عمّا يحيى فؤاد الشجي الوليّ
من حار في دهشة التلاقي أبصرته ميتًا كحيّ

يعني من حيرته دهشة ما يبدو له من شاهد تعظيم الله وإجلاله أبصرته حيًا،

قوله:

إذا امتطى العارف[1] المعلّي سرّا إلىٰ منظر عليّ

يعني إذا اتخذ العارف المعلي سره مطية ويسير إلىٰ منظر عال في غاية العلو، وغاص في أبحر غزار، أي كثير الماء.

والمراد بها الغيوب ليجد جواهر حقيقة الحق يفيض تلك الأبحر الغزار بالخاطر السريع النفوذ يقال: فاض الماء يفيض فيضًا، أي كثر حتى سال علىٰ صفة الوادي الوحيّ علىٰ فعيل السريع وجزاء إذا امتطى.

قوله:

فضّ ختام الغيوب عما يحيى فؤاد الشجي الوليّ

الفضّ الكثير بالتفرقة، والختام الطين الذي يختم به والشجى علىٰ فعل بفتح الفاء وكسر العين الحزين والوليّ ههنا المحب.

معنى هذه الأبيات الثلاثة أن العارف إذا أعلاه الله سرّه لتصير همته عالية ويغوص في أبحر الغيوب لتجد فوائد الحقيقة وفرائدها.

فإذا وصل إلىٰ هذا المقام فالغيب الذي لم يره أحد ولم يعرفه انكشف له فيحيى حيًا لم يمت أبدًا لأنه وصل إلىٰ ماء الحياة.

---

(١) الفرق بين العارف والمؤمن: أن المؤمن ينظر بنور الله، والعارف ينظر بالله عجز وجل، وللمؤمن قلب والعارف ليس له قلب، وقلب المؤمن يطمئن بالذكر ولا يطمئن العارف بسواه، والفرق بين المعرفة والإيمان أن المعرفة للعارف موهبة ووجد والإيمان نور وعطاء.
المعجم الصوفي (ص١٦٧)

كميت يفنى عن رؤية مأمنه ولا يجد له متقدمًا ولا متأخرًا.

قوله: ولا يجد له متقدمًا ولا متأخرًا.

يعني إذا وصل إلى الحق لا يجد لنفسه متقدمًا إذ لا سبيل من الحق وراءه، ولا يجد متأخرًا أيضًا إذ لا رجوع عن الحق، فتحير عند التلاقي.

❊ ❊ ❊

الباب الحادي والستون
قولهم في التوحيد

أركان التوحيد سبعة: إفراد القدم عن الحدث، وتنزيه القديم عن إدراك المحدث له، وترك التساوي بين النعوت، وإزالة العلة عن الربوبية وإجلال الحق عن أن تجري قدرة الحدث عليه فتلونه وتنزيهه عن التميز والتأمل وتبرئته عن

قوله: قولهم في التوحيد

أركان التوحيد سبعة: إفراد القدم عن الحدث، (وتنزيه القديم عن إدراك المحدث له)[1] وهو أن يعلم أن القديم لا يشبه المحدث ذاتًا وصفة وفعلًا.

وثالثها: **ترك التساوي بين النعوت** إما بمعنى لأن نعوت الحق لا تجعل مساوية لنعوت الخلق، وإما بمعنى أن صفات الحق لا تجعل غير الذات ولا يعتقد أنها عينها.

رابعها: **إزالة العلة**[2] **عن الربوبية**، يعني تعلم أن لا علة لله تعالى، وإلَّا لم يكن واجب الوجود لذاته.

وخامسها: **إجلال الحق عن أن تجري قدرة الحدث عليه فتلونه**، يعني أن الطاعة مثلا لا تصير علة لرضائه والمعصية علة لسخطه، والخدمة علة لوصاله والجفاء علة للقطيعة وإلَّا يلزم أن يكون القديم متلونًا بالغير، وسادسها: **تنزيهه عن التّمييز والتأمل**

---

(١) قيل: العلة كناية عن بعض ما لم يكن فكان قال ذو النون المصري: علة كل شيء صنعه، ولا علة لصنعه، ويقول الشبلي في صفة الخلق: إن الذل كائنهم والعلة كونهم.
المعجم الصوفي (ص١٧٧)

(٢) لا سبيل إلىٰ توحيد الحق بلا قال ولا حال، والموحد بالقول لا يشهد بالسر منفردًا به، والموحد بالحال غائب بحاله عن الأقوال، وعلامة الموحد أن لا يجري له خاطر لا حقيقة له عند الحق، فالشواهد عن سره مصروفة والأعواض عن قلبه مطرودة، فلا شاهد يشهده ولا عوض يعبده ولا سر يطالعه.
المعجم الصوفي (ص٢٤٢)

القياس قال محمد بن موسى الواسطي: جملة التوحيد أن كل ما يتسع به اللسان أو يشير إليه البيان من تعظيم أو تجريد أو تفريد فهو معلول، والحقيقة وراء ذلك.

معناه أن كل ذلك من أوصافك وصفاتك محدثة معلولة مثلك، وحقيقة الحق هو وصفه له وقال بعض الكبراء: التوحيد إفرادك متوحدًا وهو أن لا يشهدك الحق إياك، قال فارس: لا يصح التوحيد ما بقيت عليك علقة من التجريد، والموحد[1] بالقول لا يشهد السر منفردًا به، والموحد بالحال غائب

يريد تنزيهه عن (التمييز بين الخير والشر ليجر منفعه إليه ويدفع مضرة عنه وتنزيهه عن)[2] التأمل، لأن التأمل في الشيء صفة الجاهل به إما حالًا أو عاقبة.

وسابعها: تبرئته عن القياس إما بمعنى أنه لا يدخل في قياس العباد إذ لا شبه له حتى يقاس عليه، وإما بمعنى أنه لا حاجة له إلىٰ قياس شيء علىٰ شيء لأن القياس لتحصيل العلم بحكم صورة معينة.

قوله: كل ما يتسع به اللسان.

أي يعبر عنه اللسان أو يشير إليه البيان من تعظيم الحق أو التجريد[3] عما دون الحق أو التفريد بالحق كلها معلول فلا شيء من ذلك بحقيقة الحق لأنها صفته.

قوله: والموحد بالقول لا يشهد السر منفردًا به.

أي لا يرى سره منفردًا بالحق، لأن المعبر عن توحيده باللسان يكون ناظر إلىٰ توحيده ليعبر عنه، والناظر إلىٰ التوحيد لا يكون منفردًا بالحق والمتوحد بالحال غائب بحاله عن الأقوال، يعني لا يطيق أن يصف التوحيد بالحال بالقول، لأن الوصف

---

(١) سقط ثانيًا من عنده فاستكملناها من المتن.

(٢) وجدناه بالهامش.

(٣) التجريد خلو قلب العبد وسره عما سوى الله بمعنى أن يتجرد بظاهره عن الأعراض وبباطنه عن الأعواض وهو ألا يأخذ من عرض الدنيا شيئًا، ولا يطلب عما ترك منها عوضًا من عاجل ولا آجل بل يفعل ذلك لوجوب حق الله تعالىٰ لا لعلة غيره ولا لسبب سواه ويتجرد بسره عن ملاحظة المقامات التي يدخلها والأحوال التي ينازلها بمعنى السكون إليها والاعتناق لها.
المعجم الصوفي (ص ٤٨)

بحاله عن الأقوال ورؤية الحق حال لا يشهده إلَّا كل ما له.

ولا سبيل إلىٰ توحيده بلا قال ولا حال.

وقال بعضهم: التوحيد الخروج عن جميعك بشرط استيفاء ما عليك، وأن لا يعود عليك ما يقطعك عنه، معناه تبذل مجهودك في أداء حق الله ثم تتبرأ من رؤية أداء حقه، ويستوفيك التوحيد عن أوصافك فلا يعود عليك منها شيء فإنه قاطع لك عنه.

قال الشبلي: لا يتحقق العبد بالتوحيد حتى يستوحش من سره وحشة لظهور الحق عليه.

وقال بعضهم: الموحد من حال الله بينه وبين الدارين جميعًا لأن الحق

للغائب فإذا صار حالاً صار حاضرًا ولا حاجة للحاضر إلىٰ الوصف له ورؤية الحق حال لا يرى في تلك الحال إلَّا كل ما للحق يعني علامة رؤية الحق[1] أنه لا يرى شيئًا إلَّا أن يرى أنه للحق لا عبد له ولا سبيل إلىٰ توحيد الحق بلا قال وحال أي يقول إنه واحد ويعتقد بالسر وحدانيته.

قوله: هو الخروج عن جميعك.

وهو أن لا ترى لك وصفًا ولا فعلًا، وإذا خرجت عن جميعك فالشرط أن لا تقول إذا لم يكن بي شيء لا أفعل شيئًا، ولكن تبذل مجهودك وطاقتك في أداء حقه وما وجب عليك.

قوله: الموحد من حال الله بينه وبين الدارين جميعًا.

يعني من أوقع الله الحيلولة بينه وبين الدارين جميعًا بمعنى أنه لا يدخل في قلبه

---

(١) قال النووي: اعلم أن لأهل العلم في أحاديث الصفات وآيات الصفات قولين أحدهما وهو مذهب معظم السلف أو كلهم أنه لا يتكلّم في معناها بل يقولون يجب علينا أن نؤمن بها ونعتقد لها معنى يليق بجلال الله تعالىٰ وعظمته مع اعتقادنا الجازم بأن الله تعالىٰ ليس كمثله شيء وأنه منزه عن التجسم والانتقال والتحيز في جهة وعن سائر صفات المخلوق.
شرح النووي لصحيح مسلم (١٨/٣) طبعة دار الكتب العلمية

يحمي حريمه، قال جل وعز: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ﴾ [فُصِّلَت: ٣١] فلا تردكم إلىٰ معنى سوانا في الدنيا والآخرة.

وعلامة الموحد أن لا يجري عليه ذكر إخطار ما لا حقيقة له عند الحق، فالشواهد عن سره مصروفة والأعواض عن قلبه مطرودة فلا شاهد يشهده ولا عوض يعبده ولا سر يطالعه ولا بِرّ يلاحظه هو في حقه عن حقه محجوب وفي حظه عن حظه مسلوب فلا نصيب له في نصيب وهو مأسور في أوفر النصيب، والحق أوفر نصيب ما فاته الحق فليس له شيء وإن ملك الكون.

ومن وجد الحق فله كل شيء، وإن لم يملك ذرة معناه هو قائم بحقه محجوب عن رؤية قيامه بحقه، وهو مسلوب عن حظوظه وهو يرى نفسه قائمة بحظوظها ونصيبه من الحق وجود الحق وهو فيه مأسور وليس له متقدم ولا متأخر وأنشدونا لبعضهم:

مواجيد حق أوجد الحق كلها وإن عجزت عنها فهوم الأكابر

شيء منهما، لأن القلب الذي فيه توحيد الحق هو حريم الحق، والحق يحمي حريمه عن أن يدخل فيه غيره، والذي يدل عليه قوله تعالىٰ: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ﴾.

يقول معناه فلا نردكم إلىٰ شيء سوانا في الدنيا والآخرة لأن الولي، إما الخِلّ وليس من شرط المحبة إلقاء المحب إلىٰ غيره، وإما متولى الأسباب وليس من شرطه أيضًا أن يتركه إلىٰ غيره إما لصدق وعده وإما لأن الترك إلىٰ غيره يدل علىٰ العجز.

قوله: هو في حقه عن حقه محجوب.

أي الموحد في حق الحبيب عن حق الحبيب محجوب وفي حظه نفسه عن حظ نفسه مسلوب. وقد فسر ذلك صاحب الكتاب.

قوله: وهو يرى نفسه قائمة بحظوظها، يعني يوصل إليها ما هو حظها، ولكن يفرغ سره عن طلب الحظ.

❊ ❊ ❊

الباب الثاني والستون
قولهم في صفة العارف

سئل الحسن بن علي بن يزدانيار متى يكون العارف بمشهد الحق قال: إذا بدا الشاهد وفنى الشواهد، وذهب الحواس واضمحل الإخلاص، معنى بدا الشاهد يعني شاهد الحق وهو أفعاله بك مما سبق منه إليك من برّه لك وإكرامه إياك بمعرفته وتوحيده والإيمان به تفي رؤية ذلك منك رؤية أفعالك وبِرّك وطاعتك فترى كثير ما منك مستغرقًا في قليل ما منه وإن كان ما منه ليس بقليل، وما منك ليس بكثير وفناء الشواهد سقوط رؤية الخلق عنك بمعنى الضر والنفع

قوله: في صفة العارف[1]

متى يكون العارف بمشهد الحق يعني متى يصل إلىٰ المقام الذي فيه يرى الحق.

قوله: بمعرفته وتوحيده والإيمان به بيان للبِرّ والإكرام.

يعني منك رؤية البِرّ والإكرام إليك رؤية أعمالك فترى كثير ما منك من أفعالك وصفاتك مستغرقًا في قليل ما من الله تعالىٰ لأنه رأى منه واحدة من الله تعالىٰ فينسى كل أفعاله وإن كثرت لأن المنة سابقة والخدمة لاحقه بسبب تلك السابقة، فقيام اللاحقة بالسابق وما منه فليس بقليل وما منك فليس بكثير لأن ما منه إلىٰ العبد مما ذكر يوجب سعادة وما من العبد من الخدمة لله تعالىٰ وصفاته فهو مستغن عنه فما من المستغني إلىٰ من لا يستغنى بل إلىٰ من يحتاج من كل الوجوه أكثر من الكثير بخلاف العكس، وفي هذا المعنى قال الشاعر:

قليل منك يحييني ولكن ... قليلك لا يقال له قليل

(١) أولى الدرجات التي يرقاها العارف هي التحير ثم الافتقار ثم الاتصال ثم التحير، والحيرة الأولى في أفعاله ونعمه عنده فلا يرى شكره يوازي نعمه، والحيره الأخيره أن يتحير في متاهات التوحيد فيضل فهمه في عظم قدرة الله وهيبته وجلاله.
المعجم الصوفي (ص١٦٥)

والذم والمدح، وذهاب الحواس هو معنى قوله: «فبي ينطق وبي يبصر» . . الحديث، ومعنى اضمحل الإخلاص أن لا يراك مخلصًا وما خلص من أفعالك إن خلص ولن يخلص أبدًا إذا رأيت صفتك فإن أوصافك معلولة مثلك.

سئل ذو النون عن نهاية العارف فقال: إذا كان كما كان حيث كان قبل أن يكون معناه أن يشاهد الله وأفعاله دون شهاده وأفعاله.

قال بعضهم: أعرف الخلق بالله أشدهم تحيرًا فيه.

قيل لذي النون: ما أول درجة يرقاها العارف؟ فقال التحير ثم الافتقار ثم

قوله: **إن خلص** مفعول ثان لقوله: لا تراك أي لا ترى ما خلص من أفعالك إن خلص، أي خلوصه لأن الإخلاص إنما يكون إخلاصًا إن لو كنت خالصًا للحق ومع رؤية الإخلاص أو نجاتك بالإخلاص أو طمع الثواب بأفعالك لا يكون خالصًا لله لأنك إذا رأيت صفتك وأوصافك معلولة مثلك فلو رأيتك لم تكن مخلصًا فكيف إذا رأيت صفتك فإنها لا تنفك عن رؤيتك وإياك فكثرت المرئيات فارتفع الإخلاص.

قوله: **دون شاهده وأفعاله** . أي لا يرى العارف إياه وأفعاله.

قوله: **أشدهم تحيرًا فيه**، أي في الله يعني متى أكثر سعيه.

في أداء حق الله تعالىٰ يعرف أنه عجز في أداء حقه فتحير وإذا رأى منن الحق التي فعلها معه فتحير في أداء شكرها أو تحير في معرفة ذاته وصفاته بأن لم ير لذاته نهاية ولا لكمال صفاته غاية فتحير في تلك المعرفة التي ينتهي الطلب فيها ولا ينتهي المطلوب ولا يجد له نهاية فيزيد حيرته قوله: إن صليت جحدت (قيل قام الشبلي يومًا يصلي فبقي طويلًا ثم صلى، فلما انفتل من صلاته قال: يا ويلاه إن صليت جحدت، وإن لم أصلِّ كفرت)[1] لأنها لا توازي شكر منته علي، فإن قلت فعلت شكرها بالصلاة، فقد أنكرت بقاء المنة عليّ وجحدته.

قوله: **ثم الافتقار**.

يعني إذا رأى أنه في أداء حقه عاجز يضرع ويمسكن ويخشع لأنه صفة العاجز، فهو

---

(١) ثم ذكر الاشعار التي بالمتن هكذا وجدناه بالهامش.

الاتصال ثم التحير، الحيرة الأولى في أفعاله به ونعمه عنده فلا يرى شكره يوازي نعمه وهو يعلم أنه مطالب بشكرها، وإن شكر كان شكره نعمة يجب عليه شكرها ولا يرى أفعاله أهلًا أن يقابله بها استحقارًا لها ويراها واجبة عليه لا يجوز له التخلف عنها.

وقيل: قام الشبلي يومًا يصلي فبقي طويلًا ثم صلى فلما انفتل عن صلاته قال: يا ويلاه إن صليت جحدت وإن لم أصل كفرت ـ أي جحدت عظم النعمة وكمال الفضل حيث قابلت ذلك بفعلي شكرًا له مع حقارته ـ ثم أنشد:

الحمد لله على أنني كضفدع يسكن في اليمّ
إن هي فاهت ملأت فمها أو سكتت ماتت من الغمّ

والحيرة الأخيرة أن يتحير في متاهات التوحيد فيضل فهمه ويخنس عقله في عظم قدرة الله تعالىٰ وهيبته وجلاله، وقد قيل: دون التوحيد متاهات تضل فيها الأفكار، سأل أبو السوداء بعض الكبار فقال: هل للعارف وقت؟ قال: لا،

الافتقار ثم الاتصال بالانقطاع عما دون الحق ورفع الاحتياج والفقر إليه ليصير غنيًّا بالحق.

قوله: والحيرة الأخيرة أن يتحير في متاهات التوحيد.

المتاهات مواضع التيه وهو التحير ويطلق التيه بالكسر علىٰ مفازة يضل فيها الطريق، أي في معرفة ذاته وصفاته ويخنس عقله، أي يتأخر عقله فلا يجد متقدمًا.

قوله: فيضل فهمه إلىٰ قوله وجلاله، كأنه تفسير لتحيره في متاهات التوحيد.

قوله: بعض الكبار قيل هو حسين بن منصور، قال: لأن الوقت فرحة تنفس عن كربة الوقت عند هذه الطائفة ما يرد من الله علىٰ العبد فيمضيه بحكمه كالقبض والبسط والخوف والرجاء فيستأنس العبد به، فالوقت يستلزم فرجة بتنفس صاحب الوقت فيها عن كربة له، وإذا صحت المعرفة للعارف لا يكون له هذا الوقت لأن المعرفة أمواج تغط وترفع يقال غطه في الماء يغطه غطًا، أي وضعه وغوصه فيه، وهذا علىٰ طريق ضرب المثل، فإن من غرق في البحر الموّاج لا يبدو ساحله، وتتابعت تلك الأمواج فتارة ترفع الغريق وتارة تغطه، فكيف حال ذلك الغريق في تلك الحال يكون وقته أسود مظلمًا فيتابع أمواج بحر معرفة عظمة الحق وجلاله

فقال: لم؟، قال: لأن الوقت فرجة تنفس عن الكربة والمعرفة أمواج تغط وترفع وتحط، فالعارف وقته أسود مظلم، ثم قال:

شرط المعارف محو الكل منك إذا بدأ المريد بلحظ غير مطلع

قال فارس: العارف من كان علمه حالة وكانت حركاته غلبة، سئل الجنيد عن العارف فقال: لون الماء لون الإناء، يعني أنه يكون في كل حال بما هو أولى فيختلف أحواله ولذلك قل هو ابن وقته.

سئل ذو النون عن العارف[1] فقال كان ههنا فذهب يعني أنك لا تراه في

بفعل سر العارف الغريق فيه ما لا يفعل البحر الغزير المواج الذي لا ساحل له بالغريق فيه فلا يطيق سره بأمواج بحر العظمة والجلال فيعجز عن المعرفة، فإذا عجز عن المعرفة يكون وقته أسود مظلمًا، وكما أنهما مانعان عن الأبصار، فكذا العجز عن المعرفة نهايتها مانع عن الوصول إلىٰ نهايتها فلذلك شبه حاله بهما في كونهما مانعين عن الاهتداء إلىٰ المقصود.

قوله:

شرط المعارف محو الكل منك إذا بدأ المريد يلحظ غير مطلع

يريد أن شرط المعرفة أن تمحو منك كلك إذا نظر المريد في الابتداء نظرًا لا يطلع فيه علىٰ غير الحق.

اعلم أن مقام الإرادة كمقام البداية ومقام المعرفة مقام النهاية فينبغي أن لا ينظر لا في البداية ولا في النهاية إلىٰ غير الحق.

قوله: من كان علمه حالة.

وهو أن يعمل بعلمه وكانت حركاته غلبة أي لا يكون مختارًا في حركاته، بل يكون مغلوبًا للشريعة لا يتحرك ولا يتجاوز عما حد له ومغلوبًا للمشاهدة، وهو أن يكون كما لم يكن.

قوله: سئل جنيد عن العارف قال: لون الماء لون الإناء.

فكما أن الماء لا لون له ويكون متلونًا بلون الإناء، فكذا العارف يكون ظاهره

---

(١) نهاية العارف تتحقق فقط إذا كان العارف كما كان حيث كان قبل أن يكون، ومعنى ذلك أن =

وقتين بحالة واحدة لأن مصرفه غيره.

وأنشدونا لابن عطاء:

ولو نطقت في ألسن الدهر خيرت بأني في ثوب الصبابة أرفُل
وما إن لها علم بقدري موضعي وما ذاك موهوم لأني أُنقّل

وقال سهل بن عبد الله: أول مقام في المعرفة أن يعطى العبد يقينًا في سره تسكن به جوارحه ....

علىٰ وفق ما أبداه الله تعالىٰ في باطنه ويكون باطنه علىٰ حاله فيكون في كل حال بما هو أولى به فيختلف أحواله، فتارة يقضي حاله سكوته وتارة حركته وتارة الشكر وتارة الشكاية، وتارة الصبر، وتارة الجزع، وتارة الفناء، وتارة البقاء، وتارة النطق، وتارة السكوت، وتارة الصحبة مع الخلق، وتارة العزة والنفرة، فيكون ظاهره علىٰ موافقة الوقت وباطنه علىٰ حاله، ولذلك قيل هو ابن وقته يعني يكون ظاهره تبع لحال باطنه، وباطنه تبع للحق فيتحرك كما حرك.

قوله:

ولو نطقت في ألسن الدهر خبرت بأني في ثواب الصبابة أرفُل

يريد أنه في من غلبة المحبة والصبابة (العشق) ما لو نطقت به ألسن الدهر وأخبرت عني لم يخبروا إلا بأني في ثوب الصبابة أتبختر لأني لا أكون علىٰ وصف واحد ولا أتعين بحال واحدة أو بأحوال، بل يتزايد الحال والوصف فيّ إلىٰ ما لا نهاية له فتعجز ألسن الدهر عن الإخبار عني وما للدهر وألسنها علم بقدري ومرتبتي وموضعي حتى يخبرن عنه وليس العلم المذكور موهومًا، أي لا يدخل في الوهم لأني أُنقل فلا أثبت علىٰ حال فكيف يخبر بقدري وموضعي.

قوله: تسكن به جوارحه.

يعني لا تطلب ولا تضطرب في الطلب لأن الاضطراب فيه من ضعف اليقين.

= يشاهد الله وأفعاله دون شاهده وأفعاله.

المعجم الصوفي (ص١٦٥)

وتوكلًا في جوارحه يسلم به في دنياه وحيرة في قلبه يفوز بها في عقباه قلنا العارف هو الذي بذل مجهوده فيما لله وتحقق معرفته بما من الله، وصح رجوعه من الأشياء إلىٰ الله، قال الله تعالىٰ: ﴿تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ﴾ [المائدة: ٨٣] يجوز أن يكون ما عرفوا من الله من برِّه وإحسانه بقصده إليهم وإقباله عليهم واختصاصه إياهم من بين ذويهم كما قال أبي بن كعب حين قال له النبي ﷺ: «**إن الله أمرني أن أقرأ عليك**».

فقال: يا رسول الله أوذكرت هناك، قال: نعم، فبكى أُبي لم ير حالًا يقابله بها

قوله: وتوكلًا في جوارحه يسلم به في دنياه.

لأن التوكل متى صح بالحق يكون حافظه هو الحق كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ﴾ [الطَّلَاق: ٣] ومن كان حافظه هو الحق لا يكون له إلَّا السلامة.

قوله: وحيرة في قلبه تفوز بها في عقباه.

معنى هذه الحيرة أن لا يستأنس في الدنيا إلَّا مع الحق، وإذا كان في دار المحنة مع الحق فمحال أن لا يكون في دار الراحة والسرور معه.

قوله: وتحقق معرفته بما من الله.

وما من الله إن كان الأمر فيعرف أن لا يكون للعبد إلَّا الطاعة، وإن كان المنة فيعرف أن لا يكون للعبد إلَّا أداء الشكر.

قوله: وصح رجوعه من الأشياء إلىٰ الله.

فإن كانت النعمة فيرجع إلىٰ شكر الحق كسليمان عليه السلام وإن كانت المحنة فيرجع في الصبر إلىٰ الحق كأيوب عليه السلام، واستدل علىٰ ذلك في الكتاب بقوله تعالىٰ: ﴿تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ﴾ [المَائدة: ٨٣] وفسره بقوله: يجوز أن يكون إلىٰ قوله من بين ذويهم، أي أقرانهم وأصحاب جلدتهم.

قوله: لم ير حالًا يقابله بها.

أي ير أُبيّ رضي الله عنه حالًا يقابل ذلك الحال بتلك النعمة وهي أمر الله النبي عليه الصلاة

ولا شكرًا يوازي نعمه ولا ذكرًا كما يستحقه فانقطع فبكى.

وقال النبي ﷺ لحارثة: «عرفت فالزم».

نسبة إلىٰ المعرفة وألزمه إياها ولم يدل علىٰ عمل.

سئل ذو النون عن العارف فقال: هو رجل معهم بائن منهم، قال سهل: أهل المعرفة بالله كأصحاب الأعراف يعرفون كُلًّا بسيماهم أقامهم مقامًا أشرق بهم علىٰ الدارين وعرفهم الملكين، أنشدونا لبعضهم:

والسلام بالقراءة عليه وذكره عنده.

قوله: نسبة إلىٰ المعرفة.

وذلك قوله عرفت أو أصبت علىٰ الروايتين وألزم النبي عليه الصلاة والسلام حارثة المعرفة ولم يدله علىٰ عمل، لأنه لا يحصل من العبد عمل يقابل هذه النعمة ويكافئها، بل أمره بملازمتها، لأنها نعمة عظيمة فلا يصدر منك سوء أدب لئلا يزول تلك النعمة عنك.

قوله: هو رجل معهم بائن منهم.

أي مع الخلق بالشخص بائن منهم بالصفة والسرّ.

قوله: أهل المعرفة بالله أصحاب الأعراف يعرفون كلًّا بسيماهم.

أصحاب الأعراف قوم يكونون في مقام بين الجنة والنار ويرون أهل الجنة فيها في النعيم، ويرون أهل النار فيها في العذاب فالعارف في هذا الوجود كذلك يرى الدنيا فانية والعقبى باقية وأهليهما فيهما، ومشرف علىٰ ظاهر الخلق وباطنهم فيرى ظاهرهم في الشريعة وباطنهم في الحقيقة بعلامة الظاهر فيعرف كلًّا بسيماهم، يعني ينظر إلىٰ سيماه فيعرف ما في سره.

قوله: أقامهم مقامًا.

أي أقام الله العارفين مقامًا أشرف بهم فيه علىٰ دار الفناء ودار البقاء وعرفهم ملك الدنيا وملك العقبى والباقي بهم في أشرف بهم للتعدية.

يا لهف نفسي علىٰ قوم مضوا فقضوا	لم اقض منهم وإن طاولتهم وطرى
هم المخافيت في كبر الملوك إذا	أبصرتهم قلت إضمار بلا صور

قوله: فقضوا.

أي حاجياتهم لم اقض منهم وطرى، أي حاجتي وإن طاولت الصحبة معهم هم المخافيت في كبر الملوك المخافتة، والتخافت أسرار المنطق والخفت مثله، والمخافيت جمع المخفوت، والمراد بها ههنا المستورون صفة وحالاً في كبر الملوك خبر بعد خبر بحسب كبر الهمة وعدم الالتفات إلىٰ شيء خسيس فهممهم لا تتجاوز إلىٰ غير الحق ولا ينظرون إلىٰ غيره لأنه خسيس بالنسبة إليه.

قوله: قلت إضمار بلا صور.

أي لا يدركون من غاية اللطافة كالضمير لأنهم إذا وافقوا ظاهرهم مع باطنهم فصار ظاهرهم بصفة باطنهم فكان ظاهرهم الضمير.

❊ ❊ ❊

الباب الثالث والستون
قولهم في المريد والمراد

المريد مراد في الحقيقة، والمراد مريد، لأن المريد لله تعالىٰ لا يريد إلَّا بإرادة من الله عز وجل تقدمت له، قال الله تعالىٰ: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المَائدة: ٥٤]، وقال: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ﴾ [المَائدة: ١١٩] وقال: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْۚ﴾ [التّوبَة: ١١٨]، فكانت إرادته لهم سبب إرادتهم له إذ علة كل شيء صنعه ولا علة لصنعه ومن أراده الحق فمحال أن لا يريده العبد فجعل المريد مرادًا، والمراد مريدًا غير أن المريد هو الذي سبق اجتهاده كشوفه، والمراد هو الذي سبق كشوفه اجتهاده، فالمريد هو الذي قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَاۚ﴾ [العَنكبوت: ٦٩] وهو الذي يريده الله تعالىٰ فيقبل بقلبه ويحدث فيه لطفًا يثير منه الاجتهاد فيه والإقبال عليه والإرادة له ثم يكاشفه الأحوال كما قال حارثة: عزفت نفسي عن الدنيا فأظمأت نهاري وأسهرت ليلي، ثم قال وكأني أنظر إلىٰ عرش ربي بارزًا، فأخبر أن كشوف أحوال الغيب له كان عقيب عزوفه عن الدنيا.

والمراد هو الذي يجذبه الحق جذبة القدرة ويكاشفه بالأحوال فيثير قوة الشهود منه اجتهادًا فيه وإقبالًا عليه وتحملًا لأثقاله كسحرة فرعون لما كوشفوا

قوله: في المريد والمراد

قوله: ومن أراده الحق فمحال أن لا يريده العبد.

(أي العبد الذي أراده الحق ليريد الحق فمحال أن لا يريده العبد)(1) إذ لا يجوز خلاف إرادة الحق فجعل المريد مرادًا والمراد مريدًا قوله: والذي فطرنا، عطف علىٰ قوله ما جاءنا، أي لن يختارك يا فرعون علىٰ هذين علىٰ البينات والحق الذي خلقنا، فاقض يا فرعون ما أنت قاض مما تتوعدنا به.

---

(1) بالهامش.

بالحال في الوقت سهل عليهم تحمل ما توعدهم به فرعون فقالوا: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ﴾، وكما فعل بعمر بن الخطاب ﵁ أقبل يريد قتل رسول الله ﷺ فأسره الحق في سبيله وكقصة إبراهيم بن أدهم خرج يطلب الصيد متلهيًا فنودي ما لهذا خلقت ولا بهذا أمرت مرتين، ونودي في الثالثة من قربوس سرجه فقال: والله لا عصيت الله بعد يومي هذا ما عصمني ربي، هذه جذبة القدرة كوشفوا بالأحوال فأسقطو عن النفوس والأموال.

أنشدني الفقيه أبو عبد الله البرقي لنفسه:

مريد صفا منه سر الفؤاد ... فهام به السر في كل واد
ففي أي واد سعى لم يجد ... له ملجأ غير مولى العباد
صفا بالوفاء ووفى بالصفا ... ونور الصفاء سراج الفؤاد

قوله: (كما فعل بعمر بن الخطاب أقبل يريد قتل رسول الله ﷺ)[1].

فأسره الحق في سبيله، حتى جاء إلىٰ بيت أخته وتقرأ أخته سورة طه فأخذ المصحف منها وقرأ سورة طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى، فلما رأى لطف الحق إلىٰ عبده وهو أنه أمره بوضع القدم علىٰ الأرض والاستراحة ولا يريد مشقته فتعجب منه فقال عمر اعبد ما لا يكون له خبر عن حالي، ولا يعتذر عني ولا يشفق عليّ فالمعبود ينبغي أن يلطف مع عبده مثل هذا اللطف فبسبب هذه المعاني كشفه الحق من غير رياضه واجتهاد ثم بعد الكشف وصل اجتهاده ورياضته إلىٰ ما وصل قوله:

صفا بالوفاء ووفى بالصفاء ... ونور الصفا سراج الفؤاد

يقول: بالوفاء بعهود المحبوب صار صافيًا ثم وفى بذلك الصفا بأن لم يجعله كدرًا بالجفاء أو باختلاطه عن غير المحبوب، وإذا أكدت المحبة يصير القلب صافيًا عن غير المحبوب فلا يرى إلَّا المحبوب فتلك المحبة صارت آلة لرؤية المحبوب كالسراج فإنه آلة رؤية الأشياء.

---

(١) وجدناه بالهامش.

أراد وما كان حتى أريد فطوبى له من مريد مراد

قوله:

أراد وما كاد حتى أريد فطوبى له من مريد مراد

يقول أراد المريد محبوبه، وما قرب إرادته بالحصول حتى أراد محبوبه إياه، يريد أن إرادة المحبوب إياه سابقة علىٰ إرادته إياه فطوبى له من مريد مراد يعني هو مريد للمحبوب والمحبوب مريدًا له فهو مريد مراد.

❊ ❊ ❊

الباب الرابع والستون
قولهم في المجاهدات والمعاملات

قال بعض الكبراء التعبد إتيان ما وظف الله علىٰ شرط الواجب وشرط الواجب الإتيان به علىٰ غير مطالبة عوض وإن شهدته فضلًا بل يستوفيك عن رؤية الفضل والعوض ما لله عليك في العمل في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم﴾ [التوبة: ١١١] قال ليعبدوه بالرق لا بالطمع، قيل لأبي بكر الواسطي بأي شاهد ينبغي أن يكون العبد في حركات ما يسعى؟ قال: بشاهد الفناء عن حركاته التي هي كائنة بغيره، قال أبو عبد الله النباجي: استحلاء الطاعة ثمرة الوحشة عن الحق جل وعز إذ لا يواصل الحق بها ولا يفاصل ولا

قوله: في المجاهدات والمعاملات

التعبد إتيان ما وظف الحق، أي إتيان ما وظفه الحق عليك إتيانًا علىٰ شرط الواجب.

قوله: وإن شهدته فضلًا.

يعني وإن رأيت العوض رأيته فضلًا من الحق لا واجبًا عليه وإلَّا اعتمدت علىٰ فعلك بل يستوفيك ما لله عليك في العمل عن رؤية الفضل والعوض لأن رؤيتهما نصيبك والقيام بأمر الله وأداء شكره نصيب الحق فينبغي أن تشتغل بنصيب الحق بحيث تنسى نصيبك في نصيبه، واستدل علىٰ ذلك بقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم﴾ [التوبة: ١١١] وفسره بقوله ليعبدوه بالرق لا بالطمع وهذا الشري هو أن يعتقدوا أنهم عبيد له، وإذا كان كذلك فالعبارة لكونهم عبيدًا لا لطمع منه.

قوله: بأي شاهد ينبغي أن يكون العبد في حركات ما يسعى؟

يعني أي شيء يرى العبد في حال حركاته في خدمة الله تعالى، قال شاهد الفناء يعني أن يرى في تلك الحالة الفناء عن حركاته التي هي كائنة بغيره وهو الله تعالىٰ.

يعتمد عليها اعتماد معلول ولا يتركها ترك معاند بل يقيم وظائف الحق رقًا وعبودية، ويكون الاعتماد على ما في الأزل يريد باستحلاء الطاعة رؤيتها من نفسك دون مشاهدة فضل الله عليك في التوفيق في قول الله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥] قال أكبر من أن تبلغه أفهامكم وتحويه عقولكم ويجري على ألسنتكم وحقيقة الذكر هو نسيان ما سواه فيه لقوله عز وجل: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [الكهف: ٢٤] وفي قوله تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾ [الحاقة: ٢٤].

أي الخالية عن ذكر الله لتعلموا أنكم بفضله نلتم لا بأعمالكم قال أبو بكر القحطبي: نفوس الموحدين نفوس سئمت من جميع ما ظهر من نعوتها وصفاتها واستقبحت كل باد بدا منها وانقطعت عن الشواهد والعوائد والفوائد وعجزت عن

قوله: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾.

أي ولذكر الله العبد أكبر من ذكر العبد إياه إذ لا يعجب من ذكر الضعيف العاجز الفقير الحقير عزيزًا قويًا قادرًا غنيًّا، بل التعجب من العكس، وحقيقة ذكر الله نسيان ما سواه فيه، أي في ذكر الله.

قوله تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾ [الحاقة: ٢٤]، أي الخالية عن ذكر الله ليعلموا أنكم نلتم بفضله ما نلتم لا بأعمالكم، هذا الخطاب لأهل الجنة حال كونهم فيها.

قوله: سئمت من جميع ما ظهر منها.

ومعنى السآمة ههنا أنها لا تستأنس مع الأفعال التي صدرت منهم ولا يعتمد عليها لأن ما أتت نفوسهم به لا يرونه لائقًا وجديرًا للحق وما لا يكون جديرًا يكون منه السآمة، وانقطعت نفوسهم عن شواهد الخلق، وعن العوائد أي الأعراض، وعن الفوائد أي الأعواض، وعجزت تلك النفوس عن إظهار الدعاوي بين يدي الله تعالى لما سمعت قوله تعالى: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠]، ومعنى عدم الإشراك بها أن يرى الكل من الله قبل الإتيان بالعبادة وفي وقت الإتيان بها لا يفعل ولا

إظهار الدعوى بين يديه لما سمعت قوله عز وجل: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]، الشواهد الخلق والعوائد الأعواض قال أبو بكر الواسطي: معنى التكبير في الصلاة كأنك تقول جللت عن أن تواصل بها أو تفاصل بتركها إذ الفصل والوصل ليس بحركات بل هو بما سبق في الأزل.

قال الجنيد: لا يكونن همك في صلاتك إقامتها دون الفرح والسرور بالاتصال بمن لا وسيلة إليه إلَّا به قال ابن عطاء: لا يكونن همك في صلاتك إقامتها دون الهيبة والإجلال لمن رآك فيها، وقال غيره: معنى الصلاة التجريد عن العلائق والتفريد بالحقائق العلائق ما سوى الله والحقائق ما لله ومن الله، وقال آخر: الصلاة وصل.

قال: سمعت فارسًا يقول: معنى الصوم الغيبة عن رؤية الخلق برؤية الحق عز وجل لقوله تعالىٰ في قصة مريم ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ [مريَم: ٢٦] قال: لغيبتي عنهم برؤية الحق فلا أستجيز في صومي أن يشغلني عنه شاغل أو يقطعني عنه قاطع ويدل عليه قول النبي ﷺ: «**الصوم جنة**» أي حجاب عما دون الله في قوله تعالىٰ: «**الصوم لي وأنا أجزي به**».

قال بعض الكبار: أي أنا الجزاء به، وقال أبو الحسن بن أبي ذر: أي معرفتي هي الجزاء له به، قال: وحسبه ذلك جزاء فما يبلغها شيء ولا يدانيها، سمعت أبا الحسن الحسني الهمداني يقول: معنى قوله الصوم لي، كي ينقطع الأطماع عنه، طمع العدو أن يفسده لأن ما لله فلا يطمع فيه العدو، وطمع النفس أن تعجب به فإنها إنما تعجب بما لها، وطمع الخصوم في الآخرة فإنهم يأخذون ما للعبد دون ما لله، هذا معنى ما فهمت من قوله.

قال بعضهم: جهد البلاء، النظر إلىٰ النفوس والاعتماد علىٰ الأفعال فإن

يأتي بها إلَّا الله، وإذا أتى بها فيخرج من البين، وإذا كان كذلك فلا يصح الدعوى لأن المدعي يرى نفسه ليضيف شيئًا إليه، والعارف الموحد لا يرى نفسه، فلا يرى لنفسه شيئًا.

وكل إليها فهو: درك الشقاء، وفي درك الشقاء شماتة الأعداء، أنشدونا للنوري:

أقول أكاد اليوم أن أبلغ المدى فيبعد عني ما أقول أكادُ
فما لي جهاد غير أني مقصر وعجزي عن طول الجهاد جهادُ
وإن رجائي عودة منك بالرضا وإلَّا فحظي في المعاد بِعادُ

وأنشدونا لغيره:

هبني أراعيك بالأذكار ملتمسًا ما يبتغيه ذوو التلوين بالغير
فكيف لي بشهود منك يحملني عن فتنة الوقت بل عن حجبه الأثر

قوله: أقول أكاد اليوم أن أبلغ المدى.

أي في أداء حق الله تعالىٰ فيبعد عني ما أقول أكاد يعني قصدي صحيح ولكن عاجز عن أداء حق الله علىٰ ما يليق به فما لي جهاد، أي جهد ومجاهده وعمل غير أني مقصر في أداء حقه وعجزي عن إقامة الجهاد وفعله جهاد لي، يعني لا يكون لي طاعة وخدمة أرفع إلىٰ حضرة الله غير أني أعرض عجزي عليه وأن رجائي بإدراك رضاك إياي، وإن لم يكن كذلك فحظي يوم القيامة بُعد منك، يريد أن علة النجاة ليست الطاعة، بل فضل الله تعالىٰ.

قوله: هبني أراعيك بالأذكار ملتمسًا.

أي طالبًا ما يطلبه ذو التلوين بالعبر، وهو ثوابك علىٰ الأفعال، التلوين تنقُّل العبد في أحواله وهو عند الأكثرين مقام ناقص قال الشيخ محيي الدين الأعرابي رَحِمَهُ اللَّهُ: وعندنا هو أكمل المقامات وحال العبد فيه حال قوله تعالىٰ: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرَّحمٰن: ٢٩] والعبر بمعنى العبور، أي بعبورهم من حال إلىٰ حال، وتنقلهم في الأحوال يعني هبني أن أقوم بما ذكر من مراعاتك بأذكارك والطاعة لك لكن فمن لي (أي فمن يضمن لي به) بمشاهدة السر ليحفظني قوة تلك المشاهدة من فتنة الوقت أو ليحفظني مما أثر في سري فيحجبني منك، يريد أن كشف السر ورفع الحجب من قبل السر وحفظ السر وحفظ سري عن الحجب لئلا يؤثر فيه ولا يتحجبني عنك، هذه الجملة ليست بيدي بل بفضلك، وفسر صاحب الكتاب البيتين في الكتاب بما معناه أنه

يقول إن طالعت في أفعالي ومجاهداتي ثوابك عليها وهو الذي يطلبه أرباب المجاهدات وأصحاب المعاملات فكيف أطالع شهود ما يحملني عن خوف العاقبة من تغيير الأحوال والأوقات وعن النظر إلىٰ حركاتي ومجاهداتي وهي التي تحجبني عنك.

إن رأيت في أحوالي ومجاهداتي الثواب الذي وعدنيه عليها والحال أن أصحاب المشاهدات والمعاملات يطلبون الثواب علىٰ أعمالهم لكنه شيء آخر لا أقدر أن أعلمه وأراه وهو ما يحملني عن خوف العاقبة، لأني أخاف أن يغير الحال والوقت عليَّ في العاقبة وتبرأ، وما يحملني عن رؤية حركاتي ومجاهداتي وهذه الرؤية التي تحجبني عنك فلعلك ترفع هذا الحجاب عني فإني لا أقدر علىٰ رفعه.



الباب الخامس والستون
حالهم في الكلام على الناس

قيل للنوري: متى يستحق الإنسان الكلام علىٰ الناس؟

قال: إذا فهم عن الله جل جلاله صلح أن يفهم عباد الله، وإذا لم يفهم عن الله كان بلاؤه عامًا في بلاده وعلى عباده.

قال السري السقطي: إني أذكر مجيء الناس إليَّ فأقول اللهم هب لهم من

قوله: أحوال القوم في الكلام على الناس

قال: إذا فهم عن الله صلح أن يفهم عباد الله، وهو أن لا يبقى عليه شيء ما منه ويتحرك بتحريك الله إياه، أو معنى أن يفهم من الله هو أن يأخذ من الكلام بقدر الإفادة ويضعه موضعه ولو وقع إشكال يقدر علىٰ رفعه وحَلِّه وإذا كان كذلك ينجو هو والمستمعون، **وإذا لم يفهم عن الله** علىٰ ما ذكر **كان بلاؤه عامًا في بلاد الله وعلى عباده** فضل هو وأضل وهلك وأهلك.

قوله: إني أذكر مجيء الناس إليَّ.

أي لأجل تعلم العلم فأقول اللهم هب لهم من العلم ما يشغلهم عني، أي مقدارًا من العلم يشغل ذلك العلم إياهم عني، بمعنى أنهم لا يصيرون محتاجين إليّ في تعلم العلم مني، وهذا منه يدل علىٰ شفقته علىٰ الخلق وعدم حسده وعلى أنه ما قصد بعلمه تشهيره، وعلى أن ما وجده من العلم اعتقد أنه من عطاء الله لا عن جهده، وإلَّا لما أحالهم إلىٰ أن يتعلموا ولم يرد لهم العلم من الله، وعلى أنه علم أن الله تعالىٰ أقدر منه علىٰ تعليمهم وعلى أنه علم أيضًا أن الله تعالىٰ أشفق منه عليهم وتفويض الأمر إلىٰ الأشفق الأولى، فإني لا أحب مجيئهم إليَّ لأن الاشتغال بالخلق يصير العبد محجوبًا عن الحق، وأيضًا توجه الناس إلىٰ أحد وإتيانهم إليه يوقع عزة بينهم فيخاف أن يلتفت قلبه إليه فيا شؤم ذلك يؤخذ منه بركة العلم وعز الآخرة وأيضًا يخاف أن يحمل من النصيحة والشفقة عليهم شيئًا.

العلم ما يشغلهم عني فإني لا أحب مجيئهم إليّ.

قال سهل بن عبد الله: أنا منذ ثلاثين سنة أكلم الله والناس يتوهمون أني أكلمهم، قال الجنيد للشبلي: نحن حبرنا هذا العلم تحبيرًا ثم خبأناه في السراديب فجئت أنت فأظهرته علىٰ رؤوس الملأ، فقال: أنا أقول وأنا أسمع فهل في الدارين غيري؟، وقال بعض الكبار للجنيد وهو يتكلم علىٰ الناس: يا أبا القاسم إن الله لا يرضى عن العالم بالعلم حتى يجده في العلم، فإن كنت في العلم فالزم مكانك،

قوله: أنا منذ ثلاثين سنة أُكلم الله تعالىٰ والناس يتوهمون أني أُكلمهم.

فإنه رأى سهل ألجأني بهم إليه لا ألجأني إليه، وهو الله فسمع منه لا منهم فأجابه وكلمه، وهذا كما إذا جاء رسول من عند ملك بكلام منه، فالجواب ليس للرسول بل للملك والرسول واسطة وسبب في البين، وإنما كان ذلك منه به كذلك لئلا يستخفهم بسبب جهلهم، فإن هذا النظر ترفع البركة من القول والاستماع.

قوله: نحن حبّرنا.

أي حسّنا وزينا هذا العلم تحسينًا وتزيينًا ثم خفيناه، أي سترناه في السراديب، فجئت أنت فأفشيته علىٰ رؤس الملأ، فقال: أنا أقول وأنا أسمع فهل في الدارين غيري، واعلم أن كلام جنيد رحمة الله عليه من مقام الغيرة، فإن من يغار علىٰ شيء ستره، وكلام الشبلي رحمة الله عليه من مقام الغلبة والمغلوب يقول كل شيء، للشبلي مقام الغلبة ولجنيد مقام التمكين أعلى من مقام الغلبة، فإن تمكن الصفات للأقوياء، وغلبة الصفات للضعفاء، فصاحب الغلبة لا يقدر أن يسكت وإلَّا لم يكن مغلوبًا، وصاحب التمكين يقدر علىٰ ذلك، وكل منهما معذور في مقامه، فصاحب التمكين ينظر إلىٰ الخلق نظر الشفقة، ولما رأى جنيد رحمة الله عليه أكثر الخلق غير محرم للكلام الذي قاله الشبلي رحمة الله عليه غار عليه من الكلام منهم، وكلام الشبلي رحمه الله من الغلبة المغلوب فارغ من الخلق وهو يقول مع سره ويسمع سره والمغلوب لا يجد من جنسه غيره، وهذا النظر ليس منه بل جعله الله كذلك قهرًا.

قوله: حتى يجده في العلم.

أي حتى يجده فيما هو مقتضي العلم فلا يطلب العالم به إلَّا رضى الحق والشفقة والنصيحة للحق للخلق.

وإلّا فانزل، فقام الجنيد ولم يتكلم علىٰ الناس شهرين، ثم خرج فقال: لولا أنه بلغني عن النبي ﷺ أنه قال: «**في آخر الزمان يكون زعيم القوم أرذلهم**» ما خرجت إليكم، وقال الجنيد: ما تكلمت علىٰ الناس حتى أشار إليّ وعليّ ثلاثون من البدلاء إنك تصلح أن تدعو إلىٰ الله عز وجل، وقيل لبعض الكبار: لم لا تتكلم؟ فقال: هذا عالم قد أدبر وتولى، والمقبل علىٰ المدبر أدبر من المدبر.

قال أبو منصور الينجخيني لأبي القاسم الحكيم: بأي نية أتكلم علىٰ الناس؟ فقال: لا أعلم للمعصية نية غير الترك.

واستأذن أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الرازي أبا حفص الحداد وكان تلميذه في الكلام علىٰ الناس فقال له أبو حفص وما يدعوك إليه؟ فقال أبو عثمان: الشفقة عليهم والنصيحة لهم فقال: وما بلغ من شفقتك عليهم؟، فقال: لو علمت أن الله يعذبني بدل جميع من آمن به ويدخلهم الجنة وجدت من قلبي الرضا به، فأذن له،

قوله: هذا عالم قد أدبر.

والعالم إذا كان مدبرًا عما ينبغي فكل من أقبل عليه تصير مدبرًا مثله، بل أدبر منه، وأما إذا كان العالم مقبلاً وكل من أقبل إليه يصير مقبلاً ببركة صحبته، كما قال عليه الصلاة والسلام: «**هم قوم لا يشقى جليسهم**» هذا إذا كان لفظه عالم بكسر اللام، وأما إذا كان بفتحها فيقدر أهل، أي هذا أهل عالم قد أدبر عن الحق وأقبل علىٰ النقصان فمن رأى خلقًا لا علىٰ الاستقامة وأراد أن يصرفهم إليها فيكون في حظر صرفهم إياه علىٰ ما هم عليه، فإن علم أنهم يهتدون به بإقباله عليهم فيقبل عليهم وينصحهم ولا يكون معذورًا بعدم الإقبال عليهم وإن علم أنهم لا يرجعون عما هم فيه ويخاف علىٰ نفسه الزلل يجب عليه أن يفرّ منهم ويحفظ نفسه منهم كما قال الله تعالىٰ: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥] وكما قال عليه الصلاة والسلام حين بيّن فساد الخلق في آخر الزمان «**فالزم بيتك**».

قوله: لا أعلم للمعصية نية غير الترك.

لما رأى أبو القاسم الحكيم رحمة الله عليه في أبي المنصور من عدم إخلاص نيته في الكلام علىٰ الناس وطلب حظ نفسه منه وصرف وجوه الناس إليه، قال: لا أعلم للمعصية نية غير الترك.

وشهد أبو حفص مجلسه، فلما قضى أبو عثمان كلامه قام سائل فسبق أبو عثمان فأعطاه ثوبًا كان عليه، فقال أبو حفص: يا كذاب إياك أن تتكلم علىٰ الناس وفيك هذا الشيء، فقال أبو عثمان: وما ذاك يا أستاذ؟ قال: أما كان فيك من النصيحة لهم والشفقة عليهم أن تؤثرهم علىٰ نفسك بثواب السبق ثم تتلوهم.

سمعت فارسًا يقول: سمعت أبا عمر الأنماطي يقول: كنا عند الجنيد إذ مرَّ به النوري فسلم، فقال له الجنيد: وعليك السلام يا أمير القلوب تكلم، فقال النوري: يا أبا القاسم غششتهم فأجلسوك علىٰ المنابر ونصحتهم فرموني في المزابل، فقال الجنيد: ما رأيت قلبي أحزن منه في ذلك الوقت، ثم خرج علينا في الجمعة الأخرى، فقال: إذا رأيتم الصوفي يتكلم علىٰ الناس فاعلموا أنه فارغ، وقال ابن عطاء في قوله تعالىٰ: ﴿وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا﴾ [النِّساء: ٦٣]، قال علىٰ مقدار فهومهم ومبلغ عقولهم، وقال غيره في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾﴾ أي لو نطق بالمواجيد علىٰ أهل الرسوم يدل عليه قوله: ﴿بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المَائدة: ٦٧].

ولم يقل بلغ ما تعرّفنا به إلي" ولم يقل بلغ ما تعرّفنا به إليك رأى الحسين المغازلي رويم بن محمد وهو يتكلم علىٰ الناس في الفقر فوقف عليه وقال:

وما تصنع بالسيف إذا لم تك قتّالًا
ألا ابتعت بما حليت هذا السيف خلخالًا

عبر بعبارته عن حال ليست هو فيها، قال بعض الكبار: من تكلم عن غير معناه فقد تحمر في دعواه قال الله تعالىٰ: ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ [الجُمُعَة: ٥].

قوله: فاعلموا أنه فارغ.

يعني فارغ من معنى ما يقول أو فارغ من الحق لأنه مشغول بالقول والخلق، قوله أي لو تطق بالمواجيد إلىٰ أهل الرسوم وهم قائمون بأفعالهم وصفاتهم، والمواجيد لأهل الحقيقة، فلو نطق بالمواجيد إلىٰ أهل الرسوم فوضع الحكمة في غير أهلها فيكون ظالمًا.

* * *

الباب السادس والستون
في توقِّي القوم ومجاهداتهم

ورث حارث المحاسبي من أبيه أكثر من ثلاثين ألف دينار فلم يأخذ منه شيئًا وقال إنه كان يرى القدر.

قال أبو عثمان: كنا في دار أبي بكر بن أبي حنيفة مع أبي حفص فجرى ذكر صديق غائب عنا، فقال أبو حفص: لو كان عندنا كاغد كتبنا إليه، فقلت: ههنا كاغد، وكان أبو بكر قد خرج إلىٰ السوق فقال أبو حفص: لعل أبا بكر قد مات ولم نعلم وصار الكاغد للورثة فترك الكتاب، وقال أبو عثمان: كنت عند أبي حفص وبين يديه زبيب فأخذت زبيبة ووضعتها في فمي فأخذ بحلقي وقال: يا خائن تأكل زبيبتي فقلت لثقتي بزهادتك في الدنيا وعلمي بإيثارك أخذت الزبيبة فقال: يا جاهل تثق بقلب لا يملكه صاحبه، سمعت كثيرًا من مشايخنا يقولون: كان الشيوخ يهجرون الفقير لثلاث إذا حج عن غيره بمال، وإذا أتى خراسان وإذا دخل اليمن فقالوا: من أتى خراسان لم يأته إلَّا للرفق، وليس بها مباح فيطيب مطعمه، وأما اليمن ففيه طرق إلىٰ الفسق كثيرة وكان أبو المغيث لا يستند ولا ينام علىٰ جنبه وكان يقوم الليل وإذا غلبته عينه وضع جبينه علىٰ ركبتيه فيغفو غفوة، فقيل له: أرفق بنفسك، فقال: والله ما رفق الرفيق بي رفقًا فرحت به، أما سمعت سيد المرسلين يقول: «**أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصديقون ثم الأمثل فالأمثل**»، قالوا: إن أبا عمرو الزجاجي أقام بمكة سنين كثيرة لم يحدث في الحرم، كان

قوله: في توقِّي القوم ومجاهداتهم

ورث حارث المحاسبي من أبيه أكثر من ثلاثين ألف دينار فلم يأخذ منه شيئًا وقال: إنه كان يرى القدر، أي أن أبي كان قدريًا وأنا سُنّي، والقدري عندي كافر، والسُنّي مسلم، ولا يتوارث بين المسلم والكافر.

قوله: فيغفو غفوة.

يقال أغفيت إغفاء، نمت، قال السكيت ولا تقل غفوت، قوله: والله ما رفق بي

يخرج من الحرم للحدث ثم يعود إليه وهو على الطهارة، قال سمعت فارسًا يقول: كان أبو عبد الله المعروف بشكتل لا يكلم الناس وكان يأوي إلى الخرابات في سواد الكوفة، وكان لا يأكل إلَّا المباح والقمامات، فلقيته يومًا فتعلقت به وقلت: سألتك بالله إلَّا أخبرتني ما الذي منعك عن الكلام، فقال: يا هذا الكون توهم في الحقيقة ولا تصح العبارة عما لا حقيقة له والحق تقصر عنه الأقوال دونه، فما وجه الكلام وتركني ومرّ قال وسمعته يقول: سمعت الحسين المغازلي يقول: رأيت عبد الله القشاع ليلة قائمًا على شط دجلة وهو يقول يا سيدي عطشان يا سيدي إني عطشان حتى أصبح، فلما أصبح قال يا ويلتي تبيح لي شيئًا وتحول بيني وبينه، وتحظر عليّ شيئًا وتخلي بيني وبينه، فأيش أصنع؟ ورجع ولم يشرب منه وسمعته يقول سمعت بعض الفقراء قال: كنت سنة الهبير مع الناس فانفلت ثم رجعت فكنت أطوف بين الجرحى.

رفقًا، أي فكيف أرفق بنفسي، قوله: والقمامات جمع قمامة بضم الميم وهي الكُناسة بضم الكاف، قوله: يا هذا، يشير به إلى السائل فقال: الكون توهم فيما الحقيقة يعني الكون وهم في عين الحقيقة، والوهم لا حقيقة له ولا تصح العبارة عندهم عما لا حقيقة له مع مشاهدة الحق لاقتضاء العبارة عن شيء لا حقيقة له مع مشاهدة الحق، التسفل من الأعلى إلى الأدنى، والحق الذي الحقيقة صفته يقصر الأقوال عليه فلا تصح العبارة عنه.

قوله: يا ويلي تبيح لي شيئًا وتحول بيني وبينه، وتحظر عليّ شيئًا وتخلي بيني وبينه، فأي شيء أصنع ورجع ولم يشرب يحتمل أن هذا الكلام منه في حال المشاهدة، فإن غلبات الوقت تشغله بحيث لا يجد فراغ شرب الماء، ففي حال المشاهدة لا يقدر على شربه فيصير كأنه ممنوع منه والحظر هو المنع وإن كان مباحًا له شرعًا فيبيح لي شيئًا بحكم الشرع ويحول بيني وبينه بحكم الشرع فغلب المنع على الإباحة إلى المشاهدة ويحظر على شيئًا بحكم المشاهدة ويخلي بيني وبينه بحكم الشرع فغلب المنع على الإباحة بحكم المشاهدة فلم تشرب.

قوله: كنت سنة الهبير مع الناس.

وسنة الهبير سنة بعد الهجرة بثلاثمائة وخمس عشرة سنة كانت القرامطة فيها قتلوا الحجاج وأغاروهم ومُنع طريق الحج ستَّ عشرة سنة يقول: فانفلت تلك السنة منهم، ثم رجعت إلى القافلة شفقة للإسلام لأروي عطشاهم وانظر كيف يكون حالهم.

قال: فرأيت أبا محمد الجريري وكان قد نيف علىٰ المائة فقلت يا شيخ ألا تدعو فيكشف ما ترى؟ قال: قد فعلت قال: إني أفعل ما أشاء، فأعدت عليه، فقال: يا أخي ليس هذا وقت الدعاء، هذا وقت الرضا والتسليم فقلت ألك حاجة؟ فقال: أنا عطشان فجئته بماء فأخذه وأراد أن يشرب فنظر إليَّ فقال: هؤلاء عطاش وأنا أشرب لا هذا شره فردّه عليَّ ومات من ساعته، قال: وسمعته يقول: سمعت بعض أصحاب الجريري يقول: مكثت عشرين سنة لا يخطر لي ذكر الطعام حتى يحضر ومكثت عشرين سنة أصلي الفجر علىٰ طهور العشاء الآخرة، ومكثت عشرين سنة لا أعتقد مع الله عقدًا مخافه أن يكذبني علىٰ لساني، ....

قوله: وقد نيف علىٰ المائة.

أي زاد سنة علىٰ مائة سنة.

قوله: مكثت عشرين سنة لا يخطر لي ذكر الطعام.

حتى يحضر لأن الطعام نصيب النفس، فإذا لم يتذكر النفس لم يتذكر الطعام، وإذا حضر لم يرد لئلا يعترض علىٰ الحق، ويحتمل أن يكون ذلك لئلا يتهم الحق في الحالتين أعني عدم الحظور وعدم الرد عند الحضور وأيضًا كان علم أنه لما يعلم الله تعالىٰ صحة سره واستقامته لا يضيعه، فلهذا لم يخطر فلما حضر علم أنه أحضره الله تعالىٰ فلم يرده.

قوله: مكثت عشرين سنة لا أعتقد مع الله عقدًا مخافة أن يكذبني علىٰ لساني.

يعني إن اعتقدت مع الله عقدًا بأن لا أدخل في قلبي غيره خفت من أن أدخل غيره في قلبي يكذبني الله في تلك الدعوى، فلأجل ذلك ما اعتقدت مع الله عقدًا وإنما قال لا أعتقد مع الله عقدًا ولم يقل لم يخطر بقلبي غير الله، لأن العبد لا يكون مؤاخذًا بالخاطر السوء ما لم يعمل به أو لم يتكلم بل يكون مؤاخذًا بالاعتقاد السوء فما خطر بقلبه من غير الحق نفاه ولم يعتقده تحقيقًا لدعوى المحبة ولا يكون كذابًا، وقال: ومكنت عشرين سنة لا يسمع لساني إلَّا من قلبي يعني الذي لم يكن بقلبي لم أجره علىٰ

ومكثت عشرين سنة لا يسمع لساني إلَّا من قلبي، ثم حالت الحال فمكثت عشرين سنة لا يسمع قلبي إلَّا من لساني.

معنى قوله لا يسمع لساني إلَّا من قلبي، أي لا أقول إلَّا من حقيقة ما أنا عليه، وقوله لا يسمع قلبي إلَّا من لساني، أي حفظ علىٰ لساني لما قال «**فبي يسمع وبي يبصر وبي ينطق**».

قال: وسمعت بعض مشايخنا يقول: سمعت محمد بن سعدان يقول: خدمت أبا المغيث عشرين سنة فما رأيته أسف علىٰ شيء فاته، أو طلب شيئًا فقده، وقيل إن أبا السوداء وقف ستين وقفة، وجعفر بن محمد الخلدي وقف خمسين وقفة وكان بعض المشايخ وأكثر ظني أنه أبو حمزة الخراساني حج عشر حجج عن النبي ﷺ، وحج عن العشرة من أصحاب النبي ﷺ عشر حجج، ثم عن نفسه حجة يتوسل بتلك الحجج إلىٰ الله في قبول حجته.

لساني لئلا يخالف ظاهري باطني فاتصف بالنفاق وقال: ومكنت عشرين سنة لا يسمع قلبي إلَّا من لساني، يحتمل أن يكون معناه أن قلبي كان مستوفى للحق بحيث لا يكون له خبر عن أحد عندي، ويحتمل أن يكون معناه صار ظاهري موافقًا لباطني عشرين سنة، ثم تمكنت الموافقة للظاهر فصار باطني موافقًا لظاهري عشرين سنة فتساويا في موافقة الحق واتحدا فيها فصار لساني قلبًا وقلبي لسانًا.



الباب السابع والستون
في لطائف الله للقوم وتنبيهه إياهم بالهاتف

قال أبو سعيد الخراز: بينا أنا عشية عرفة قطعني قرب الله عز وجل عن سؤال الله، ثم نازعتني نفسي بأن أسأل الله تعالىٰ فسمعت هاتفًا يقول أبعد وجود الله تسأل الله غير الله.

قال أبو حمزة الخراساني: حججت سنة من السنين فكنت أمشي فوقعت في بئر فنازعتني نفسي بأن أستغيث، فقلت: لا والله لا أستغيث فما استتممت هذا الخاطر حتى مرّ برأس البئر رجلان، فقال أحدهما للآخر: تعال حتى نطم رأس هذا البئر من الطريق فأتوا بقصب وبارية وهممت أن أصيح ثم قلت يا من هو أقرب إليَّ منهما وسكت حتى طموا ومضوا، فإذا أنا بشيء قد دلى برجليه في البئر، وهو يقول تعلق بي فتعلقت به فإذا هو سبع وإذا هاتف به يهتف بي ويقول

قوله: في لطائف الله عزَّ وجلَّ للقوم وتنبيهه إياهم بالهاتف

قال أبو سعيد الخراز: بينا أنا عشية عرفة فقطعني قرب الله عن سؤال الله، أي لأجل نفسي، يحتمل أن لم يبق في تلك الحالة بين سره وبين الحق لشيء من الكون سبيل فكيف يكون للنفس سبيل ليسأل عنها، ويحتمل أن يكون معناه أن ذلك القرب قطعني عن السؤال لشغل سري بالحق فلم أتذكر السؤال أو أخرس لساني هيبة القرب فلم أطق السؤال ولكن نازعتني نفسي بأن قال إن وجد سرك ما أراد فلم أجد ما أريد لأني أطمع في الرحمة وأخاف من العذاب فاسأل لي، وهذا يدل علىٰ أن الكبار في بلاء النفس فقال قصدت السؤال لا للإعراض عن الحق، ولكن للشفقة علىٰ النفس، فإن الأنبياء عليهم السلام مع جلالة قدرهم وكبر منزلتهم عند الله يسألون للخلق والنفس ولا محالة أنهم أقرب عند الله مني، فإذا قصدت السؤال سمعت هاتفًا يقول بعد أن وجدت الله أتسأل وتريد غيره.

لي: يا أبا حمزة هذا حسن نجيناك من التلف في البئر بالسبع.

قال: سمعت بعض أصحابنا يقول: قال أبو الوليد قدم إليَّ أصحابنا يومًا لبنًا، فقلت ذا يضرني، فلما كان يوم من الأيام دعوت الله تعالىٰ فقلت: اللهم اغفر لي فإنك تعلم أني ما أشركت بك طرفة عين، فسمعت هاتفًا يهتف بي ويقول ولا ليلة اللبن، قال أبو سعيد الخراز: كنت في البادية فنالني جوع شديد فطالبتني نفسي بأن أسأل الله صبرًا، فلما هممت بذلك سمعت هاتفًا يقول:

ويـزعـم أنـه مـنَّـا قـريـب وأنـا لا نـضـيع من أتـانـا
ويسألنا القوي عجزًا وضعفًا كـأنـا لا نـراه ولا يـرانـا

ويشهد لصحة حال الهاتف ما حدثنا محمد بن محمد بن محمود قال: حدثنا نصر بن زكريا حدثنا عمار بن الحسن حدثنا سلمة بن الفضل حدثنا محمد ابن إسحاق عن يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه، عن عائشة قالت: لما أرادوا غسل النبي ﷺ اختلفوا فيه فقالوا: والله ما ندري أنجرد رسول الله من ثيابه كما نجرد موتانا أو نغسله وعليه ثيابه، قالت: فلما اختلفوا ألقى الله عليهم السِّنَة حتى ما بقي منهم أحد إلَّا وذقنه في صدره، ثم كلمهم متكلم من ناحية البيت لا يدرون من هو أن اغسلوا النبي وعليه ثيابه.

قوله:

ويسألنا القوي عجزًا وضعفًا كـأنـا لا نـراه ولا يـرانـا

يعني إذ لنا القوى علىٰ الصبر، ونقدم العجز والضعف أنا لا نراه ولا يرانا يعني إذا حرفت محجوبًا بسؤال الطعام لأنه غيرنا فبسؤال الصبر أيضًا تصير محجوبًا عنا لأن الصبر غيرنا، فلو كان دعواك الأولى صحيحة فما سؤال الصبر، ولو كان سؤال الصبر صحيحًا فسؤال الطعام أيضًا صحيح.

❊ ❊ ❊

الباب الثامن والستون
تنبيهه إياهم بالفراسات

قال أبو العباس بن المهتدي: كنت في البادية فرأيت رجلًا يمشي بين يديَّ حافي القدم حاسر الرأس ليس معه ركوة، فقلت في نفسي: كيف يصلي هذا الرجل؟ ما لهذا طهارة ولا صلاة، قال: فالتفت إليَّ فقال: ﴿يَعْلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ﴾ [البَقَرَة: ٢٣٥]، قال: فسقطت مغشيًا عليَّ، قال: فلما أفقت استغفرت الله من تلك الرؤية التي نظرت بها إليه فبينا أنا أمشي في بعض الطريق فإذا هو بين يدي، فلما رأيته هبته وتوقفت، فالتفت إليَّ ثم قرأ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الشّورى: ٢٥]، قال: ثم غاب فما رأيته بعد ذلك أو كما قال، سمعت أبا الحسن الفارسي يقول: قال لي أبو الحسن المزين: دخلت البادية وحدي علىٰ التجريد، فلما بلغت العمق قعدت علىٰ شفير البركة فحدثتني نفسي بقطعها البادية علىٰ التجريد، ودخلها شيء من العجب فإذا أنا بالكتاني - أو غيره الشك مني - من وراء البركة فناداني بإحجام إلىٰ كم تحدث نفسك بالأباطيل.

يروى أنه قال له: يا حجام احفظ قلبك ولا تحدث نفسك بالأباطيل وقال ذو النون: رأيت فتى عليه أطمار رثة فتقذرته نفسي وشهد له قلبي بالولاية، ....

قوله: تنبيهه إياهم بالفراسات

صحة الفراسة دليل صحة الإيمان فمن كان إيمانه أصح وأحق كانت فراسته أصح وأقوم.

قوله: فتى عليه اطمار رثة.

الأطمار جمع الطمر بكسر الطاء وسكون الميم وهو الثوب الخلِق والرث، الشيء البالي والرثة، أي البالية أو هي في معنى الخلِق فيكون تأكيدًا للأطمار في المعنى.

فبقيت في نفسي وقلبي أتفكر، فاطلع الفتى علىٰ ما في سري فنظر إليَّ فقال: يا ذا النون لا تبصرني لكي ترى خلقي، وإنما الدر داخل الصدف.

ثم ولى وهو يقول:

تهت علىٰ أهل ذا الزمان فما ... أرفع منهم لواحد رأسا

ذاك لأني فتى أخو فطن ... أعرف نفسي وأعرف الناسا

فصرت حُرًا مملكًا ملكًا ... مدرعًا بالقنوع لباسا

ويشهد لصحة الفراسة ما حدثنا أحمد بن علي قال: حدثنا ثواب بن يزيد الموصلي حدثنا إبراهيم بن الهيثم البلدي حدثنا أبو صالح كاتب الليث حدثنا معاوية بن صالح عن راشد بن سعيد عن أبي أمامة الباهلي قال: قال رسول الله ﷺ: **«اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله»**[(١)].

قوله: فبقيت في قلبي ونفسي اتفكر.

وحالهما كذلك وكل ما يقبله القلب ترده النفس، وكل ما يرده القلب تقبله النفس، والمؤمن دائمًا يكون بينهما، فإن لم يدركه توفيق الحق فيميل إلىٰ النفس فيهلك ولو أدركته عصمة الحق يميل إلىٰ القلب فيجد صراطًا مستقيمًا فيقول بقيت بينهما وأتفكر حتى أعلم المستقيم من المعوج، فإن كان ما قالته النفس فاجتنبت عنه، وإن كان ما قاله القلب فأتقرب إليه **فاطلع الفتى** في هذا البين **علىٰ سري، فنظر إليَّ وقال: يا ذا النون لا تبصرني لكي ترى خَلِقي**، أي ثوبي الخلق **فإنما الدر داخل الصدف**.

قوله: تهت.

يقال تاه أي تكبر، والمراد به ههنا الاستغناء وعدم الاحتياج إلىٰ أهل زمانه.

قوله: مملكًا أي لله تعالىٰ ملكًا أي مستغنيًا عما سواه مدرعًا يقال: أدرع الرجل لبس الدرع، القنوع بالفتح القناعة وهي الرضا بالقسمة.

❊ ❊ ❊

(١) أخرجه: الترمذي في سننه (٣١٢٧)، وأبو نعيم في الحلية (٤/ ٩٤)، والعجلوني في كشف الخفا (١/ ٤٢)، والسيوطي في الدر المنثور (٤/ ١٠٣).

الباب التاسع والستون
تنبيهه إياهم بالخواطر

قال أبو بكر بن مجاهد المقرئ: قدم أبو عمرو بن العلاء يومًا ليصلي بالناس وما كان يؤم فيقدم اضطرارًا، ، فلما تقدم قال للناس استووا، فغشي عليه فلم يفق إلَّا بالغد، فقيل له في ذلك فقال: وقت ما قلت لكم استووا وقع في قلبي خاطر من الله تعالىٰ كأنه يقول لي يا عبدي هل استويت لي قط طرفة عين حتى تقول لخلقي استووا؟

قال الجنيد: مرضت مرضة فسألت الله أن يعافيني، فقال لي في سري لا تدخل بيني وبين نفسك، قال سمعت بعض أصحابنا يقول سمعت محمد بن سعدان يقول: سمعت بعض الكبراء يقول: ربما أغفو غفوة فأنادي أتنام عني إن نمت عني لأضربنك بالسياط.

قوله: تنبيهه إياهم بالخواطر

الخاطر ما يخطر بالقلب من غير قصد وعند هذه الطائفة الخاطر ما يبدو من الحق في القلب، وسمى إلهامًا إن لم يكن له سبب معين، وإن كان له سبب معين وهو الملك سمي وحيًا وما يبدو من الشيطان، فهو الوسوسة وما يبدو من النفس فهو الهاجس، وقيل: ما يبدو من الملك فهو الإلهام، وقال بعضهم: الخاطر ما يرد علىٰ القلب أعم من أن يكون ربانيًّا أو ملكيًّا أو نفسانيًّا أو شيطانيًّا.

قال الكبار: إنما يفرّق بين الخاطر والوسوسة من كان مأكوله حلالًا، فأما من يأكل حرامًا فله الوسوسة دون الخاطر ومن يأكل الشبهه فامتزج خاطره مع الوسوسة ومن يأكل الحلال كله يكون خواطره مستقيمة صحيحة ويوسوسه الشيطان ولكن يفرق بين الخاطر والوسوسة فيعمل بالخاطر ويترك الوسوسة.

❊ ❊ ❊

الباب السبعون
تنبيهه إياهم في الرؤيا ولطائفها

قال سمعت أبا بكر محمد بن غالب يقول: سمعت محمد بن خفيف يقول: سمعت أبا بكر محمد بن علي الكتاني يقول: رأيت رسول الله ﷺ في عادتي فكانت العادة قد جرت له أنه كان يرى النبي ﷺ كل ليلة اثنين وخميس فيسأله مسائل فيجيبه عنها.

قال فرأيته قد أقبل عليه ومعه أربعة نفر، فقال لي يا أبا بكر أتعرف من هذا؟ قلت: نعم هو أبو بكر، ثم قال لي أتعرف هذا؟ قلت: نعم هو عمر، ثم قال لي: أتعرف هذا؟ قلت نعم: هو عثمان، ثم قال لي أتعرف هذا الرابع؟ فتوقفت ولم أجب، فأعاد عليَّ ثانيًا، فتوقفت، فأعاد عليَّ ثالثًا فتوقفت وكان في قلبي منه غبرة، قال: فجمع كفه وأشار بها إليَّ ثم بسطها وضرب بها صدري وقال لي: يا أبا بكر قل هذا علي بن أبي طالب، فقلت يا رسول الله هذا علي بن أبي طالب، قال فآخى عليه الصلاة والسلام بيني وبين علي رضي الله عنه، قال: ثم أخذ علي رضي الله عنه بيدي وقال لي: يا أبا بكر قم حتى تخرج إلىٰ الصفا، فخرجت معه إلىٰ الصفا وكنت نائمًا في حجرتي، فاستيقظت فإذا أنا علىٰ الصفا، قال: سمعت منصور ابن عبد الله قال: سمعت أبا عبد الله بن الجلاد يقول: دخلت مدينة رسول الله ﷺ وبي شيء من الفاقة، فتقدمت إلىٰ القبر وسلمت علىٰ النبي ﷺ وعلى ضجيعيه أبي

قوله: تنبيهه إياهم في الرؤيا ولطائفها

قوله: وكان في قلبي منه غبرة، أي غبار، لا غبار العداوة ولكن وقع في خاطره أن الفتوة إنما ذهب بها الناس كلهم من أهل بيت رسول الله ﷺ فما[1] كان لو ترك علي رضي الله عنه الولاية لئلا يراق الدما التي أراقوها فما[2] رضي النبي عليه الصلاة والسلام بهذا الخاطر منه لأن الحق مع علي رضي الله عنه ولا يترك الحق لغيره كما لا يجوز أخذه من صاحبه.

---

(١) أسفل منها (استفهامية).

(٢) أسفل منها (نفي).

بكر وعمر رضي الله عنهما، ثم قلت يا رسول الله بي فاقة وأنا ضيفك الليلة، ثم تنحيت ونمت بين القبر والمنبر، فإذا أنا بالنبي عليه الصلاة والسلام جاءني ودفع إليَّ رغيفًا، فأكلت نصفه فانتبهت فإذا في يدي نصف الرغيف، قال يوسف بن الحسين: كان عندنا شاب من أهل الإرادة أقبل علىٰ الحديث وقصر في قراءة القرآن، فأتى في منامه فقيل له: إن لم تكن بي جافيًا فلم هجرت كتابي، أما تدبرت ما فيه من لطيف خطابي يشهد لصحة الرؤيا ما حدثنا علي بن الحسن بن أحمد السرخسي إمام جامعها، حدثنا أبو الوليد محمد بن إدريس السلمي، حدثنا سويد، حدثنا محمد بن عمرو بن صالح بن مسعود الكلاعي عن الحسن البصري قال: دخلت مسجد البصرة فإذا رهط من أصحابنا جلوس، فجلست إليهم فإذا هم يذكرون رجلًا يغتابونه، فنهيتهم عن ذكره وحدثتهم بأحاديث في الغيبة بلغتني عن رسول الله ﷺ وعن عيسى ابن مريم عليه السلام، فأمسك القوم وأخذوا في حديث آخر، ثم عرض ذكر ذلك الرجل فتناولوه وتناولته معهم، فانصرفوا إلىٰ رحالهم وانصرفت إلىٰ رحلي، فنمت فأتاني آتٍ في منامي أسود في يده طبق من خلاف وعليه قطعة من لحم خنزير، فقال لي: كل قلت: لا آكل هذا لحم خنزير هذا حرام، قال لتأكله، فأبيت عليه، ففك لحييّ ووضعها في فمي فجعلت ألوكها وهو قائم بين يدي، فجعلت أخاف أن ألقيها وأكره أن (استرطها)[1] فاستيقظت علىٰ تلك الحال، فوالله لقد لبثت ثلاثين يوما وثلاثين ليلة ما ينفعني طعام أطعمه ولا شراب أشربه إلَّا وجدت طعمها في فمي وريحها في منخري.

قوله: يشهد بصحة ذلك.

أي بصحة الرؤيا.

يقول: وأكره أن استرطها.

أي أن ابتلعها من الاستراط بالسين المهملة.

❊ ❊ ❊

---

(١) استرطها أي أبتلعها.

الباب الحادي والسبعون
لطائف الحق بهم في غيرته عليهم

دخل جماعة علىٰ رابعة يعودونها من شكوى فقالوا: ما حالك؟ قالت: والله ما أعرف لعلتي سببًا، عرضت عليَّ الجنة، فملت بقلبي إليها، فأحسب أن مولاي غار عليَّ فعاتبني فله العتبى.

قال الجنيد: دخلت علىٰ سري السقطي فرأيت عنده خزف كوز مكسور، فقلت: ما هذا؟ قال: جاءتني الصبيه البارحة بكوز فيه ماء فقالت لي: يا أبت هذا الكوز معلق ههنا فإذا برد فاشربه فإنها ليلة عتمة، فغلبتني عيني فرأيت جارية من أحسن الجواري دخلت عليّ، فقلت لمن أنت؟ قالت لمن لا يشرب الماء المبرد في الكيزان وضربت بيدها إلىٰ الكوز فانكسر وهو الذي ترى فما زال الخزف

قوله: لطائف الحق بهم في غيرته عليهم

معنى غيرة الحق علىٰ العبد هو أن يحفظه من أن يقع في شيء تلوث به أو يصحب مع أحد يصير به معيوبًا.

قولها: غار عليّ فعاتبني فله العتبى.

العتاب مخاطبة الإدلال ومذاكرة الموجدة، أي الغضب تقول عاتبته معاتبة ويقال: ويبقى الود ما بقي العتاب، وأعتبني فلان إذا عاد إلىٰ مسرتي راجعًا عن الإساءة، والاسم منه العتبى، وفي المثل: لك العتبى بأن لا رضيت فإذا عاتبها الله بميل قلبها والجنة غير الله، فلذا تستحق العتاب بكل ما هو غير الله.

قوله: فقلت لمن أنت؟ فقالت: لمن لا يشرب الماء المبرد في الكيزان وضربت بيدها إلىٰ الكوز المبرد فانكسر.

فإذا غارت الحور عليه بشرب الماء المبرد ولم ترض به فكيف يرضى الحق بصحبته مع شهوة النفس ومرادها وإذا لم يكن له الحور لشربة ماء مبرد، فعلم أنه لا

مكانه لم يحركه حتى ستره الغبار.

قال المزين: أقمت في بعض المنازل بالبادية سبعة أيام لم أطعم شيئًا، فأضافني رجل في منزله فقدم إليَّ تمرًا وخبزًا فلم أقدر علىٰ أكله، فلما كان الليل اشتهيته فأخذت نواة أعالج بها فتح فمي، فضربت النواه سني فقالت صبية من البيت: يا أبى كم يأكل ضيفنا الليلة فقلت: يا سيدي جوع سبعة أيام ثم تنغص عليّ، وعزتك لا أذوقنه.

قال أحمد بن السمين: كنت أمشي في طريق مكة فإذا أنا برجل يصيح أغثني يا رجل الله، قلت: ما لك ما لك، قال خذ مني هذه الدراهم فإني ما أقدر أن أذكر الله وهي معي فأخذتها منه فصاح لبيك اللهم لبيك، وكانت أربعة عشر درهمًا، قيل لأبي الخير الأقطع ما كان سبب قطع يدك؟ قال: كنت في جبل لكام - أو لبنان - ومعي رفيق لي، فجاء رجل من بعض السلاطين ومعه دنانير يفرّقها فناولني منها دينارًا فمددت إليه ظهر كفي فوضع عليها دينارًا فقلبته يدي في حجر رفيقي وقمت، فلما كان بعد ساعة إذا أنا بأصحاب السلطان يطلبون لصوصًا، فأخذوني فقطعوا يدي، يشهد لهذا المعنى ما حدثنا أحمد بن حيان التميمي قال: أخبرنا أبو إسحاق إبراهيم بن إسماعيل حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا يعقوب ابن عبد الرحمن الأسكندراني عن عمرو بن أبي عمرو عن عاصم بن عمر ابن قتادة عن محمود بن لبيد أن النبي ﷺ قال: «**إن الله تعالىٰ ليحمي عبده الدنيا وهو يحبه كما تحمون مرضاكم**»[1].

يكون له الحق مع صحبة الخلق والنفس والدنيا، وهذا هو غيرة الحق عليه، وكذا قطع يد أبي الخير الأقطع لغيرة الحق عليه بمد يده إلىٰ غيره، ويدل الحديث الذي ذكر في المتن في هذا الموضع علىٰ أن غيرة الله هو الحماية لعباده.

***

---

(١) أخرجه: المنذري في الترغيب والترهيب (٤/ ١٣٢)، وأحمد في مسنده (٥/ ٤٢٧)، والزبيدي في الإتحاف (٨/ ٤٣٧).

الباب الثاني والسبعون
قوة لطائفه بهم فيما يحملهم

سمعت فارسًا يقول سمعت أبا الحسن العلوي تلميذ إبراهيم الخواص يقول: رأيت الخواص بالدينور في جامعها وهو جالس في وسطه والثلج يقع عليه، فأدركني الإشفاق عليه، فقلت له: لو تحولت إلىٰ الكُنّ؟ فقال: لا ثم أنشأ يقول:

لقد وضح الطريق إليك قصدًا فما أحد أرادك يستدل
فإن ورد الشتاء ففيك صيف وإن ورد المصيف ففيك ظل

ثمَّ قال لي هات يدك فناولته يدي فأدخلها تحت خرقته فإذا هو يتصبب عرقًا، قال: سمعت أبا الحسن الفارسي يقول: كنت في بعض الوادي فأصابني عطش شديد حتى تعبت عن المشي من الضعف، وكنت سمعت أن العطشان تقطر عيناه قبل أن يموت، قال: فقعدت وأنا أنتظر تقطر عيني إذا سمعت حسًّا،

قوله: قوة لطائفه بهم فيما يحملهم

معنى حملهم هو أن يحدث فيهم لطيفة يحملون بها أحمال محنة الوقت ويغيبهم لذة مشاهدة تلك اللطيفة عن إحساس الألم كقصه صواحبات يوسف عليه السلام قوله: لقد وضح السبيل إليك قصدًا فما خلق إدراك يستدل، فإن ورد الشتاء ففيك صيف وإن ورد الصيف فمنك ظل.

معناه أن الطريق انكشف إليك وظهر متوسطًا مستقميًا من أرادك لا يحتاج إلىٰ دليل، وهذا هو الخبر عن مقام المشاهدة، لأن العبد ما دام في الحجب والغيبة يحتاج إلىٰ دليل يوصله إلىٰ المقصود، فإذا وصل إلىٰ المقصود فلا يحتاج إلىٰ الدليل، بل الدليل عند الوصول إلىٰ المقصود حجاب وقال في بيت آخر: إذا جاء الشتاء فأنت لي صيف وإذا جاء الصيف فأنت ظل.

فنظرت فإذا هي حية بيضاء كأنها الفضة الصافية تبرق وقد قصدتني مسرعة، فهالتني فقمت فزعًا ودخلتني قوة من الفزع، فجعلت أمشي علىٰ ضعف وهي خلفي تنفث، فلم أزل أمشي وهي خلفي حتى بلغت ماء وسكن الحس، فالتفت فلم أرها وشربت الماء فنجوت قال: وربما يكون بي غم أو علة فأراها في النوم فتكون بشارة لي بفرج غمي وزوال علتي.

يريد أنه لا يكون له خبر من ألم برودة الشتاء وحرارة الصيف بمشاهدة المحبوب.

❊ ❊ ❊



الباب الثالث والسبعون
لطائفه بهم في الموت وبعده

قال أبو الحسن المعروف بالقزاز: كنا في الفج فأتانا شاب حسن الوجه عليه طمران، فسلم علينا وقال: ههنا موضع أموت فيه نظيف؟ قال: فتعجبنا وقلنا له نعم، فدللناه علىٰ عين بالقرب منا فذهب فتوضأ وصلى ما شاء الله ثم انتظرناه ساعة فلم يَجِئْنَا، فأتيناه فإذا هو ميت.

قال أصحاب سهل بن عبد الله: كان سهل علىٰ التخت يُغسّل وسبابته من يده اليمنى منتصبة يشير بها.

قال أبو عمرو الأصطخري: رأيت أبا تراب النخشبي في البادية قائمًا ميتًا لا يمسكه شيء.

قال إبراهيم بن شيبان وافاني بعض المريدين فاعتل عندي أيامًا، فمات فلما أن أدخل في قبره أردت أن أكشف خده وأضعه علىٰ التراب تذللًا لعل الله يرحمه، فتبسم في وجهي وقال لي: تذللني بين يدي من يدللني، قال قلت: لا يا حبيبي، أحياة بعد الموت؟ فأجاب: أما علمت أن أحباءه لا يموتون ولكن ينقلون من دار إلىٰ دار.

وقال إبراهيم بن شيبان أيضًا: كان عندي في القرية شاب من أهلها متنسكًا ملازمًا للمسجد وكنت مشغوفًا به فاعتل فأتيت في بعض الجمعات البلد للصلاة، وكنت إذا جئت البلد أقيم عند إخواني بقية يومي وليلتي، فوقع عليّ الانزعاج بعد العصر، فأتيت القرية بعد العتمة، فسألت عن الفتى قالوا نظنه متوجعًا فأتيته وسلمت عليه وصافحته فخرجت روحه مع المصافحة، فتوليت غسله فغلطت في

قوله: لطائفه بهم في الموت وبعده

....

صب الماء أردت أن أصب علىٰ يمينه فصببت علىٰ يساره ويده في يدي، فانتزع يده من يدي حتى ذهب ما كان عليه من السدر فغشي على من كان معي ثم فتح عينيه فيّ ففزعت وصليت عليه ودخلت القبر أواريه وكشفت عن وجهه ففتح عينيه وتبسم حتى بدت نواجذه وثناياه فسوينا عليه وحثينا عليه التراب.

يشهد لصحة ذلك ما حدثنا أبو الحسن علي بن إسماعيل الفارسي حدثنا نصر بن أحمد البغدادي، حدثنا الوليد بن شجاع السكوني عن خالد عن نافع الأشعري عن حفص بن يزيد بن مسعود بن خراش أن الربيع بن خراش كان حلف أن لا يضحك حتى يعلم أفي الجنة هو أم في النار، فمكث لا يراه أحد يضحك حتى مات فيما يرون، فأغمضوه وسجوه وبعثوا إلىٰ قبره ليُحفر وبعثوا إلىٰ كفنه فأتى به فقال ربعي بن خراش رحم الله أخي كان أقومنا في الليل التمام وأصومنا في اليوم الحار، قال فإنهم لجلوس حوله إذ طرح الثوب عن وجهه فاستقبلهم وهو يضحك، فقال له أخوه ربعي يا أخي أبعد الموت حياة، قال نعم إني لقيت ربي وإنه تلقاني بروح وريحان ورب غير غضبان، وإنه قد كساني سندسًا وحريرًا، ألا وإني وجدت الأمر أيسر مما ترون فلا تغتروا فإن خليلي محمدًا ﷺ ينتظرني ليصلي عليّ الوحي الوحي ثم الوحي، ثم خرجت نفسه في آخر ذلك كأنها حصاة قذفت في ماء، فبلغ ذلك عائشة أم المؤمنين فقالت: أخو بني عبس رحمه الله سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يتكلم رجل من أمتي بعد الموت من خير التابعين**»[1].

قوله: ألا إني وجدت الأمر أيسر مما ترون.

إشارة إلىٰ كرم المولى.

قوله: ولا تغتروا.

تخويف من عدل الله تعالىٰ ليكونوا علىٰ خوف ورجاء ولا يأمنون ولا ييأسون.

❊ ❊ ❊

(١) أخرجه: البيهقي في دلائل النبوة (٦/ ٤٥٥)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٤/ ٣٦٨).

الباب الرابع والسبعون
من لطائف ما جرى عليهم

قال أبو بكر القحطبي: كنت في مجلس سمنون فوقف عليه رجل فسأله عن المحبة فقال: لا أعرف اليوم من أتكلم عليه يعلم هذه المسألة، فسقط علىٰ رأسه طائر فوقع علىٰ ركبته، فقال: إن كان فهذا، ثم جعل يقول - ويشير إلىٰ الطير - بلغ من أحوال القوم كذا وكذا، فشاهدوا كذا وكذا، وكانوا في حال كذا وكذا، فلم يزل يتكلم عليه حتى سقط الطير عن ركبته ميتًا.

قال أبو بكر بن مجاهد سمعت أحمد بن سنان العطار يقول سمعت بعض أصحابنا يقول: خرجت يومًا إلىٰ واسط فإذا أنا بطير أبيض في وسط الماء وهو يقول سبحان الله علىٰ غفلة الناس، قال جعفر سمعت الجنيد يقول: لقيت شابًا من المريدين في البادية جالسًا عند شجرة، فقلت يا غلام ما الذي أجلسك ههنا؟ فقال: ضال افتقدته فمضيت وتركته.

فلما انصرفت إذا أنا به قد انتقل إلىٰ موضع قريب مني فقلت له فما جلوسك الساعة ههنا؟ قال: وجدت ما كنت أطلبه في هذا الموضع فلزمته، فقال الجنيد

قوله: من لطائف ما جرى عليهم

قوله: ما الذي أجلسك ههنا؟ فقال ضال افتقدته فمضيت فتركته.

فلما انصرفت إذا أنا به فقد انتقل إلىٰ موضع قريب منه فقلت له فما جلوسك الساعة ههنا فقال: وجدت ما كنت أطلبه في هذا الموضع فلزمته، ولعل لهذا الشاب المريد حالًا ووقتًا بينه وبين الحق يكون حيًّا بذلك ويمضي زمانه به ففقده هناك والمفقود يطلب في موضع فقده، ففقد هناك ولزم ذلك الموضع ليجده فيه.

ثم لما وجده في موضع آخر فقال: لزمته وله أصل في العرف والشريعة، أما في العرف فإن من وصل إلىٰ دولة يحافظ ويراعي كل ما كان معه قبل ذلك من الوطن والحيوان والخادم والصاحب والمحب والأهل.

فلا أدري أي حالتيه أشرف، لزومه لافتقاده حاله، أو لزومه الموضع الذي نال فيه مراده.

قال أبو عبد الله محمد بن سعدان: سمعت بعض الكبراء يقول: كنت جالسًا بحذاء البيت فسمعت أنينًا من البيت يا جدر تنحي عن طريق أوليائي وأحبائي، فمن زارك بك طاف حولك ومن زارني بي طاف عندي.

وأما في الشريعة فالأصل فيه خبر حارثه ﵁ قال له رسول الله ﷺ: **«أصبت فالزم»**[(١)].

قوله: سمعت أنينًا من البيت يا جدر تنحي عن طريق أحبائي فمن زارك بك طاف حولك، ومن زارني بي طاف عندي.

واعلم أن الكعبة قبلة النفس والعرش قبله القلب، والحق قبلة السر، فمتى لم يول النفس وجهها شطر الكعبة فحجبت عن الخدمة، ومتى لم يقبل القلب بوجهه إلىٰ العرش فحجب عن المعرفة، ومتى لم يقبل السر بوجهه إلى الحق فحجب عن المشاهدة، فلمقام قرب النفس نهاية وهي الكعبة، ولمقام قرب القلب نهاية وهو العرش وليس لمقام قرب السر نهاية لأنه الحق وليس له نهاية، ولهذا المعنى للنفس والقلب طواف وليس للسر طواف لأن الطواف في المكان وليس للمحبوب مكان فيسير إلىٰ نهاية المكان لا يجد المحبوب ولا يجد خارج المكان سبيلًا فيتحير، فلهذا يكون مقام السر الحيرة وإذا ثبت ذلك فالمراد بتنحية الجدر عن طريق الأحباء هي تنحيتها عن قدّام القلب لا عن قدّام النفس، لأن الكعبة لو كانت قدام القلب لم يجد القلب إلىٰ العرش سبيلًا، فالكعبة تكون تجاه النفس إبقاء لنصيب الشريعة والعرش تجاه القلب تحقيقًا للقربه ولكن ترتفع من عند السر تحقيقًا للمشاهدة وإلَّا لم يجد السرّ إلىٰ الحق سبيلًا.

والجملة أن العرش والكعبة غير الحق، فما دام السرّ يكون مشغولًا بغير الحق لا يكون له سبيل إليه، فما لم يرتفع الكون من عند السرّ لا يجد السبيل إلىٰ الحق.

❊ ❊ ❊

---

(١) تقدم تخريجه من قبل.

الباب الخامس والسبعون
في السَّماع

السماع استجمام من تعب الوقت، وتنفس لأرباب الأحوال واستحضار الأسرار لذوي الأشغال، ....

قوله: في السَّماع

اختلف الكبار في مأخذ السماع وأصله فمنهم من قال أصله هو أول الخطاب الذي سمعوا من الحق وهو قوله تعالىٰ: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾[الأعراف: ١٧٢] وأحسن السماع لذة هو ما سمع من الحبيب كما أن أحسن النظر هو النظر إليه، فقيل لهذا الخطاب تأويلان وصل وفراق، فالوصال للسعداء والفراق للأشقياء والخطاب واحد ومبهم، فافترقوا بالفعل حين أمروا بالسجود ولكن من حيره ذلك الوقت لا خبر لأحد من أن ذلك الخطاب له علىٰ أي وجه فالآن يسمعون ويتواجدون من شوق لذة ذلك السماع الأول، وقيل هذا التواجد إظهار للطرب إن سبق وصال وإظهار للكرب إن سبق فراق، ومنهم من قال أصله من حيث إنه قال هؤلاء في الجنة ولا أبالي وهؤلاء في النار ولا أبالي فتحيرت الطائفة الذين خوطبوا بقوله في الجنة من اللذة والسرور فإذا سمعوا تواجدوا رجاء أنا خوطبنا بفي الجنة أو خوف أنا خوطبنا بفي النار، ومنهم من قال أصله من لذة خطاب التكوين وهو قوله تعالىٰ وهو أول خطاب خاطب الله به الأشياء ولكن لا سمع للأشياء في ذلك الوقت، فلما وجدوا وصاروا لهم أسماع صار السماع غذاء لهم علىٰ رائحة السماع الأول.

قوله: السماع استجمام من تعب الوقت.

وتنفس لأرباب الأحوال واستحضار الأسرار لذوي الأشغال.

الاستجمام من الجمام بالفتح وهو الراحة، يقال جم الفرس جمًّا إذا ذهب أعباؤه، واعلم أن السماع علىٰ ثلاثة أنواع حلال وحرام وشبهة فمن سمعه بقلب مشاهد فهو حلال ومن سمعه بشهوة وهوى فهو حرام، ومن سمعه بمعقوله على صفة مباح من جارية

أو زوجة فهو شبهه لدخول الهوى فيه بحيث يكون الرغبة في الاجتماع طلبًا لتناول الشهوة واسترواحًا إلىٰ الطرب والهوى والعشرة لا يخفى أن هذا الاجتماع مردود عن أهل الصدق، وما فيه معنى من المعاني الثلاثة التي ذكرها صاحب الكتاب فهو حلال:

أحدها: استجمام من تعب الوقت وهذا السماع للمريد المجتهد المرتاض بمنع نفسه عن الشهوات وحملها علىٰ المكاره والمشاق بحيث تكاد تهلك، وهلاكها محظور شرعًا.

كما روي عن النبي عليه الصلاة والسلام، أو عن علي ﷺ إن لنفسك عليك حقًا، فإذا وصل من التعب إلىٰ هذا المقام ينبغي أن يستريح زمانًا لئلا ينقطع عن العمل ثم يفعل ما فعل فتستروح هذه الطائفة بالسماع لأن لذة السماع تبدي فيهم قوة ونشاطًا جديدًا للفعل الذي فعلوه.

وثانيها: تنفس لأرباب الأحوال، ومعنى الحال قد مَرّ ولمّا كانت الأحوال صفات الباطن، والعبد قد يغلب عليه هذه الأحوال ولا يستأنس معها ولا يجد سبيل الخروج عنها فيتحير فيخاف عليه من الضلال أو الهلاك يحتاج إلىٰ السماع لعله فيه يسمع ما هو موافق لوقته وحاله فيستأنس به زمانًا ويجد في ذلك التنفس راحة ليتقوى به فيطيق ويتحمل أحمال الوقت وأثقاله. وثالثها: استحضار الأسرار لذوي الأشغال وذلك يحتمل وجهين:

أحدهما: استحضار أسرار الغافلين المعرضين رأسًا، ولا يفيد لهم النصح والتذكر بالعواقب فيجعلون مشغولين بالسماع لتستحضر لذة السماع سرهم فيفيد لهم الوعظ فيتّعظوا.

وثانيها: استحضار أسرار العارفين وذلك إذا كاد أن يكون همتهم متفرقة بالاشتغال وينظر سرهم ويلتفت إلىٰ غير الحق فيخافون أن يجيء المدد لهذه التفرقة فيصيرون أشقياء فيحتالون إلىٰ السماع ليسمعوا فيه ما هو موافق لوقتهم ويحفظهم عن التفرقة ويصير سببًا لمجيء السرّ إلىٰ وقته لقوله تعالىٰ: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الذاريات: ٥٥].

وإنما اختير علىٰ غيره مما تستروح إليه الطباع لبعد النفوس عن التشبث به والسكون إليه فإنه من القضاء يبدو وإلى القضاء يعود، وأرباب الكشوف والمشاهدات استغنوا عنها بالأسباب الحاملة لهم من تنزه أسرارهم في ميادين الكشوف، سمعت فارسًا يقول: كنت عند قوطة الموصلي وكان لزم سارية في جامع بغداد أربعين سنة.

قلنا له ههنا قوّال طيب ندعوه لك، قال: أنا أجلّ من أن يستقطعني شخص أو ينفذ فيّ قول أنا ردم كله فالسماع إذا قرع الأسماع أثار كوامن أسرارهم فمن بين مضطرب لعجز الصفة عن حمل الوارد ومن بين متمكن بقوة الحال.

قوله: وإنما اختير علىٰ غيره.

أي وإنما اختير السماع علىٰ غيره مما يستروح إليه الطباع وتجد منه اللذة لبعد النفوس عن التشتت بالسماع والسكون واستيائها به، لأن السماع يبدو من الهواء ويعود إلىٰ الهواء، أي لا يكون له بقاء حتى يؤثر في السكون إليه بعد الانقطاع، فإنه إذا انقطع ينقطع أثره أيضًا واستعمال السماع إنما كان للضعفاء الذين لا يطيقون تحمل أثقال الوقت.

وأما أرباب المشاهدات والكشوف فاستغنوا بالمشاهدة عن الأسباب الحاملة لهم علىٰ المشاهدة، مثل السماع وغيره لأجل تنزه أسرارهم عما يشغلهم عن الحق في ميادين الكشوف يعني سرهم مجموع بالحق فلا يحتاجون إلىٰ السماع لأنه إنما يكون لمن لا يكون سره مجموعًا بالحق فيصيره مجموعًا به.

قوله: أنا أجلّ من أن يستقطعني شخص.

أي يستقطعني عنه شخص، وروي يستعطفني، أي أمالني عنه من عطف أي مال وأنا أجلّ من أن ينفذ فيَّ قول قائل: أنا ردم كله، والردم السد، أي لا تحملها إلىٰ الإصلاح والسماع للإصلاح فالسماع إذا قرع الأسماع آثار مستورات الأسرار فيتحرك واحد لعجز صفته عن حمل الوارد ويتمكن آخر بقوة الحال فلا يعجز عن حمل الوارد فيتواجد الأول لضعفه، ويتمكن الثاني لقوته علىٰ حمل البلاء.

قال أبو محمد رويم: إن القوم سمعوا الذكر الأول حين خاطبهم بقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢] فكمن ذلك في أسرارهم كما كمن ذلك في عقولهم.

فلما سمعوا الذكر ظهرت كوامن أسرارهم فانزعجوا كما ظهرت كوامن عقولهم عند إخبار الحق لهم عن ذلك فصدقوا سمعت أبا القاسم البغدادي يقول: السماع علىٰ ضربين فطائفة سمعت الكلام فاستخرجت منه عبرة، وهذا

قوله: فكمن ذلك في أسرارهم.

أي كمن الذكر الأول في أسرارهم، كما كمن ذكر الأول في عقولهم فلما سمعوا ذكرًا فيه يذكرون ربهم، ظهرت كوامن أسرارهم وهو الذكر الأول فانزعجوا، كما ظهرت كوامن عقولهم، وهو كون هذا الذكر عن إخبار الحق لهم عن كونه فصدّق العقول الله تعالىٰ في ذلك الإخبار، معناه أن كون الله تعالىٰ ربًّا لهم كان ولكن خفي علىٰ العقول أنه كان أم لا ووجدت الأسرار سماع هذا الذكر، ولكن خفي عليها لذة ذلك السماع فلما أخبر الله تعالىٰ عن كونه ربًّا لهم كان فما خفي علىٰ العقول ظهر وصح للعقول بإخبار الله تعالىٰ عنه فآمنوا به، ولما بدا سماع الذكر بدا وظهر للأسرار لذة السماع الأول تحركوا.

قوله: السماع علىٰ ضربين، فطائفة سمعت الكلام فاستخرجت منه عبرة.

يعني طائفة من المستمعين أن يكون القلب معهم، وتميزوا بين المعاني ويسمعوا بالتميز ويستخرجوا من الكلام ما هو موافق لوقتهم فيفعلون السماع علىٰ ذلك الوقت، وطائفة أخرى سمعت النغمة ولا يكون لهم خبر من معنى الكلام وتلك النغمة قوت وغذاء للروح، فإذا وجد الروح قوته أشرف علىٰ مقامه فاشتغل به فأعرض عن تدبير الجسم فإنه عند الإعراض اضطرب الجسم وحركته وأوّل ذلك بما قيل إن الله تعالىٰ خلق الأرواح بالعليين قبل الملائكة، فذكروا الله فيه وألفوا بذلك الذكر، ومقامات الأرواح مختلفة فإذا ظهر ههنا السماع ووصلت النغمة إلىٰ الروح فالروح بتلك النغمة يبدو فيه القوة والنشاط والشوق إلىٰ الموطن الأُنسي فيشتغل بطلب ذلك المقام فيغفل عن النفس ويضطرب خوف الفراق، فذلك الاضطراب إنما يكون سبب إعراض الروح عنها.

لا يسمع إلَّا بالتمييز وحضور القلب، وطائفة سمعت النغمة وهي قوت الروح فإذا ظفر الروح بقوته أشرف علىٰ مقامه وأعرض عن تدبير الجسم فظهر عند ذلك من المستمع الاضطراب والحركة، قال أبو عبد الله النباجي السماع ما أثار فكره واكتسب عبرة وما سواه فتنة قال الجنيد: الرحمة تنزل علىٰ الفقير في ثلاثة مواضع عند الأكل فإنه لا يأكل إلَّا عند الحاجة، وعند الكلام فإنه لا يتكلم إلَّا للضرورة، وعند السماع فإنه لا يسمع إلَّا عن وجد.

ومما ذكر كفايه لمن تأمل وتدبر وتفكر، والحمد لله علىٰ ما وفق ونستغفره من زلة أو تقصير وقع فيه، ولا حول ولا قوة إلَّا بالله العلي العظيم، وهذا آخر

قوله: ما أثار فكره.

أي في الحق وصفاته وأفعاله ومصنوعاته (. . . . . . .)[١] فتتحرك النفس من الخوف من الله.

قوله: لا يأكل إلَّا عند الحاجة.

وهي أن يخاف أنه يعجز عن خدمة الله تعالىٰ فيأكل للقوة علىٰ الخدمة ولا يتكلم إلَّا للضرورة، لأن الفقير الحقيقي هو أن لا يتعلق له إلا بالحق ولا يستأنس إلَّا به فلا يتكلم إلَّا له وذلك عند الضرورة، لأن من سمع الحق وقبله قليل.

قوله: فإنه لا يسمع إلَّا عن وجد.

وذلك يدل علىٰ فائدتين إحداهما: وجود الوجد لصحة السماع، والثانية: وجود سماع الفقير عند الوجد، وبالمفهوم يدل علىٰ عدم نزول الرحمة في سماع لم يكن عن وجد.

وفيما ذكر كفاية لمن تدبر والحق حقيق بتحقيقه.

ونسأله هداية لطريقه وإدامة لتوفيقه، والحمد لله وصلى الله علىٰ محمد وآله وصحبه.

---

(١) كلمة غير واضحة بالأصل.

الكتاب، والله تعالىٰ أسأله أن يلهمنا طريق الصواب، إنه الملك الوهَّاب.

وافق الفراغ منه في سابع عشر شهر ربيع الآخر، سنة تسع وخمسين وثمانمائة علىٰ يد تراب أقدام الفقير أحمد بن محمد بن محمد الأسدي الوفائي لطف الله به ونفع الله به مالكه وأقاربه والمسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات بمحمد وآله والحمد لله وحده والصلاة والسلام الأكملان الأطيبان علىٰ سيدنا محمد وآل وصحبه أجمعين وسلم، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

تم كتاب شرح التعرف لمذهب أهل التصوف نفعنا الله تعالىٰ به آمين.

❊ ❊ ❊

فهرس المحتويات

ŠARḤ AT-TAʿARRUF LIMAḎHAB 'AHL AT-TAṢAWWUF

By

Al-Imam Ali ben Ismail Al-Qunawi Al-Shafei

(D. 729 H.)

Edited By

Al-Sayed Yusuf Ahmad





شرح التعرف لمذهب أهل التصوف

يعتبر كتاب "**التعرف لمذهب أهل التصوف**" للإمام العالم العارف تاج الإسلام أبي بكر محمد بن إسحاق البخاري الكلاباذي (المتوفى سنة ٣٨٠هـ) أقدم موسوعة علمية في التصوف ومن أدق وأنقى وأصفى ما كتب عن هذا العلم، يقوم على منهج وغاية في الدقة والأمانة، وبراعة علمية وكفاءة فنية، يزينه ويجليه أسلوب عبقري يقصد إلى غايته بأرشق الكلمات وأحلاها وأعلاها، من غير إسراف أو تطويل أو خروج عن الهدف والمنهج.

وعليه فقد قام الإمام علاء الدين أبو الحسن علي بن إسماعيل بن يوسف القونوي الشافعي (المتوفى سنة ٧٢٩هـ) بشرح كتاب "**التعرف لمذهب أهل التصوف**" والذي وصلت أبوابه إلى خمسة وسبعين بابًا ناقش فيها مسائله في أسلوب بديع موضحًا بعض المسائل، مستشهدًا ومفسرًا لما ورد بالآيات والأحاديث، وكذلك بعض الألفاظ في المتن أوضحها، ليسهل على المطلع على كتابه الوصول لما يقصد من معناها.


ISBN: 978-2-7451-8603-4



tel: +96176 944855-P.O.Box: 11- 374 Riyad Al-Soloh
E-mail: books.publisher@hotmail.com

